تصحيح أفكار ومعتقدات

3

هل كان محمد صلى الله عليه وسلم شهوانياً؟

سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

تصحيح
أفكار
ومعتقدات

3

هل كان محمد صلى الله عليه وسلم شهوانياً؟

سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

هل كان محمد ﷺ شهوانياً ؟

2003

عنوان المؤلف
دمشق - سورية
ص ب 5425
هاتف +963 11 2710915

الطبعة الاولى
2000 نسخة

العمليات الفنية

الأوائل للنشر والتوزيع
والخدمات الطباعيــة

تلفاكس: +963 11 2248255

- تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الإلكتروني التالي على شبكة الإنترنت :

  http://www.saleemaljabi.com

- يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الإنتقادات و الآراء و الاستفسارات على البريد الالكتروني :

  saleem@saleemaljabi.com

-

هل كان محمد ﷺ شهوانياً ؟

صدر للمؤلف

- السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر
نظرية جذور الأخلاق
القضاء و القدر نظرية كونية ثابتة
النظرية القرآنية حول خلق العالم
الرأي في المرأة والحرية و التراث
فن الاختزال القرآني [المقطعات القرآنية]
هل مات المسيح على الصليب ؟
الله جل جلاله [وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه]
نشوء الإنسان وتطوره
منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره

- سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام

- سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف
في ظلال دلالات سورة الإسراء
في ظلال دلالات سورة هود

- سلسلة تصحيح أفكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع
الجن حقيقة أم خيال ؟
هل كان محمد [ص] شهوانيا
يصدر قريبا من هذه السلسلة:
أحجية العقل

لم يكن محمدٌ رسول اللّه ﷺ شهوانيّا
فأمّهاتُ المؤمنين
(مؤسّسة إرشادٍ نسائيّة)

مقدّمة البحث:

عندما تلقّيتُ تعليمي الدِّينيّ حدّثوني عن ظاهرتي تعدّد زوجات النبيّ ﷺ وعن ظاهرة السماح للمسلم بتعدّد زوجاته وعلى حسبِ ما هو شائع ومعروف بين المسلمين في زماننا الحاضر من تلك المفاهيم التقليدية الموروثة تلك المفاهيم التي طالما أمست دريئةً لسهام أعداء دين الإسلام الحنيف في هذا القرن الأخير كلّما حاولوا الاستهانة بتعاليم الإسلام العظيم. وبما أنني نشأتُ على الإسلام وعلى محبّته فقد كان همّي الأوّل والذي نذرتُ لهُ نفسي هو الدفاع عن تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف ولكن بأسلوبٍ علميٍّ وموضوعيٍّ مدعّمٍ بالحجج والبراهين التي تنبعُ من مُعطياتِ آي الذّكر الحكيم. فدفعني طبعي هذا ومنهجي في البحث لإعادةِ النظر في جميع أفكارنا الدّينيّة ومفاهيمنا التي لقّننا إيّاها أهلنا ونحنُ صغار والتي تلقّيناها على مقاعد الدّراسة. ومن هذا المنظار رحت أتدبّرُ هاتين الظاهرتين: ظاهرة سماح القرآن الكريم للمسلم بتعدّد زوّجاته وظاهرة زواج محمّدٌ رسول الله ﷺ بعددٍ من النساء تلك الظاهرة

التي فتحت لأعداء ديننا الإسلاميّ الحنيف باب اتّهام رسولنا الأكرم بأنّه كان مِزواجاً وشهوانيّا. فرحتُ أتدبّر هذين الموضوعين من زاويةِ نظرٍ نقدٍ موضوعيّةٍ ووفقَ منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. خصوصاً وأنَّ المتغيّرات العالميّة والعلميّة التي حدثت في عالم اليوم قد ساعدتني كثيراً على إجراء عمليّة إعادة النّظر في هذه المفاهيم الدينيّة المتوارثة لدى أمّتنا الإسلاميّة منذ أكثر من ألفِ عامٍ وعلى جميعِ المستويات.

فحاولت على الدوام أن أبدأ بإلقاء نظرة شموليّة أستعرض خلالها هذا التاريخَ المتوارثَ والموزّع ما بين كتب السيرة وما بين كتب التاريخ وما بين غيرها من الكتب وأبحثُ فيما أعثر عليه من معلوماتٍ تمُتّ إلى موضوع تعدّد زوجاتِ محمّد رسول اللّه ﷺ وأقلّب نظري فيها ومحاولاً إسقاط معطيات الآيات القرآنيّة العائدة إلى هذا الموضوع بالذّات على ما كنت أحصلُ عليه من معلومات حتى باتت تتجمّعُ في ذهني خيوطُ مفاهيم جديدة تخالف هذا الفهم الدينيّ الموروث والتي كانت غائبةً عن أذهانِ الباحثينَ والمفكّرين من قبلي. وألخّصُ للقارئ الكريم مضامين تلك الخيوط التي تشكّلت منها تلك المعلومة الجديدة في إطار الأمور التالية:

أوّلاً ـ فقد تبيّنَ لي أنَّ غالبيّةَ النساء اللواتي تزوّجهنّ النّبيّ محمّدٌ رسول اللّه ﷺ كانت من النساء الأرامل ومن السابقات في الإيمان وممّن كان أزواجهُنَّ قد استشهدوا في ساحات الدفاع عن هذا الدين الحنيف وكُنّ قد بلغن ما يسمّونه في مجتمعنا (سنّ اليأس) وبمعنى أنّ الواحدة منهنّ كانت قد أصبحت لم تعُد صالحةً ليعاشرها زوجها جنسيّاً ولا هي

صالحةً لإنجاب ذرّية من بعد زواجها برسول اللّه ﷺ حتّى وكانت تلك الزوجات أمّهات لأولادٍ يتامى هم بحاجة لِمن يرعاهم ويُنفقُ عليهم أيضاً. وأنَّ تلك النّسوة الأرامل كُنَّ يقُمنَ بإعالة أبنائهنّ بأنفسهنَّ بعد استشهاد أزواجهنّ. وتساءلت هنا بعد وقفة هنيهة: وهل يقدم على هذه الخطوة شابٌّ شهوانيٌّ جنسيّا؟ والمهمّ في الأمر هو أنّ تلك النسوة الأرامل اللّواتي أصبحنَ زوجاتٍ لرسولِ اللَّه ﷺ كان أكثرهنّ قد بلغ سنّ اليأس ولم يعُدنَ صالحاتٍ ليعاشرهنَّ رسول اللّه ﷺ جنسيّاً كما أصبحن بعدَ زواجهنَّ من محمّد رسول اللّه ﷺ عبئاً عليه من جهةٍ أخرى بسبب زواجه من أرامل وراءهنّ أبناء يتامى. فتساءلتُ في حديثِ نفسي من جديد: وهل يُقدِمُ رجلٌ على هذا النّوع من الزّواج إن كان كما يصفه أعداء الإسلام: شهوانيّاً ومِزواجاً؟؟

ثانياً - ولم أكتف بهذا الكشف التاريخيّ بل وتقصّيتُ سِيَرَ وتاريخَ تلكَ الأرامل اللّواتي أصبحنَ زوجاتٍ لأعظمِ نبيٍّ بعثهُ اللّه تعالى لهداية البشر. فتبيّنَ لي أنَّ تلك النسوة الأرامل ومن حيث قبولهنّ للإسلام ديناً كنّ من السابقاتِ في تقبّل هذا الدّين الإسلاميّ الحنيف وقد تقبّلنهُ في السنوات الأولى من البعثة المحمّديّة وابتعدنَ بالتالي عن عقائد المشركين الموروثة بصورةٍ عمليَّة وتحمّلنَ هنّ وأزواجهنّ في سبيل اللّه تعالى وسبيلِ الحفاظِ على دينهنّ الجديد من المصائب والشدائد والتضحياتِ ما عجز أكثرُ الرّجال عن تحمّله. وهنا قد صحّ قول اللّهِ عزّ وجلّ في حقّهنّ وفي حقّ أزواجهنَّ ما أورده اللّه من قوله عز وجلّ في الآية من سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ

ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا القول الذي أشارَ اللّه تعالى من خلاله إليهنّ وإلى أمثالهنّ من الرّجال والنّساء المؤمنين والمؤمنات. وقد أشار اللّه تعالى إليهم جميعهم رجالا ونساء وذلك في الآية 100 من سورة التّوبة والتي قال اللّه تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. هذا الكلامُ الإلهيّ المحذوف منه مُضاف كلمة (ٱلۡمُقَرَّبُونَ) لِتوسيعِ معانيها ودلالاتها بلاغيّا ولِينصرف معناها إلى عدّةِ معانٍ ومن تلك المعاني:

أوّلاً: أي أنّ أولئك الرجال والنساء من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسانٍ هم من المقرّبينَ من اللّه تعالى خالقهم من الوجهة الرّوحيَّة لثباتهم على الإسلام ولتحمّلهم جميعهم في سبيله في تلك الأيّام مختلف التّضحيات التي ينوء بحملها من كان منافقاً أو كان ممّن آمنَ بالإسلام لكنّه كان ضعيف الإيمان.

ثانياً: أي وأنّ هؤلاء الرجال والنساء ليسوا مقربين من ربّهم وحسب بل وإنّهم كانوا مقرّبين من رسولِ اللّهِ ﷺ نفسه وهو الرّسول الذي تبلّغوا منه هذه الرسالة السماويَّةَ وهو الّذي حمّلهُ اللّه جلَّ شأنهُ مسؤوليَّةَ نشرِها على العالم بأسره. رسالة هذا الدّين الّذي اعتنقهُ هؤلاء المقرّبون من الرّجال والنّساء على يديه ﷺ.

ثالثاً: والمعنى الثالث الذي نتج عن هذا الحذف البلاغي المشار إليه هو أنّ هؤلاء المذكورين مقرّبون من نفوسِ المؤمنين الذين جاءوا من بعدِهم ممّن أسلموا ولم يكونوا من السّابقينَ في تقبُّل هذا الدّين الحنيف

بل كانوا من التّابعين ليقينهم بقرب هـؤلاء من اللّه تعالى ومن قلوبهم ولذلك تلاحظُ كيف كان أولئك التابعون يُعطون أولئك السابقين في الإيمان حظّاً من القداسة أيضاً كلّما تطرّقت أحاديثهم إليهم. وبألفاظ أخرى فقد كان من واجبنا أن نقول: لقد كانَ تاريخُ تلك النّسوةِ الأرامل اللّواتي أصبحنَ في أواخر عقود حياتهنّ زوجاتٍ لهذا النّبيّ ذو الخلق العظيم والمبعوثِ ليتمّمَ مكارم الأخلاق أقول لقد كان تاريخهنَّ متميِّزاً عن بقيَّةِ النّساء المسلمات السابقات في الإيمان. لذلك كان ينبغي أن نقول بأنّ زواج رسول اللّه ﷺ من تلك النسوة الأرامل كان في حقيقة أمره لا يُشابه زواج أيّ فتى من الفتيان المقبلين على الزواج بفتاة مسلمة بأي شكلٍ من الأشكال بل كان زواجاً متميّزاً وله خصائصه المُعيّنة ويحمل من ورائه مقاصد سامية أيضاً.

رابعاً- والأمر الرابع الذي اتّضح لعينيّ بعد لؤي هو أنّه تبيَّنَ لي أنَّ عمليَّةَ زواج هذه الغالبيَةِ من زوجاتِ رسولِ اللّه ﷺ قد تمَّ في دار الهجرةِ أي في المدينة المنوّرة بالذات وليس في السنوات الثلاثة عشرة التي أمضاها رسول الله ﷺ في مكّة المكرّمة. وبألفاظ أخرى فإنّ الزواج المشار إليه منهنّ قد تمّ في السنواتِ الّتي تضاعفت فيها المسؤوليّات المُلقاةُ على عاتق هذا الرسول الأمين من جانبِ ربّهِ عزّ وجلّ وبعد أن أصبح حاكماً في المدينة المنورة وحيث كان من مهمّته إكمال أداء رسالةِ ربّهِ عزّ وجلّ بعد أن أعطاه دولةً يحكمها. وعندما نقول قد قامت في المدينة المنوّرة حكومة إسلاميّة يرأسها محمّد رسول اللّه ﷺ فإنّ قيام حكومة يعني تأسيس نظام سياسيّ فما هي معالم هذا النظام السياسي الذي

ينبغي على رجلٍ أمّيٍّ أن يقيمه وسط أمّة أمّيّة أيضاً يندر وجود رجال من بينهم من يعرف أن يكتب ويحسب. وعليه فقد أصبح محمّدٌ رسول اللّه ﷺ في تلك الحالة مشغولاً إلى درجةٍ كبيرةٍ ما عاد يملك معها وقتاً ليتفرَّغَ فيه لمعاشرة وملاطفة تلك الزوجات الأرامل جنسيّاً وإعطائهن الوقتَ اللازمَ لملاطفتهنّ ولمعاشرتهنَّ كزوجٍ قوّامٍ عليه مسؤوليّات تجاههنّ وتجاه أبنائهن الأيتام. والذي زادني دهشةً أنّه قد تبيّن لي أيضاً بأنّ غالبية تلك النسوة الأرامل كُنّ قد رأين في أحلامهنّ رؤى مبشرة من قبل تتعلّق بزواجهنّ برسول اللّه ﷺ وقد بشرهنّ ربّهن فيها بما هو آتٍ على الطريق وبما يتعلّق بهذه العلاقة التي ستربطنّ برسول اللّه ﷺ تقديراً لسبقهنّ في الإيمان ومكافأةً لهنَّ على عظيم تضحياتهن في سبيل الحفاظ والدّفاع عن دينهنّ الجديد.

خامساً - والأمر الخامس الأهمُّ من جميع ما ذكرناه هو انتباهي إلى ذاكَ الخطاب الإلهيُّ الذي كان قد وجّههُ اللّه جلّ شأنهُ إلى رسوله الصادق الأمين والوارد في الآيتين 28/ 29 من سورة الأحزاب في كتاب اللّه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فهذه الكلمات التي اشتملت عليها هاتان الآيتان الكريمتان تعجُّ بالمعاني العظيمةِ التي نبّهت أذهاننا إلى أنَّ زواج رسول اللّه ﷺ من تلك النسوة الأرامل لم يقدّرها اللّه عز وجلّ بغاية المعاشرة الجنسيّة بينهنّ وبين رسوله الكريم بل كان اللّه تعالى يرمي من وراء ذاك

التقدير إلى تحقيق مقاصد سامية هي في صالح الإسلام وفي صالح نساء المسلمين خاصّة. ومن منطلق هذه المعلومة فقد اتّضحت لعينيّ من مُعطيات الآيتين المذكورتين مقاصد سامية كان اللّهُ تعالى قد شاء تحقيقها من خلال تزويج رسوله الكريم بتلك الزوجات من النّساء الأرامل والسابقات في الإيمان وهو موضوعٌ سيأتي شرحهُ في وقته المناسب إن شاء اللّه العزيز.

سادساً ـ ولم أكتف بما توصّلت إليه بل رحت أُلقي نظرةً فاحصةً على تاريخ تلك النّسوة الأرامل اللّواتي أصبحن زوجاتٍ لرسول اللّه ﷺ وأتفحّص ماضيهنّ وأحوالهنّ الرّوحيّة التي بلغنها بعد تقبّلهن الإسلام ديناً ومبلغَ تحملهن تلك التضحيات الجسام في سبيله. فقد أدهشتني ملاحظة أنَّ غالبيّتهنّ كانت لهنّ صلات مع ربّهنّ ويرين الرؤى الصالحة وكنّ في غاية الاتّقاء والصلاح.

سابعاً ـ فلمّا تقصّيتُ أعمار تلك النّسوة حين تمّ زواجهنّ من رسول اللّه ﷺ وسنيّ وفاتهنّ فقد تبيَّنَ لي بأنَّ اللّهَ عزّ وجلّ كان قد أمدَّ بأعمار تلك النّسوة اللواتي أصبحن أمّهات للمؤمنين وامتدّ إلى أواخرِ تاريخ الخلافات الأربعة الرّاشدةِ والّتي تحقّقَ على أيدي رموزها ما هو معروفٌ من خدماتٍ للإسلام لدى جميع الباحثين والمؤرّخين.

ثامناً ـ وعندما تقصّيتُ النظام السياسيّ الذي اعتمده محمّدٌ بن عبد اللّهِ لإقامة حكومة في المدينة المنوّرة لإكمال أداء رسالةِ ربّهِ عز وجلّ وبتوجيه خاصٍّ من ربّهِ جلّ شأنه الّذي بعثهُ في أمَّة مشهورةٍ بأنّها أمّةٌ أميّةٌ وهو نفسهُ كانَ أميّاً. فالذي اتّضحَ لي بشأن النّظام السياسي

المعتمد أنّه كان نظام مؤسّسات لكن ليس بشكليّات المؤسّسات التي نعرفها في أيّامنا هذه ولكن بشكليّات تتناسب وتلك البيئة الأمّية التي أُنشئت فيها تلك المؤسّسات ولتفي بالحاجة المطلوبة. وكان يرأس تلك المؤسسات رسول اللّه ﷺ نفسه وهو الذي جعله ربّه خليفةً في الأرض. وبما أنّ كتاب اللّه العزيز اشتمل على أحكام مختلف المواضيع لذلك اعتبرت نظام الخلافة المشار إليه أنّه نظامٌ دستوريّ. وبما أنّه تعالى قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. فمعنى ذلك أنّه كان نظاماً دستوريّاً برلمانيّاً أيضاً. وسأحاول أن أشرح في حينه أنّ زوجات رسول اللّه ﷺ قد اصطفاهنّ ربّهنّ ليشكّلن (**مؤسّسة إرشادٍ نسائيّة**) وفق مقتضيات البيئة التي نشأت في المدينة المنوّرة والتي مهمّتها توعية وإرشاد وتفقيه نسوة المسلمين بأمور دينهنّ تلك الأمور التي ما كان باستطاعة رسول اللّه ﷺ نفسه أداءها على الوجه الصحيح وعلى اعتبار أنّها تتضمّن أحكام فقه النساء خاصّة. وليصبحَ تأسيس تلك (**المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة**) مؤسّسة مستقلّة قائمةً بذاتها وليس لها من قبل مثيل. وتُساعد رسولَ اللّهِ تعالى على تأديةِ رسالةِ ربِّهِ عزّ وجلّ خصوصاً وأنّ رعاية وتوجيه وتفقيه نساء المسلمين كان بأمسّ الحاجة لتأسيس تلك (**المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة**) المذكورة والتي هي على شاكلة الاتّحادات النسائيّة الحاليّة في قطرنا العربيّ السوري. وقد أنشأها رسول اللّه ﷺ وبتوجيهٍ من ربّه عز وجلّ لتمدّ نساء المسلمين بكلّ ما يمتّ إلى فقه النّساء من معلوماتٍ له صلةٌ بهنّ. ومن باب أنّ الفقه النّسائي لا يستطيع أداؤه على وجهه الصحيح إلاّ النّساء أنفسهن.

وعليه فلم يُقدم رسول اللّه ﷺ نفسه على الزّواج بتلك الأرامل من السابقات في الإيمان لمعاشرتهنّ جنسيّاً ولكن مشيئة وتوجيه اللّه تعالى نفسه كانت وراء ما حدث بدليل تلك البشارات السماويّة التي تلقّتها تلك النسوة الأرامل السابقات في الإيمان من قبل زواجهنّ به ﷺ وبدليل مضامين الآيات الكريمة التي تشرح هذه الحقيقة والتي سآتي على إيرادها في الوقت المناسب.

فهذه هي الحقائق الثمانية التي توصّلتُ إليها بنتيجة ذاك البحثُ والتحقيق الذي أشرت إليه آنفاً ولقد منحتني تلك الحقائق يقيناً تامّاً بأنَّ محمّداً ﷺ لم يكن رجلاً شهوانيّاً وعلى حسب ما وصفه به الظالمون من أعدائه وأعداء الإسلام بهذا الوصف البشع طوال القرون الماضيةِ. كما تيقَّنتُ من أنَّ جميعَ الّذين كتبوا في مجال موضوع الدّفاعِ عن تعدّد زوجاتِ رسول اللّه ﷺ لم يهدهم اللّه عز وجلّ إلى حقيقة ما هداني إليهِ من حقائق ذكرتُها آنفاً لذلك يلاحظهم القارئ الكريم قد أخطئوا في فهم هذا الموضوع ولم يُحسنوا الإحاطة بعلم حقيقة النظام السياسي الذي قام على أيدي رسول اللّه ﷺ في المدينة المنوّرة والذي ساعده على أداء رسالة ربّه عز وجل.

فلمّا تجمّعت تلك الخيوط الموضوعيَّة في ذهني أخذت أناقشها وأتوسّعُ في فهم مضامينها محاولة من جانبي للإحاطةِ بمعطياتها شيئاً فشيئاً إلى أن اكتملت صورتها الحقيقيَّة أمام ناظريّ واتّضحَ لي مدى الفارق الكبير الذي يفصلُ ما بينَ هذه الحقيقة الواضحة المعالم التي أشرت إليها وما بين الفهم التّقليديّ الذي تلقّيناهُ على مقاعد الدّراسة أو

طالعناه في مؤلّفات الّذين تصدّوا للدّفاع عن كلّ ما يمتّ إلى الدّين الإسلاميّ بصلة من الصّلات. لذلك أقول إنّ على كلّ قارئ شاء التّوسّع في فهم ما أتيتُ على بيانه ملخّصاً جدّاً فمن واجبه مطالعة هذا الكتاب من أوّله حتّى آخره مطالعةً متأنّيةً ليتأكّدَ من مصداقيّة ما لفتُّ نظرهُ إليه.

والآن يطرح هنا سؤالٌ نفسه وهو من أيّة نقطة انطلقت في هذا البحث؟ فأجيب بأنني كنتُ قد طالعت تاريخ الأمم والشعوب وقد تبيّن لي أنَّ مبدأ تعدّد الزّوجات كان شائعاً في أكثر بقاع الأرض ممّا لا حاجةَ بي هنا إلى الكلام عنه. وإنّ العرب منهم خاصّةً قد عرفوا خلال تاريخهم الطويل نظامَ تعدّد الزّوجات. لذلكَ لم يكن مُستغرباً أن يُلاحظَ العربُ بأنَّ هذا الرّسولَ الّذي بعثهُ اللّه عز وجلّ منهم راح يتزوّجُ من أكثر من امرأةٍ واحدةٍ في حياته ولهذا السبب فإنّهم لم يعترضوا على تعدّد زوجاته. ومن منطلقِ أنَّ ما أقدمَ عليه رسول اللّه ﷺ كانَ بالنّسبةِ إلى بيئتهم شيئاً اعتياديّاً. ومن هنا جاء تأسيس (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) موافقاً للبيئة التي أُنشئت فيها ولم ينتبه أحد إلى عمليّة إنشائها بتلك الطريقة غير المستوردة من خارج البيئة العربيّة والتي تدعو حينذاك إلى الاستهجان ولتكون وسيلةً سهلةً لمحاربة الإسلام من منطلق أنّ محمّداً يستورد للبيئة العربيّة بضاعةً معروفةً ولا دخل للنبوّة في هذه العمليّة من قريبٍ أو بعيد. وهنا أدركت في الوقت نفسه أنّ **محمّداً** المصطفى ﷺ ما كان يدري هو نفسه أنّه يؤسّس من خلال عمله على توجيه ربّه عزّ وجلّ أنّه يؤسس هذه المؤسسة التي ذكرناها. بدليل قول

اللّه تعالى في الآية 52 من سورة الأحزاب: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾. فمضمون هذه الآية الكريمة واضح الدلالة بأنّ محمّداً ما كان يُقدم على الزواج في المدينة المنوّرة بمشيئته بل كان يُقدم على تلك الخطوات بتوجيه من ربّه عز وجلّ ومن دون أن يدري بالغاية من تلك العمليّات. لذلك وبعد أن اكتمل العدد المطلوب من النسوة الأرامل والسابقات في الإيمان والتي يحتاجها تأسيس تلك (**المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة**) المطلوبة أمر اللّه تعالى نبيّه بالتوقّف عن تلك العمليّة البعيدة الأهداف. فلو كان محمّد رسول اللّه ﷺ شهوانيّاً وبحاجةٍ إلى الزّواج بالعديد من الزّوجات لكان ﷺ قد أقدم على الزّواج من فتيات بكرٍ وعذراوات وهنّ في عزّ صباهنّ وليس الزواج بنسوة أرامل ما عُدن صالحات للمعاشرة جنسيّاً. وعلى حين أنّه ﷺ كان قادراً على فعل ذلك بعد أن أصبح رئيس دولة. وعلى هذه الصورة فلم يُدرك أصحاب وصحابيّات رسول اللّه ﷺ ومن خلال تزوّج رسول اللّه ﷺ من تلك النسوة الأرامل السابقات في الإيمان أنّه كان في حقيقة أمره يُنشئ مؤسّسة إرشادٍ نسائيّة لتوعية النساء في أمر الفقه العائد لأوضاعهنّ. تلك المؤسّسة التي أُعطيَت شعار (**أمّهات المؤمنين**) إشعاراً بقداسة مهمّتها التي كانت تنحصرُ في القيام في تفقيه نساء المسلمين بأمور دينهنّ. وإنّ ما زادني يقيناً بما توصّلت إليه هو أنّ اللّه عز وجلّ نبّه أذهاننا في الآية الأولى من سورة النساء إلى موضوع مساواة المرأة بالرجل وأنّ نظام التعددية يخالف مبدأ المساواة المذكور

وأنّ اللّه حين أجاز التعدّديّة للمسلمين في صدر الإسلام كان الغرض من ذاك السماح هو لمعالجة معضلاتٍ طرأت على المجتمع الإسلامي ليس إلاّ وأنّ هذا السماح ينبغي التوقّف عن الأخذ بحكمه الاستثنائيّ بعد زوال تلك المعضلات الاجتماعيّة المشار إليها. وعليه فقد كان عمل رسول اللّه ﷺ على مبدأ التعدّديّة لمصلحة دينيّة وليس لإرضاء شهوة محمّد المصطفى ﷺ نفسه. (من المناسب أن يراجع القارئ مؤلّفي الذي توسّعت فيه في بحث موضوع مبدأ التعدّدية وسمّيته باسم حقيقة الحكم بمبدأ تعدّد الزوجات).

ومن ثمّ وبعد جميعِ ما قمتُ به من بحوثٍ ودراساتٍ قرآنيَّة أشرت إليها آنفاً عاد بإمكاني أن ألخّص للقارئ الكريم جميع ما ذكرته باختصار شديد فأقول: إنّهُ قد تبيّنَ لي ومن خلالِ مطالعاتي الشخصيّة أنَّ أذهانَ من جاء قبلي من علماء هذه الأمّة الفاضلين لم تنتبه إلى حقيقة هاتين الظاهرتين المتعلّقتين بتعدّد زوجاتِ رسول اللّهِ ﷺ وبالسماح للمسلم بالزواج من أربعة زوجاتٍ في صدرِ الإسلام. كما لم تنتبه إلى أنّ المقصد من تعدّد زوجات رسول اللّه ﷺ أنّه كان مخطّطاً له في السماء وله دور مؤسسة إرشادٍ نسائيّة ووفق معطيات الآيات الكريمة التي سأعرضها في حينه والتي نبهت الأذهان إلى حقيقة ما ذكرته من قبل.

وأضيف هنا وأقول: فاعلم يا صاحبي أنَّ من المعلومِ هو أنَّ كلّ إنسانٍ يُكلَّفُ بمسؤوليّاتٍ كبيرةٍ لابدّ له من أن يتّخذ من الوسائل والأسباب ما يساعدهُ على القيام بتأدية تلكَ المسؤوليّات على الوجه الأكمل. فما بالكَ يا عزيزي القارئ برجلٍ أمّيٍ ويتيمٍ يُكلّفهُ ربّ العالمينَ

بتبليغ الناس أعظم رسالةٍ أنزلها على عبادهِ. فهل يُعقلُ أن يدعه اللّه تعالى يعمل لوحده ولا يوجّه ذهنهُ ليأخذ بوسائلَ وبأسبابٍ فعالة تعينُهُ على تأديتهِ مهمّته السماويَّةِ المذكورة وفي وقتٍ كانت شريعته أعظم الشرائع السماويّة وآخرها؟ حاشا ثمّ حاشا أن يحدث مثل ذلك التّقصير من جانب اللّه الحكيم والعليم الخبير جلَّ وعلا. فالذي تبيَّنَ لي بنتيجة هذه النّظرة الشموليّة التي أقدمت عليها وهذا المُنطلق الذي انطلقتُ منه والبحث الذي قمت به في هذا المجال أقول قد تبيّنَ لي أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ هو نفسهُ الذي كان قد وجّهَ رسوله الصادق الأمين ليعمدَ إلى الأخذ بجميع الوسائل التي أخذ بها على طريق تبليغ رسالة ربّه عز وجل وإنَّ اللّه جلّ شأنه هو الذي وجّه رسوله الكريم ليقومَ بإنشاء مؤسّساتٍ تُعينهُ في هذا المجال ولكن ليس على الطّريقة التي نعرفها في زماننا الحاضر ولكن بأسلوبٍ فطريٍّ يتلاءم والبيئة التي كان موجوداً فيها. وإنّ تلك المؤسّسات التي أمر اللّه تعالى محمّداً ﷺ بإنشائها لم تكن على طراز ما نعرفه من مؤسّساتٍ معاصرةٍ خصوصاً وأنّ العرب كانوا أمّيين. ولكنّه تعالى كان قد تكفّل بنفسه توجيه رسوله الكريم لإقامتها بالشكلِ المناسبِ وبما يتلاءم مع ذاك الزّمان. بدليل أنّه تعالى خاطب محمّداً في الآية **56** من سورة القصص من كتابه العزيز وقال له: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾؟ وكان من واجبنا تدبُّرَ هذا الخطاب الإلهيّ بأصولٍ ومنهجيّةٍ ومن المُنطلقِ الذي انطلقتُ منه في هذا البحث. ذلكَ أنّ الكلمات التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة قد جرى حذفُ مضاف كلمة (بِٱلْمُهْتَدِينَ) ليحملَ هذا

الحذف البلاغيُّ للمفكّر الباحث آيات من الحقائق والعلوم. فقد قصد اللّه عز وجلّ من خلال ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من مضامين أنَّ الإنسانَ لا يرى في حقيقة أمره إلاّ ظواهر الأشياء ولا يتجاوز علمه إلى ما وراء ذلك ولا ما انطوت عليه الصّدور. لكنَّ اللَّه جل شأنه فهو يعلم خفايا الأشياء ولذلك فهو أعلمُ بالمهتدينَ الّذينَ يستميتون في حياتهم بحثاً عن الحقيقة. وهو تعالى أعلم بالمهتدينَ الّذين يعمدونَ في سلوكهم الشخصيّ اليوميّ إلى تجنُّبِ ما يؤذيهم. وهو تعالى أعلم بالمهتدينَ إلى معايير صدقِ الأنبياء. وأمثال هذه المعاني التي وجّهنا إليها هذا الحذف البلاغيّ لمضاف كلمة (بِٱلْمُهْتَدِينَ) الحادثُ في هذه الآية الكريمة والذي أشرتُ إليه. وكأنَّ اللَّه تعالى قد قال لرسوله الأمين في هذه الآية الكريمة بألفاظٍ أخرى أنَّ مهمّةَ تشكيل فئةِ المؤمنين الطليعيّين الذين بإمكانك أن تعتمدَ عليهم والذين بإمكانهم أن يساعدوك على حملِ هذه الرّسالة التي كلّفكَ ربّك بحملها وبتبليغها إلى الناس أجمعين. إنَّ هذه المهّمة العظيمة تتطلّب من جانبك الدّعاء على أعتاب ربّك والتوكّل عليه على طريقِ تبليغك هذه الرّسالة السماويّة. فلماذا ينبغي عليك التوكّل على اللّه تعالى وعلى الدعاء بين يديه سبحانه؟ السببُ في ذلك هو أنَّ اللّه ربّك (وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ) أي أنّه تعالى هو أعلم بالصالحين من الأفراد الذين ينبغي أن يهتدوا على يديك وليساعدوك في هذا المجال. وإنَّ هذا المفهوم وتلك الحقيقة التي أطلعتُكَ عليها تفسّرُ لكَ يا عزيزي القارئ ذاك الدأب الطويل الذي دأب رسول اللّه ﷺ على القيام به وهو القيام ساعات

طوال في اللّيل للدّعاء كذلك الدّعاء (اللهم أيّدنا بأحد العُمَرين) وقد أيّد اللّه تعالى محمّداً ﷺ بعمر بن الخطّاب بأسلوبٍ معجز وحسبما يروي لنا تاريخه وحادثة اهتدائه إلى هذا الدين الإسلاميّ الحنيف.

فالمهمُّ في الأمر هو أنَّ مضمون هذا التوجيه الربّاني الذي اشتملت عليه هذه الآية التي أوردناها آنفاً قد وجّه ذهن رسول اللّه ﷺ إلى أنَّ اللَّه تعالى سيجمعُ حولهُ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات أطلقَ اللّهُ تعالى عليهم في الآيات من سورة الواقعة شعار: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. أي السابقون في الإيمان من الرّجال ومن النّساء والسابقون في حمل مسؤوليّات تّبليغ هذه الرسالة السماويّة والسابقون في التّضحيات في سبيل اللّه عزّ وجلّ. وأولئك هم المقرّبون من اللَّهِ جلَّ شأنه والمقرّبون من رسول اللّه والمقرّبون من كافّة المؤمنين والقادرون على الفهم وعلى العمل على تعاليم هذا الدّين الإسلاميّ الحنيف.

فإن تساءلَ المرء عمّن أشيرَ إليهم في هذا الكلام الإلهي ومن الرّجال خاصّةً؟ فلا يجدُ إلاّ عليّاً وأبا بكر الصّديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وخالداً بن الوليد وأمثالهم ممّن حقّق اللَّهُ تعالى على أيديهم أعظم الإنجازات على صعيد تثبيت دعائم الإسلام. ولا يجد من النّساء إلاّ خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر الصّديق وسودة بنت زمعة وحفصة بنت عمر بن الخطّاب وهند بنت أبي أميّة وغيرهنَّ من النّساء اللّواتي أصبحنَ على مرِّ الأيّام رائداتٍ في الإيمان وفي الثبات على الإيمان وفي التضحية في سبيل اللّه ومن المقرّبات من اللّه

ورسوله. فهؤلاء جميعهم هداهم اللّه تعالى كأوائل وطلائعَ لمعاونة محمّدٍ رسول اللّه ﷺ على طريق تبليغ رسالة ربّه عز وجلّ.

فبهذا الفهم الذي أمدّنا به قول اللّه عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾. تتجلّى لأعيُننا معالم الأشخاص الذين قدّر اللّه تعالى لهم أن يكونوا أعضاء تلك المؤسّسات التي أخذ اللّه تعالى على عاتقه مهمّة توجيه رسوله الكريم لإنشائها لِتعينه على تأدية مهام رسالته السماويّة. واعلم يا قارئي العزيز أنَّ من تلك المؤسسات التي قام عليها النظام السياسيّ للدولة الإسلامية كانت (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي تشكّلت من زوجات رسول اللّهِ ﷺ وبتوجيهٍ من اللّه تعالى واللّواتي كُنَّ من السابقات في الإيمان ومبشّرات بالجنّة ومنحهُنَّ اللّه عز وجلَّ لقب (**أمّهات المؤمنين**) وسخّرهنَّ اللّه تعالى لمعاونة رسوله الكريم في أمر تفقيه النّساء المسلمات اللواتي أسلمن في ذاك الحين. وسأورد الأدلّة القاطعة الدالة على مصداقيّة هذا الذي ذكرته في الوقت المناسب من هذا البحث الذي خصّصته لبيان هذه الحقيقة التي ذكرتها بالذّات.

وهنا تسألني يا قارئي العزيز: ما هي تلك المؤسّسات التي قلت بأنَّ اللّه تعالى قد أمر رسوله الكريم لإنشائها لتعينه على تأدية مهام رسالته السماويّة؟ فأجيبك وأقول إنَّ تلك المؤسّسات هي:

أولاً - فالوسيلة الأولى التي وجّهَ اللّهُ تعالى أنظار رسوله الكريم للأخذِ بها ولإنشائها لتعينهُ على إتمامِ تبليغِ رسالةِ الإسلام هو أنّهُ جلَّ اسمهُ دفع رسوله الكريم لتأسيسِ مؤسَّسةِ (**حُفّاظِ القرآن الكريم**).

والدّليلُ على ذلك أنّه وصلنا بأنّ اللَهُ تعالى كان قد كلّف الملك جبريل عليه السلام لينزلَ مرّةً بعدَ أخرى لِتحفيظ محمّد رسول اللّه ﷺ ما يُنزلهُ عليهِ من آي الذّكر الحكيم. وليقومَ محمّدٌ ﷺ هو بدوره بتحفيظ السابقينَ الأوّلينَ من المؤمنينَ ما حفظهُ الملَك جبريل من تلكَ الآيات الكريمة. وقد استمرَّ الأمرُ على تلك الحالُ إلى أن انتقلَ رسولُ اللّه ﷺ إلى الرّفيقِ الأعلى تاركاً طبقةً كبيرةً من حُفّاظ آياتِ هذا القرآن الكريم والّذين كانوا قد شكّلوا (**مؤسسة حُفّاظ القرآن الكريم**) التي أشرنا إليها وهي المؤسّسةُ التي قامت بدورٍ كبيرٍ في موضوع المحافظة على آي الذّكر الحكيم في وقتٍ كان فيه أكثر الذين آمنوا أمّيين كما أعانت مؤسّسة حُفّاظ القرآن الكريم المذكورة فيما بعدُ الخليفة عثمانَ بن عفان ﷺ على جمعِ آياتِ هذا القرآنِ الكريمِ وإعطاءها شكلَ كتاب كما هو معروف. وهي الحقيقة التي شرحتها في كتابي «اللّه جلّ جلاله».

ثانياً ـ وأرى أنَّ الوسيلةَ الثانيةَ التي وجّهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ رسولهُ الكريم للأخذِ بها لِتعينهُ على تأديةِ رسالةِ ربِّه عزَّ وجلَّ هي مؤسّسة (**علماء الدين وفقهاؤه**) تلكَ المؤسّسة الّتي كان رسولُ اللَه ﷺ قد أنشأها بنفسه وشكّلها من صحابته السابقين في الإيمان ممّن كانوا قد فقّههم رسول اللّه ﷺ بنفسه ومن ثمَّ كانَ يبعثُ الواحدَ منهم تلو الآخرَ لِتفقيهِ الجماعاتِ المؤمنةِ في كلّ مكان كانت تتشكّلُ فيه جماعة مؤمنة هنا وهناك في شبه جزيرة العرب. فمؤسّسة (**علماء الدين وفقهاؤه**) التي أشرت إليها كانت قد قامت بدورٍ كبيرٍ في نشر تعاليم الدين الإسلاميّ

وتفقيه المؤمنين به وحيثما كانوا ولولاهم لَعسُرَ على المؤمنين الجُدد الاطّلاع على تعاليم هذا الدين الجديد.

ثالثاً ـ كما أرى أنَّ المؤسّسة الثالثة التي أسّسها محمّد رسول الله ﷺ هي (**مؤسّسة القضاة**) التي تألّفت من القضاة الذين كان المؤمنون يحتكمون إلى أفرادها في كلّ مكان من شبه جزيرة العرب.

رابعاً ـ والمؤسّسة الرابعة كانت (**مؤسّسة بيت المال**) تلك المؤسسة التي هي أشبه بما يسمّونه في أيّامنا ـ وزارة الماليّة ـ

خامساً ـ المؤسّسة السادسة كانت (**مؤسّسة كتبة الوحي الإلهي**) تلك المؤسّسة التي كان كلّ فردٍ من أفرادها يسجلون كلّ آية كريمة كانت تنزل على رسول الله ﷺ وبالترتيب الذي يأمر به جبريل عليه السلام أن تسجّل فيه من متن كلّ سورة من سور القرآن الكريم.

سادساً ـ والمؤسّسة السادسة كانت (**المؤسّسة العسكريّة**) التي كانت تضمّ مشاهير أبطال المؤمنين. تلك المؤسّسة التي قامت على التطوّع في ذاك الحين.

سابعاً ـ والمؤسّسة السابعة التي قامت بتوجيه خاصّ من ربّ العالمين والتي كانت تخصّ قطاع المؤمنات ولتفقيههم في أمور دينهم هي (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) تلك المؤسسة التي سمّاها القرآن المجيد بمؤسسة (**أمّهات المؤمنين**).

وقد وضع رسول اللّه ﷺ أساساً لتأسيس (**مؤسسة تعليم وتثقيف**) ولتصبح أساسا لغيرها من المؤسسات التي اكتمل وجودها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

فالنظام السياسيّ الإسلاميّ الذي نسمّيه (**نظام الخلافة**) لم يكن نظاماً دكتاتوريّا محصورة جميع أمور الدولة فيه في يد رجلٍ واحد هو الخليفة. بل كان نظام مؤسّسات دستوريّ يستند إلى نظام الشورى والذي هو أشبه بما يسمّونه في أيّامنا هذه بالمجلس النيابيّ. ويقوم على الانتخاب أيضاً. وبدليل أنّ تلك المؤسّسات نمت واتّضحت معالمها بعد توسّع رقعة الدولة الإسلاميّة. هذا وإنّ ما كتبه بعض المؤرّخين من أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ هو الذي أسّس دواوين دولته إن هو إلا افتراء على الإسلام. وإلاّ فإنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ كان قد وضع أساساً لجميع المؤسّسات التي نمت من بعده وترعرعت وظهرت آثارها البعيدة في جميع المجالات. وإنّ كلّ ما فعله الخليفة الثاني ﷺ أنّه نظّم ودوّن ما كان يتناقله المسلمون شفهيّا على السماع لكون الأمّة العربيّة كانت عند بعثته ﷺ أمّة أمّيةً لا تعرف القراءة ولا الحساب.

والذي يهمّنا في بحثنا هذا هو الكلام عن (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي أنشأها اللّه تعالى بأسلوبٍ فطريٍّ يتلاءم مع طبيعة المجتمع الإسلاميّ الناشئ زمن وجود رسول اللّه ﷺ. ويتلخُص موضوع المؤسسّة المشار إليها في أنَّ اللّه عز وجلّ قد أمر رسوله الكريم لإنشاء (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) وذلك بدفعه للتّزوّج من عددٍ معيّنين من النساء الأرامل اللواتي كُنَّ من السابقات في الإيمان تقديراً لسبقهنّ في الإيمان من جهة

وتقديراً لتضحياتهنّ الكبيرة في سبيل الحفاظ على إيمانهن وقد منحهنّ اللّه عز وجلّ في كتابه العزيز هذا اللّقب (**أمّهات المؤمنين**) كوسام شرفٍ يخفي في طيّاته المهمّة الملقاة على أكتافهن في تلك الحُقبة من الزّمان. وبدليل ما تضمّنته آيات سورة الأحزاب من أوامر تختصّ بتأسيس مؤسسة الإرشاد النسوية المشار إليها وما يمتّ إليها من أمور.

واستناداً إلى جميع ما توصّلتُ إليهِ وذكرته حتّى الآن فيبدو من خلاله جميعه أنَّ يداً إلهيَّةً خفيّةً كانت تعملُ من وراءِ حجابٍ وراء ذلك كلّه وإن تلك اليد الإلهية الخفيّة نفسها هي التي كانت توجّه محمّدا رسول اللّه ﷺ وتدفعه للإقدام على جميع ما أقدم عليه ومن تلك التوجيهات دفْعه للزواج بالنسوة الأرامل والسابقات في الإيمان اللواتي أشرنا إليهنّ.

فهذه الحقيقةُ التي تبيَّنت لي معالمها دلَّت دلالةً قاطعةً على أنَّ محمّداً بن عبد اللَّهِ لم يكن رجلاً شهوانيّاً إطلاقاً. ومن باب أنَّ الرجل الشهوانيَّ يبحثُ عن فتياتٍ صبايا أبكاراً ولا يبحثُ عن زوجاتٍ أراملَ قد بلغنَ سنَّ اليأسِ ويحمّل نفسه عبء الإنفاق على أولادهنّ أيضاً.

فهذه هي خلاصةُ حقائق تلك النّظرة الشمولية التي جلّيتُ للقارئ الكريم معالمها وتوصّلت إليها من خلال البحثِ عن خفايا تلكَ الفترةِ الزمنيَّةِ العائدةِ إلى تاريخِ البعثةِ الأولى للإسلام. ونتيجةً لتلكَ النّظرة الشموليَّة التي داومتُ على النّظرِ منها إليها. والتي وضَّحت لعينيَّ الوسائل الفعالة التي اعتمدها رسولُ اللَّه ﷺ لإعانتهِ على أداءِ رسالةِ ربِّهِ عزّ وجلّ وبتوجيهٍ من ربّه عز وجل أيضاً.

وهكذا فقد كان لابدَّ أن يكونَ قد اتّضحَ للقارئِ الكريم كيفَ أنَّ جماعة (**أمّهات المؤمنين**) كانت في حقيقة أمرها (**مؤسّسةً إرشاديّةً**) وقد تشكّلت من النساء الأرامل والسابقات في الإيمان وقد تشكّلت في الوقت نفسه بالوحيِ الإلهيِّ من وراءِ حجابٍ أي من تلك البشارات التي تلقّتها تلك النسوة الأرامل السابقات في الإيمان في حياتهن قبل الزواج من رسول اللهّ ﷺ وعلى حسبِ ما سأبينه للقارئِ الكريم في هذا البحث أيضاً في حينه. فلم تكن جماعة (**أمّهات المؤمنين**) ثمرةَ سعيِ رجلٍ شهوانيٍّ حسبما يزعم أعداء هذا الدين الحنيف بل حدثت تلك الظاهرة التي شكّلت تلك (**المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة**) بتوجيهٍ من اللّه تعالى نفسه ولِتصبحَ إحدَى تلكَ المؤسّساتِ التي أعانت محمّداً رسولَ اللّهِ ﷺ على تأديةِ رسالةِ ربّه عزّ وجلّ من خلال قيام أعضائها بتوجيه النساء المسلمات فيما يتعلّق بأمور دينهنّ وعلى حسب ما كانوا يتلقّونه من تعليم من رسول اللّه ﷺ نفسه وبتوجيهٍ من اللّهِ العليم الخبير

وعلى هذه الصّورة أقول: إنَّ القارئ الّذي لا يطالعُ هذا البحثَ بصورةٍ متأنّيةٍ بعد مطالعتهِ لجميع ما ذكرته له حتى الآن فلا يستطيعُ الاستفادةَ ممّا تضمّنهُ هذا البحث من حقائقَ ومعلوماتٍ قيّمةٍ تُساعده على الدفاع عن النبيّ الأعظم وعن تزوّجه بعدّة زوجات في حياته صلّى اللّه عليه وسلّم.

الدور المكّي قبل وبعد البعثة

الباب الأوّل

الفصل الأول:

نبذة عن نشأة محمّد بن عبد اللّه

لا مجال الآن للكلام عن الشرك وعن طغيانه في المجتمع العربيّ الذي نشأ فيه محمّد بن عبد اللّه في مكّة المكرّمة خاصّة تلك المدينة التي كانت في يوم من الأيّام وادياً غير ذي زرع. وكان النبيّ إبراهيم عليه السلام الذي ينتسب العرب إليه والمتفاخرين بأنّه ترك زوجته هاجر وابنها إسماعيل وسط أرض مكّة حيث اكتشف ماء زمزم واستقرّت هناك أوّل قبيلةٍ ومن ثمّ ترعرع إسماعيل وعاد والد إبراهيم فأقاما قواعد الكعبة المشرفة بناء على أمر من اللّه عز وجل.

فقصّة بناء مكّة المكرّمة كانت حاضرة أذهان أهلها على الدّوام ومع أنّ إبراهيم عليه السلام كان موحّداً فإنّ هؤلاء العرب غرقوا في أوحال الشرك وعبادة الأصنام مع توالي الأيّام معتقدين أنّ ذات اللّه من السموّ والرفعة بحيث لا يُنال قربه إلا بشفاعة تلك الأصنام. وفي وقتٍ كانت اللّغة العربيّة قد بلغت أوجها سنة ولادة محمّد بن عبد اللّه في مكة المشار إليها. أي أنّ الأمة العربيّة كانت سنة ولادة هذا الرسول العربيّ قد تدنّت إلى أدنى دركات الانحطاط الدينيّ على حين كانت في الوقت نفسه أمّيةً لا تكتب ولا تحسب ومع ذلك بلغت ذروة الرقيّ اللغويّ واعتماداً على ذاكرة أبنائها. ومن جهةٍ ثالثة فقد كان الفساد قد انتشر بين أبنائها مع محافظتهم على كثيرٍ من الأخلاق الفاضلة التي كان ينقصها مجرّد الصقل والتّعديل.

ففي تلك البيئة وُلد محمّد بن عبد اللّه وهو الذي كان قد توفّي والده قبل ولادته فكفله جدّه عبد المطّلب وقد حضنته أمّ أيمن جارة أبيه ومن ثمّ جاءت حليمة السعديّة من البادية فكان محمّد من نصيبها لترضعه وهكذا أقام محمّد في بني سعد يستنشق جوّ البادية الطّلق ويتعلّم لغة أجداده التي لم يُداخلها ما يتولّد من ألفاظ جوّ المدينة البعيدة عن حياة البادية الفطريّة.

فلمّا بلغ محمّد السادسة من عمره توفّيت والدته أيضاً فأصبح يتيم الوالدين وهو ما يزال طفلا. وبعد سنتين من وفاة والدته توفّي جدّه الذي كان كفله بعد وفاة والده. فكفله عمّه أبو طالب استجابةً لوصيّة جدّه عبد المطّلب. فأحبّه عمّه أكثر من أولاده وأنزله منزلة يستحقّها

عنده. وخلاف زوجته التي كانت تغار على أبنائها أكثر ممّا كانت تغار عليه. وكان تصرّفها طبيعيّا جداً.

فلمّا كان أهل مكّة يرتزقون من التجارة التي كانت تتراوح ما بين الشمال والجنوب. فقد أرسل عبد المطّلب ابن أخيه محمداً بن عبد اللّه في عدة سفرات تجاريّة. ففي الثانية عشرة من عمر محمّد رافق عمّه في تجارة إلى الشام. لكنّه لم يتجاوز سوق التجارة الذي كان إلى الجنوب الشرقيّ من الشام. وقد لاحظ من كان حول محمّدٍ فقد لا حظوا في شخصيّة محمّد صدقه وأمانته. ولذلك اشتُهر بين أهل مكّة بالصادق الأمين. ومن أبرز معالم صباه أنّه انضمّ إلى ما سمّي يومئذ (حلف الفضول) الذي كان المقصد من تشكيله نُصرة المظلومين في مكّة المكرّمة. فابن هشام روى في المجلّد الأول القسَم الذي أقسمه محمّد حين انضمامه إلى حلف الفضول (أنّه سيعين المظلومين ويردّ للمظلوم حقّه ما دام في البحر قطرة ماء فإن لم يستطع أدّى من عنده ما للمظلوم من حقوق). وإن دلّت خطوة محمّد المذكورة على شيء فقد دلّت على رهافة احساساته تجاه من حوله من عباد اللّه الفقراء والمظلومين.

الفصل الثاني:

مَن كانت خديجة وكيف تمّ زواجها؟

وبعد أن أعطيت القارئ نبذة عن نشأة محمّد بن عبد اللّه ﷺ أنتقل بالقارئ خطوةً أخرى لأروي له كيف أنّ محمداً قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره وهو ممدوح السيرة ولم يشاكل شباب عصره في شيء ممّا كانوا يفعلونه. وكان بذلك متميّزاً على أقرانه من الشباب ويكفي القول بأنّه لم يحدث أن بدرت عنه نزوة شباب جنسيّة على حين أنّ الدّعارة لم تكن ممنوعة في مكة بل وكانت من المومسات من تستضيف شباباً في دارها. وأثبت محمّد ﷺ طوال تلك الفترة من عمره أنّه لم يكن شهوانيّ نساء وهي ميّزة لفتت إليه أنظار النساء. حتّى أنّه لم يطلب من عمّه أن يزوّجه طيلة تلك السنوات من عمره.

وقد كان من أثرياء مكّة المكرّمة امرأة أرملة عن زوجين. وقد سمعت عن أمانة محمّد وصدقه وعفافه فاستأذنت أبا طالب عمّ محمّد أن تكلَ إلى ابن أخيه أمور تجارتها التي كانت متّجهة إلى الشام. فأذن أبو طالب بذلك فسافر محمّد بتجارتها وعاد إليها بأرباح طائلة لم تكن

تتوقّعها. وأدركت أنّ سرّ ذلك يكمن في أمانة محمّد وصلاحه. وكانت قد أرسلت أحد عبيدها ويدعى ميسرة مع محمّد ليرافقه إلى الشام. ومن الطبيعيّ أن يكون ميسرة قد اطّلع على تحرّكات هذا الذي رافقه بشكل جيّد. فما كان من خديجة إلاّ أن استدعت عبدها ميسرة المذكور فأجلسته تستفسره عن تحرّكات محمّد بلهفة زائدة. فتبسّط ميسرة في الشرح وحدّثها بإسهابٍ عن أمانة محمّد في كلّ خطوة كان يخطوها طوال فترة مرافقته له في تجارتها. وكان لحديث ميسرة وقعاً شديداً وبالغاً في نفس خديجة ولربّما ولّد هذا في نفسها انجذاباً نحو هذا الشاب الصادق الأمين.

فإلى هنا أكون قد رويت للقارئ الكريم ما ورد في كتب السيرة وغيرها من أحداث وباختصارٍ شديد وقد بيّن كاتبوها هذا السببَ الذي ذكرته والذي دفع خديجة من وجهة نظرهم لتحاول الضغط على عمّ رسول اللّه ليزوّجها من ابن أخيه. لكنّ هذا السبب الذي بيّنوه لم يقنعني كثيراً وحاولت القيام بمزيد من البحث لأعثر على سببٍ مقنعٍ وجوهريّ. فماذا تبيّن لي من وراء هذا الاستقصاء؟

لقد تبيّن لي أنّ خديجةً رأت يوما فيما يراه النائم أنّ شمساً هبطت في منزلها وأضاءته وجميع ما حوله. وقد تركت تلك الرؤيا في نفسها أثراً بليغا فقصدت ابن عمّها ورقة ابن نوفل فقصّت عليه ما رأته في منامها. وكان ورقة بن نوفل يقرأ ويكتب وقد طالع بعض المخطوطات المسيحيّة واشتهر بذلك بين الناس. ففهم ورقة من تلك الرؤيا بشارة ستفوز بها ابنة عمّته على الصعيد الروحيّ.

والحقيقة التي أقنعتني هي أنها كانت هناك يدٌ خفيّةٌ تعمل من وراء ستار لتجمع ما بين قلب خديجة وقلب محمّد بن عبد اللّه اليتيم ولصالح ما كان سيحدث في المقبل من السنوات. وإلاّ فليس من المعقول جدّاً أن تفكّر امرأة أرملة عن زوجين وفي الأربعين من عمرها بالزواج من شابّ ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره ويصغرها بخمسة عشرة سنة. فتلك الرؤيا إلى جانب جاذبيّة صفات محمّد العظيمة كانت قد شكّلت دافعاً لا شعوريّا في لا شعور خديجة دفعها إلى ما أقدمت عليه. وإلاّ فإنّ خديجة لم تكن لتجرأ على مفاتحة محمّد اليتيم وغير الشهوانيّ بهذا الزواج الذي قدّره اللّه عز وجلّ.

فأرسلت خديجة إحدى صديقاتها إلى محمّد لتسأله عن سبب عدم زواجه حتى تلك الساعة. فوضّح محمّد لتلك التي أرسلتها خديجة أنّ الزواج مسؤوليّة ماليّة في حقيقته وهو لا حيلة له في هذا المجال. فقالت له: ما رأيك بالزواج من امرأة شريفةٍ لا تطلب منك مالاً وهي التي تقدّم لك المال؟ فاستفهم منها عن التي تعنيها من قولها ذاك، فصرّحت له باسم خديجة بنت خويلد التي كلّفته يوماً بتجارتها. فاستغرب ذلك وسألها عن الوسيلة التي تمكّنه من تحقيق ذلك الزواج. فتكفّلت تلك الصديقة بالأمر وأبدى موافقته. فلمّا رجعت هذه إلى خديجة بما توصّلت إليه فما كان من خديجة إلا أن قصدت عمّ محمّد وفاتحته في الأمر فوافق وتمّ بذلك زواج محمّد من خديجة رضي اللّه عنها وتحقّقت رؤياها على أضيق نطاق. ولم تدر يومئذ أنّ رؤياها كانت تحمل لها بركاتٍ أوسع من ذاك النطاق المادّي.

وليتصوّر القارئ الكريم شابّا يتيماً وهو في عزّ صباه ويتفتّح باب الثراء عليه فجأة فهناك يُبتلى ويمتحن وتبدو حقيقة ما اشتهر به من صفات. فإن كانت صفاته التي تظاهر بها وشهرته أصيلةً في نفسه فلا يهزّه الثراء. أما إن كان يتظاهر بتلك الصفات لغاية في نفسه وقد تحقّق له الثراء فهناك ينفلت على مصراعيه وتتفجّر قواه الخفيّة التي كان يكتمها ويخفيها عن الناس من حوله. لذلك كان على القارئ أن يستطلع ما حدث بعد زواج محمّد اليتيم من خديجة تلك الأرملة الثريّة. فهل تزوّجها بغاية التمتّع بمالها وإشباع نزواته الشبابيّة أم أنّه تزوّجها وتصرّف بثروتها بالأمانة والدراية والحكمة ممّا حفظ لخديجة مالها وكرامتها؟

تمّ زواج محمّد بن عبد اللّه من خديجة بنت خويلد ووفقاً لأعراف ذاك الزمان فلم يكن ذاك الزواج عجباً لأنّ محمّداً وخديجة كانا من طبقة منسوبة وأصيلة ومعروفة. لكنّ الناس ويدفعهم حبّ الاطّلاع راحوا يراقبون ماذا سينجم عنه الزواج المشار إليه. فلم تمض أيّام إلاّ وحاولت خديجة تمتين زواجها من محمّد وعلى حدّ ظنّها فتقدّمت منه وفاتحته أنّها تريد أن تهبه ثروتها التي كانت تمتلكها من مال وعبيد. ففوجئ محمّد بعرضها وقال لها: أتمزحين أم أنّك تصدقينني الحديث؟ فأكّدت له ما عرضته عليه. وهنا راح يكشف لها عن حقيقة إنسانيّته وأنّ نفسه تأبى أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان وأنّه سيطلق سراح جميع ما عندها من عبيد إن هي أطلقت يده فيما تملكه من مال. ومع أنّ ما أعلنه على مسامعها يعني بألفاظ أخرى أنّها لن تعود تأمر وتنهي بل

يعود من واجبها أن تخدم نفسها وتخدمه بدلا عن العبيد الذين كانوا يخدمونها فإنّ خديجة لم تنزعج ممّا صرّح به محمّد على مسامعها وأبدت كامل القبول لاشعوريّاً. وهكذا وهبته ثروتها وأصبح محمّد بن عبد اللّه الشاب بين ساعة وساعة من أثرى أثرياء مكّة المكرّمة التي ولد فيها وتيتّم فيها وأثرى فيها أيضاً.

فالأمر المفترض هو أنَّ الشابّ الذي يكون شهوانيّ نساء وقد أصبح يملك مقدّرات كومٍ من المال الذي وضعته خديجة ﵂ تحت تصرّفه فلا يقوم هذا الشاب إن كان شهوانياً تسيّره أهواؤه الدنيّة بإعتاق عبيد خديجة بدون مقابل بل ويشتري عبيداً جدداً بالإضافة إلى عبيدها ليزداد خدمه في داره وليزداد رفاهيةً ووجاهة في ذاك الزمان. وليس هذا وحسب بل وأن يفكّرُ هذا الشاب الشهوانيّ في الزّواج بزوجة أخرى بكرٍ تُرضي شهوته ولا يُعقل أن تقوم خديجة زوجته بممانعته وقد هامت به حبّاً. فلن تمانعه بعد أن أعطته حقّ التّصرّف بمالها وهي تعرف نفسها أنّها أرملة عن زوجين قبله وأكبر سنّاً منه أيضاً خصوصاً وأنَّ نظام تعدّد الزّوجات كان مُباحا ومعمولاً عليه في الجاهليَّة. ولكنّ هذا الشاب محمّد بن عبد اللّه لم يصدر عنه بعد زواجه من خديجة بنت خويلد المذكورة أيّة بادرة تدلّ على كونه شهوانيّ نساء كما يتّهمونه.

فإن راجع القارئ الكريم صفحات سيرة محمّد ﷺ المتعلّقة بما حدث بعد زواجه من خديجة بنت خويلد التي فوّضته بحق التّصرّف بأموالها. يتبيّن له أنّ محمّداً ﷺ لم يفكّر في بناء قصرٍ متميّزٍ عن أقرانه ولا هو فكّر في شراء أقمشة الحرير والديباج ليلبسها وليتهادى بها بين

النّاس ولا فكّر بالبحث عن أثرى شباب مكّة المكرّمة ليصادقهم وليلهو معهم. فذاك الشاب اليتيم لم يقدم على أيّة خطوةٍ من تلك الخطوات التي ذكرناها والتي تكشف عن خفايا النفوس بل كانت أوّل خطوة أقدم عليها هذا الشاب بعد زواجه من خديجة بنت خويلد هو أنّه ﷺ أعتق عبيدها بلا مقابل ووزّع قسماً من أموالها على الفقراء والمحتاجين ولم يستبدل بيته ببيت أحسن منه ولا انهمك في لبس ما كان يلبسهُ الشبابُ في زمانه ولم يلتفت إلى تمضيةِ أوقاته في اللّهو على شاكلةِ ما كانَ يفعلهُ شبابُ عصره وفي بيئتهِ الخاصّة في مكّةَ المكرّمة. أي أنّه حرم نفسه من أولئك العبيد الخدم الذين كانوا يقومون على خدمته وخدمتها وليلتفت بنفسه إلى خدمة نفسه. وكان لهذه الخطوة التي أقدم عليها محمّد بن عبد اللّه صداها في جميع أنحاء مكّة المكرّمة. ذلك أنّ العبيد في مكة كانوا يشكّلون طبقةً اجتماعيّة مستقلّة. وكان إذا شاد أحد العبيد أن يتحرّر فكان عليه أو على أهله أن يفتدوه بالمال. ولكنّ محمّدا حرّر عبيد خديجة بدون أن يفتديهم أحد بالمال. وكان هذا في نظر طبقة عبيد مكّة حدثاً عجباً. وراح العبيد في مكّة يمضون ساعات طوال أثناء فراغهم من خدمتهم لأسيادهم يتحدّثون فيها عن تلك الخطوة التي أقدم محمّد بن عبد اللّه عليها وخلافاً لما هو متعارف عليه بين أهل مكة المكرّمة. وكان من جملة مَن أعتق محمّد من عبيد خديجة عبدٌ يُقال له زيد كانت عصابة من اللصوص اختطفته من أسرة شاميّة عريقة. وقد تضرّع زيد إلى محمّد أن يبقيه معه فكان له ما أراد فعاش زيد في كنف محمّدٍ وهو يزداد حبّاً به وشغفاً به على مرّ الأيّام. ذلك لأنّ زيداً وجد من محمّد رعاية وشفقة ما وجدها من أحد سواه.

ثمّ إنها لم تمض سنوات قليلة على زواج هذا الشاب اليتيم محمّد بن عبد اللّه من خديجة بنت خويلد إلاّ وراحَ يتحنّثُ في غارِ حراء بعيداً عن التمتّع بزوجته وبعيداً عن مباهج هذه الحياة التي كان يحياها أقرانه من شباب عصره. فكان يمضي أكثرَ أوقاته في غار حراء يتفكّرُ في خلقِ السماوات من فوقه وفي خلق هذا الكون ويتمنّى جاهداً التّعرُّفَ على خالقه الذي أبدع هذا الكون من حوله وهو يسعى للفوزِ بمحبَّتهِ وقُربهِ ورضوانه. وعلى حين كان الشبابُ من أمثالهِ من قومهِ يقلّدونَ آباءهم بدونِ مراجعةٍ للموروثِ ويسجدونَ لأصنامٍ نحتَتها أيدي شباب أمثالهم من البشر أنفسهم. وداومَ هذا الشاب محمّد بن عبد اللّه على تحنُّثهِ في غارِ حراء مدّةً عشر سنوات. لا يعرف الكلل ولا الملل ممّا أقدم عليه. وإنّ زوجته خديجة ﵂ لم تمانعه فيما أقدم عليه ولا أظهرت تذمّرها من كلّ ما كان يفعله زوجها محمّدٌ بن عبد اللّه أيضاً.

فهل يفعل الشهوانيّ هذا الفعل الذي كان محمّد قد أقدم عليه؟

وهنا يتساءلُ المفكّرُ: كيف أقدم محمّد ﷺ على تلك الخطوة التي تمثّلت في المضيّ إلى غار حراء للتحنُّثِ فيه؟ وكيف رضيت زوجته خديجة بنت خويلد عن خطوته المذكورة التي أقدم زوجها الشابّ عليها وتاركاً إيّاها بعيدةً عنه عوضاً عن أن يجاورها ويحاورها ويعاشرها جنسيّاً؟ خصوصاً وأنه كان قد أعتق عبيدها وحرمها من خدمتهن من قبل؟؟

فإذا بحث هذا المفكّر يا عزيزي القارئ فيما روته له كتب التّراث يأتيه جوابُ سؤالهِ هذا من كتبِ السّيرةِ نفسها وهو أنَّ السّيدة خديجة لم

تعترض على ما بدرَ من طرف زوجها محمّد ﷺ بشكلٍ من الأشكال. وبالعكسِ من ذلك فقد راحت خديجة تطبخُ لهُ الطّعامَ وتوصلُهُ إليهِ إلى الغار كما هو ثابتٌ من كتب التاريخ فلم يحدث أن تضجّرت خديجةُ في يومٍ من الأيّام ممّا أقدم عليه محمّدٌ ﷺ زوجها ولا شكت ممّا كان قد فعله ولا ابتعدت عن زوجها ﷺ مع أنّهُ داومَ على ذلكَ قرابة عشر سنوات. فإن دلّ موقف خديجة ﵂ على شيء ممّا كان يحدث فإنّ موقفها المذكور دلّ دلالةً قاطعةً وبصورة عمليّة على أنّها كانت تُلاحظُ في شخصيّة زوجها محمّد مَعلماً روحيّاً فريداً في عصره وكانت ترجو من وراء السكوت على فعله رجاء أكبر وأعظم ممّا تطلبه المرأة سواها في عصرها أو في بقيّة العصور. الأمرُ الذي يثبتُ منه أيضاً أنَّ السيّدة خديجة لم تتزوّج محمّداً بدافعِ شهوةِ النّساء الجنسيَّة بل كان زواجها منه بدافعِ معالم شخصيّته وإلى جانب تميّزهِ من بينِ أقرانه بالصّدقِ والأمانة. وهو لقبٌ نالهُ محمّدٌ ﷺ عن جدارةٍ واستحقاقٍ في مكّة المكرّمة حيثُ لقّبه أهلها بالصّادق الأمين.

فهذا الّذي أتيتُ على ذكره وبيّنتهُ للقارئ الكريم يشكِّلُ دليلاً حسّياً قاطع الدّلالة ويثبتَ منه أنّ محمداً بن عبد الله ﷺ ما كان في شبابه منقاداً لشهواته الجسدية التي كانت تقود شباب عصره. ولا كان شهوانيّاً. حتّى وأنه لم يسع من نفسه ليدخل حلبةَ الزّواج وليكونَ في صفوف فريقِ المتزوّجين.

ولينظر القارئ الكريم إلى موضوع زواج محمد ﷺ بخديجة بنت خويلد ﵂ من زاويةٍ أخرى غير الزاوية التي ذكرناها. وذلك من خلال

مراجعة الجوّ الفكري الذي كانت تعيش خديجة داخل مُعطياته. فلقد كانت خديجة بنت خويلد تحت تأثير ابن خالها ورقة بن نوفل. وهو الذي كان فيما يحمله من أفكارٍ أقرب إلى المسيحيّة من دين قومه الذين كانوا يسجدون للأصنام المصفوفة في كعبة اللّه المشرّفة. فخديجة بنت خويلد كانت واقعةً تحت تأثير أفكار قريبها ورقة بن نوفل. وإنّ الدليل القاطع على مصداقيّة ذلك هو أنّ محمّداً ﷺ وبعد أن تلقّى أوّل وحيٍ في غار حراء وهو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾. فقد رجع محمّد ﷺ إليها وهو يقول لها: زمّلوني زمّلوني. فهي لم يخيفها حال زوجها محمّد ﷺ بل أمسكت بيده فوراً وأتت به قريبها ورقة بن نوفل وأطلعته على ما جرى وذلك من بعد أن قالت لزوجها كلماتٍ تحمل كلّ الدلالة على عميق إيمانها بوجود اللّه عزّ وجلّ وعلى أنّه ينظر إلى الصلحاء من عباده نظرة الرّؤوف الرّحيم. فهي قالت لزوجها الشاب محمد (لا تخف إنّ اللّه لا يضيعك أبداً) وأخذت تعدّد لزوجها ما تعرفه من صفاته الحميدة. وهل تقول وتفعلُ خديجة ما قالته وفعلته خديجة إلاّ إذا كانت مُعتقدةً بوجود اللّه تعالى الحي القيوم الذي يصطفي من عباده أفضلهم خَلقاً وأخلاقاً ويبعثهم ليرشدوا غيرهم إلى وجود ربّهم وإلى ربط أنفسهم باللّه خالقهم على الصّعيد العمليّ؟

فإن أنت نظرت يا عزيزي القارئ من زاوية النّظر هذه تُدرك **لا** محالة الدّافع الحقيقيّ الذي دفع بخديجة بنت خويلد لإرسال إحدى صديقاتها تطلب من محمّدٍ الزواج منه. كما تُدرك الدّافع الذي دفعها لقبول شرط محمّد ﷺ وهو إعطاءه حقّ التصرّف بأموالها. فخديجة ﵂

لم تكن عاشقةً لشخصيّة محمّد الخارجيّة بل كانت ترى وبثاقب فراستها في شخصيّة ذاك اليتيم الباطنة شيئاً عظيما بل قل يا قارئي العزيز إنّ خديجة كانت عاشقةً لهذا الشاب محمّد بن عبد اللّه من هذا المنظار. وعليه فلا يُعقل أن يكون محمّدٌ بن عبد اللّه ﷺ شهوانيّاً والحال هذه بحالٍ من الأحوال. وإنّ كلّ من لا يعتبر بمُجريات أحوال هذا الزّواج الأوّل من حياة محمّد ﷺ والذي حدث في مسقط رأسه مكّة المكرّمة فلا يُعقل ويفهم أنّ ما أقدم عليه محمّد رسول اللّه ﷺ في المدينة المنوّرة وبعد أن أصبح حاكماً ومسنّاً أيضاً وقام بالزواج بعدد من النساء يستحيل أن يكون قد حدث بدافع شهوة النساء بل بدافعٍ سامٍ وفوق إرادته أيضاً وهي حقيقة سأكشف النقاب عنها في الوقت المناسب فشابّ أمضى في مكة شبابه ومدّة ثلاثة عشرة سنة ولم يفكّر في يومٍ من الأيّام بالزواج بشابّة بكرٍ وقد ارتضى بأرملة أكبر منه سنّا فلا يعقل أن يصبح في المدينة المنوّرة عاشقاً وشهوانيّ نساء وهو فيها مهاجر وغريب عن المدينة التي أمضى فيها شبابه.

ألا إنّ هذا الذي بيّنته للقارئ الكريم بما يتعلّق بخديجة بنت خويلد وعن كيفيّة زواج محمّد بن عبد اللّه ﷺ منها والذي استمرّ قبل أن يؤتَ محمّدٌ بن عبد اللّه رسالةَ ربّهِ عزّ وجلّ وبعد أن أوتيها والذي استمرّ قرابة ربع قرنٍ من الزمان انتهى عند هجرة محمّد رسول اللّه ﷺ من مكة إلى المدينة وبعد أن توفّيت زوجته خديجة خلال السنتين الأخيرتين في مكّة المكرّمة. علما بأنّ السيّدة خديجه ؓ التي توفيت في مكّة المكرّمة وخلال السنتين الأخيرتين من بقاءِ رسول اللّه ﷺ فيها كان سبب وفاتها

أنّها أنفقت أموالها على جماعة المؤمنين خلال الحصار الاقتصاديّ الذي ضربه المشركون على زوجها محمّد رسول اللّه ﷺ فمرضت من سوء التّغذية بعد أن عانت هي وغيرها ما عانته من ذاك الحصار الاقتصاديّ المشار إليه. وبسببِ رفع المؤمنين راية توحيد اللّهِ عزّ وجلّ ورفضهم التّسليم بأنَّ الأصنامَ المصفوفةَ في حرم الكعبةِ يمثّلونَ آلهةَ السماء. وهكذا عاد بيت محمد ﷺ خاوياً إلاّ من اشتماله على ابنتيه رقيّة وأم كلثوم اللّتين طلّقهما زوجاهما بسبب تمسُّكهما بدينهما الإسلاميّ الذي كانتا عليه هما وأمّهما خديجة ﵂ تلكَ التي كانت أوّل من تقبَل الإسلام ديناً. فعلى تلك الحال وبنفس تلك النّفسيّة الإنسانيّة وتلك الصفات الحسنة دخل محمّد المدينة المنوّرة مهاجراً.

فلو كانَ محمّدٌ بن عبد اللَّه شهوانيّاً كما يتّهمونه لكانَ قد فكّرَ في الزّواجِ من فتاةٍ أخرى عذراء بعد زواجه من خديجة بنت خويلد ﵂ أو خلال السنوات الثلاثة عشرة التي قضاها في مكّةَ وبعد أن أوتيَ رسالةَ ربّهِ عزّ وجلّ. أي أنّ محمّداً ﷺ أمضى بعد زواجه من الأرملة السيّدة خديجة ما يقارب ربع قرنٍ من الزّمان وهي المدّة التي كان فيها في زهرة شبابه ﷺ تلك المدّة التي لم يعمد خلالها إلى مجرّد التّفكير في الإقدامِ على زواجٍ آخر جديد ما دامت زوجته خديجة ﵂ حيّةً ترزق بجواره وهذه حقيقة ثابتة تاريخيّا. علماً بأنّ خديجة كانت أرملة وتجاوزت سنّ اليأس أيضاً ولم تعد صالحة لمعاشرتها جنسيّا. فالرجل الشهوانيّ يستحيل عليه أن يُمضي ربع قرن من الزمان على تلك الحال خصوصاً وقد أصبح بعد زواجه في سعة من المال أيضاً.

فهذا هو حال محمّد بن عبد اللّه رسول اللّـه ﷺ وخلال ربع قرن أمضاهُ بعد زواجه من خديجة بنت خويلد في مكّة المكرّمة تلك المدينة التي كانَ قد أمضى فيها بعد تلقّي رسالةَ ربّهِ ثلاثة عشرةَ سنة إضافةً إلى الخمسةَ عشرة سنة الّتي قضاها ﷺ كزوجٍ لخديجةَ قبلَ أن يؤتَ الرّسالة السماويّةَ من جانبِ ربّه جلّ شأنه. فإن نحن جمعنا تلك السنوات جميعها وأضفناها إلى عمره ﷺ يوم تمّ زواجه من خديجة ﵂ فيكون عمر هذا الرّسول العظيم كانَ قد بلغَ 53 سنة أي بلغ الرّبيع الثالث والخمسين من عمرهِ يوم هاجرَ من موطنهِ مكّةَ المكرّمة إلى المدينة المنورة. وفي وقتٍ لم يكن فيهِ قد تزوّجَ بأكثر من زوجةٍ واحدةٍ فقط. وفي وقتٍ ما كانَ محمّدٌ ﷺ نفسه قد سعى من نفسهِ للزّواج من خديجة بنت خويلد أو غيرها من النّساء خلالَ سنوات عمره المشار إليها بل الذي ثبت تاريخيّاً أنّ الزّواج هو الّذي سعى إليه. فهذه حقيقةٌ ثابتةٌ تاريخيّاً ولا مجال فيها لأيٍّ من نقاش. وثبت من خلالها أنّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء بل كان صادقاً أميناً وعابداً تقيّاً. وهل يُعقل بعد هذا كلّه أن ينقلب محمّدٌ ﷺ بعد ذلك العمر المديد إلى شابٍّ شهوانيٍّ يتصيّد النساء ويتزوّج الواحدة منهنّ بعد أخرى؟؟ ألا إنّ العاقل المحايد صاحب التفكير العلميّ لا يُعقلُ أن يسلّم برجوع هذا الشيخ إلى صباه وبعد أن عظُمت مسؤوليّاته تجاه أداء وتبليغ رسالة ربّه عز وجل. فاحفظ عنّي يا قارئي العزيز هذه النتيجة التي أوصلتك إليها حتى الآن وتعال معي نبحث سويّا ما حدث في المدينة المنورة بعد هجرة محمّد بن عبد اللّـه ﷺ إليها. إذ أننّا نعلم من صفحات تاريخ هجرةِ محمّد رسول اللّهِ ﷺ من

مكّة المكرّمة إلى المدينــة المنـوّرةِ أنّـه كـان هـاجر مـن مكّـة متخفّيـاً وتاركـاً وراءهُ دارهُ ومتاعه وكلّ ما كان يملكه في المدينة التي كانت تشكّل موطنه ومسقط رأسه. فلم ترافقه خديجة ﷺ في هجرته تلك بسبب أنّها كانت قد انتقلت قبل الهجرة بسنتين إلى الرّفيق الأعلى وتركت رسول اللّـه ﷺ وحيداً إلا من ابنتيه رقيّة وأم كلثـوم المطلّقتـين بسـبب اعتناقـهنّ الإسـلام ديناً أيضا.

الدور المدني بعد الهجرة

الباب الثاني

الفصل الأوّل:

النبيّ في المدينة المنوّرة

لقد سبق لي أن ذكرت بأنّ خديجة بنت خويلد التي هيّأها اللّه عز وجلّ من عالم غيبه لتصبح زوجة محمدّ ﷺ في صباه قد توفّاها اللّه عز وجلّ قبل الهجرة من مكّة إلى المدينة بعامين على وجه التقريب وتركت له ابنتيه المطلّقتين في داره يخدمانه. هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنوّرة مثقلاً بأعباء إعالة ابنتيه رقيّة وأمّ كلثوم وإعالة الأرملة السابقة في الإيمان سودة القرشيّة وأولادها الخمسة التي كانت قد تجاوزت سنّ اليأس والتي تزوّجها بعد وفاة زوجته الأولى خديجة وباقتراحٍ من

الصحابيّة الجليلة خولة بنت حكيم علماً بأني سأروي في حينه كيف تمّ زواج محمّد بهذه الزوجة الثانية الأرملة في المكان المناسب.

أقول: عاد رسول اللّه ﷺ بدون زوجةٍ تصلح لمعاشرتها وفي وقتٍ وقع على كاهله أعباء مسؤوليّة الحكم في المدينة المنوّرة بعد هجرته إليها. فهل كان اللّه جلّ شأنه الذي آتى نبيّه محمّداً رسالة الإسلام أقول هل عاد غافلاً عن أحوال نبيّه الصادق الأمين في تلك الأيّام؟ وما دام اللّه عز وجلّ لم يتخلّ عن رسولك الكريم وظلّ يرعاه ويتولاّه فما هي التّقادير التي قدّرها تعالى لمعالجة ما كان يواجهه نبيّه ﷺ في المدينة المنوّرة وبأسلوب اللّه اللّطيف الخبير؟

ألا إنّ المؤمن العارف باللّه تعالى ينظر ويحلل ما جرى يومئذ من منظار أنّ اللّه تعالى هو المتصرّف في كلّ أمرٍ يمتّ إلى رسوله الكريم لمساعدته على تأدية رسالة ربّه عز وجلّ. فإن نحن تتبّعنا ما جرى بعد وصول محمّد رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنوّرة وفسّرنا مُجريات تلك الأمور من المنظار الذي لفتّ النظر إليه تتبيّن لأعينا الأحداث على حقيقتها. أمّا إذا نظرنا إلى ما جرى يومئذ من مُعطيات ظواهر الأمور وتوصّلنا إلى إجابة على السؤال آنف الذكر فلا نكون قد أجبنا على السؤال المذكور إجابةً صحيحة نابعة من معطيات مجريات تلك الأمور في تلك الأيّام وخاصّةً منها أموره العائليّة الداخليّة.

وكنت بيّنت ولفتّ نظر القارئ الكريم من قبل حين قصصت على القارئ كيف تمّ زواج محمّد بن عبد اللّه ﷺ من خديجة بنت خويلد ﵂ وأنّ اللّه عز وجلّ كان هو الذي خطّط لتزويج هذا الشاب اليتيم

بخديجة من وراء ستار وذلك بأن أرى خديجة رؤيا أنّ الشمس هبطت في دارها وأضاءتها وأضاءت ما حولها وأنّ تلك الرؤيا لعبت دوراً أساسيّاً في توجّه خديجة ﵂ للزواج من هذا الشابّ اليتيم ﷺ. فكان وراء ذاك الزواج إذن يدٌ خفيّةٌ سماوية قدّرته وقضته بأسباب خفيّة لا تراها الأعين المادّية. وإلاّ فلم يحدث ذاك الزواج من باب الصدفة والاتّفاق كما ظنّ بعض الجهلاء.

والحقيقة أننا إذا أخذنا بعين اعتبارنا أنّ محمّداً ﷺ حين تزوّج بخديجة ﵂ كان عمره يناهز الخامسة والعشرين. وأنّه أوتي رسالة ربّه وكان عمره قد بلغ الأربعين. وبقي محمّد في مكّة المكرّمة ثلاث عشرة سنة قبل أن يهاجر إلى المدينة المنوّرة أي أنّه هاجر من مكّة وعمره كان يناهز الثالثة والخمسين سنة وهاجر وترك وراءه داره وجميع ما يملك وأنّه عندما وصل المدينة المنوّرة تنافس أهلها في استضافته فالمعلوم من كتب التاريخ أنّ محمّداً ﷺ لم يشأ تفضيل واحدٍ على آخر في موضوع استضافته بل إنّ محمّدا رسول اللّه ﷺ كان يقول لكلّ مَن عرض عليه استضافته (خلّوا سبيلها ـ ويعني ناقته التي كان يركب عليها ـ فإنّها مأمورة) فوقفت راحلته ﷺ أخيراً في أرضٍ كانت ليتيمين من بني النجّار. فقال رسول اللّه ﷺ (لعلّه هذا هو المكان الذي يشاء اللّه أن ننزل فيه). وسأل عن الأرض لمن تكون؟ فقال له معاذ بن عفراء: هي يا رسول اللّه لِسهل وسهيل ابنا عمرو وهما يتيمان وأنا وليّهما والأرض في خدمتك. فقال رسول اللّه ﷺ لا نأخذ مال أحدٍ مجّاناً وقد دفع ﷺ قيمة تلك الأرض وأرضى اليتيمين ووليّهما. واتّخذ رسول اللّه ﷺ فوق

تلك الأرض مسجداً كما أمر ببناء داراً له عليها أيضاً. ومن ثمّ طلب من أبو أيّوب الأنصاري أن يهيّئ له غرفةً في داره ليحلّ فيها لقرب داره من المسجد الذي بناه هناك. ودام الحال على هذا عدّة أشهر إلى أن تم بناء مسكنه ﷺ (بخاري باب هجرة النبي وهذا ما ذكره الزرقاني أيضاً). ويتبيّن من (البخاري باب هجرة النبيّ) أيضا أنّ عائلة أبا بكر وعائلته ﷺ قد أتى محمّد بهما من مكة المكرّمة بعد أكثر من سبعة أشهر من هجرته وبعد أن تهيّأ منزله ﷺ وإقامته. وهذه الحقائق التاريخيّة توضّح لنا بأنّ محمداً ﷺ بقي خلال السنة الأولى في المدينة بلا زوجةٍ وكان أبو أيّوب الأنصاريّ وزوجته يهيّئان لرسول اللّه ﷺ طعامه كلّ يوم طيلة تلك المدّة التي ذكرناها.

وقد قصدت من ذكر هذا كلّه أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ أمضى من حياته في المدينة المنوّرة التي هاجر إليها مدّة سبعة أشهر بدون زوجة وعيال ولم يفكّر بحال من الأحوال بالزواج مع أنّه لو كان قد طلب من أيّ صحابيّ أن يبحث له عن زوجة لكان قدّم له ابنته على طبقٍ من فضّة وهو في غاية السعادة لمناسبته رسول اللّه ﷺ. وإنّ هذه الحقيقة إن دلّت على شيءٍ فإنّما تدلّ على أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ لم يكن شهواني نساءٍ من جهة ولم يكن يُقدمُ على أمرٍ بدون توجيهٍ من ربّه عزّ وجلّ.

وقد كان قد حدث في سنوات الحصار الاقتصاديّ الذي ضربه مشركوا مكّة على رسول اللّه ﷺ وأصحابه أن تجرّأت صحابيّةٌ صالحةٌ راقبت حال رسول اللّه وهو مهملٌ نفسه فلا يقدم على الزواج من نفسه أقول: كان اسم تلك السيّدة (خولةُ بنت حكيم) زوجة عثمان بن

مظعون وكانت خولة هذه وزوجها من أوائل المهاجرين إلى الحبشة والثابتين في وجه اضطهاد أبو جهلٍ وزبانيّته. أي أنّها كانت في سنّ الشيخوخة فزارت رسول اللّه ﷺ ومن جملة ما دار بينهما من حديث هو أنّها فاتحت رسول اللّه ﷺ في أمر عدم إقدامه على الزواج وسألته عن السبب الذي يحول دونه ودون الإقدام على الزواج؟ فأطرق محمّد برأسه إلى الأرض يتذكّر خديجة بنت خويلد ﵂ وما تركته في حياته من فراغ وتساءل في نفسه ما معنى أن تفاتحه خولة الصحابيّة بهذا الموضوع فهل أنّ اللّه عز وجلّ هو الذي ألهمها أن تسأله هذا السؤال؟ وما كان من خولة إلاّ أن ظنّت أنّ في سكوته ﷺ موافقة مبدئيّة فسارعت وقالت يا رسول اللّه إن شئت بِكراً غير متزوّجة وإن شئت ثيّباً أرملة فكلّ فتاة تتمنّى قُربك. فسألها فمن في ذهنك بكراً ومن فيه ثيّباً؟ فأجابت بلهفةٍ وسرعةٍ: البكر عائشة بنت صديقك أبو بكر والثيّب سودة بنت زمعة التي كانت من السابقات في الإيمان كما هو معروف. وهنا تلعب التقادير الإلهيّة وتثبت بأنّ هناك محرّك خفيّ لكلّ ما يحدث في هذا الكون. فلمَ لم تعرض خولة غير اسم (سودة) ثيّباً من النساء؟ ولماذا عرضت اسم (عائشة) الصغيرة بنت أقرب الأشخاص إلى قلبه ﷺ مع أن والداها لم يعرضانها عليه؟ ورأيي في هذا الموضوع أنّ (خولة) لو لم تكن صحابيّة مقربة من ربّها فما كانت لتعرض على رسول اللّه ﷺ هذين الاسمين المذكورين فلا بدّ أن حدث ذلك كلّه بإلهامٍ خفيّ.

أقول: كنت قلت من قبل حين تكلّمت عن زواجه ﷺ من خديجة أنّها كانت قد رأت رؤيا مبشرة دفعتها إلى ذاك الزواج منه ﷺ. وهنا

تفحّصت سيرة (سودة بنت زمعة) من هذا المنظار فتبيّن لي أنّ (سودة بنت زمعة) ﷺ قد رأت رؤيا مبشّرة في هذا المجال أيضاً. وسأستعرض للقارئ الكريم مُجريات حياة (سودة بنت زمعة) التي أحدّثه عنها:

فالثابتُ تاريخيّاً هو أنَّ (سوده القرشيَّة) كانت متزوّجة من ابن عمّها (السكران بن عمرو) وكانت وزوجها من أوائل الناس الذين تقبّلوا الإسلامَ ديناً وثبتن عليه وتحمّلن في سبيله مختلف أنواع الاضطهاد من جانب أهلِ مكّةَ. فلما اشتدّ اضطهاد المسلمين من طرف أبو جهل وزبانيته وسمح رسول اللّه ﷺ لهؤلاء المسلمين الحديثي العهد بالإسلام أن يهاجروا إلى الحبشة على أنّ فيها ملك لا يضطهد أحداً بسبب عقيدته الدينيّة ولا يُظلم عنده أحد وعلى حسب ما أعلنه رسول اللّه ﷺ في ذاك الحين. فاضطرّت وزوجها وأخوها (مالك بن زمعة) من جرّاءِ ذلك الاضطهاد الشديد إلى الهجرةِ من مكّةَ المكرّمة إلى الحبشة اتّقاءً لاضطهاد قريش إياها وزوجها في دينهم.

وعاشت سودة وزوجها رضي اللّه عنهما هناك يقاسيان الغربة والبعد عن موطنهما والحرمان من الأهل إلى أن عادت (سودة) برفقةِ زوجها إلى مكة ليشاطرا إخوانهم المسلمين ما يتحملونه من اضطهادٍ وعذاب بصبرٍ وثباتٍ وإيمانٍ راسخٍ كالجبال الراسيات. وبعد مدّةٍ من الزمان عادا إلى مكّةَ المكرّمةَ لعلّ الاضطهاد خفّت وطأته. فلم تمض مدّة طويلة على عودة (سودة) وزوجها إلى مكّة المكرّمة إلا ومرض زوجها من كثرة ما كان قد عانى في الغربة وفُجعت (سودةُ) بوفاةِ زوجها الّذي ترك لها خمسة صبية صغاراً كانوا بحاجةٍ إلى من يرعاهم

وإلى من ينفقُ عليهم. فازدادت معاناتها إلى جانب ما كانت قد عانتهُ من قبل، وأضيف إلى معاناتها محنة الترمّل وإعالة صبيتها الصغار الذين فقدوا والدهم. فما كانَ منها إلاّ أن انتقلت من جرّاءِ ذلكَ إلى بيت والديها مع صغارها لعلّ والداها يساعدانها ويخفّفان عنها من هذا المصاب. وتقدّم بها السن وهي في بيتِ والديها وإلى درجة عادت تشعر معه أنها عادت غير صالحة للزواج بمعنى أنّها تجاوزت سنّ اليأس. وكان همّها محصوراً في تربية أبنائها وتنشئتهم تنشئة صالحة. فماذا حدث لهذه الصحابيّة في تلك الأيّام؟

الذي حدث وهي في تلك الحالة التي ذكرناها أن نامت وهي تتوسّل إلى ربّها أن يُعينها في كلّ ما كانت تعانيه. وإذ بها ترى رؤيا مبشّرة وقامت من نومها ووجهها يطفح سرورا وحبورا وما أرادت أن تبوح بما رأته في تلك الأيّام لعظمة البشرى التي أراها ربّها إيّاها. علماً بأنّ السابقين في الإيمان كانوا يسمعون من رسول اللّه ﷺ ما كان اللّه تعالى يريه إيّاه في منامه وما كان يكشفه عليه وكان ﷺ يؤوّل لهم ما كان يراه فاعتاد الصحابة على ذاك الجوّ الروحانيّ واعتادوا على معرفة أساليب تأويل الرؤى أيضا. لذلك كانت الصحابيّة (سودة) ممّن كان لها إلمام في موضوع الرؤى وتأويلها. لذلك استبشرت بما رأته ورافقها السرور حيثما حلّت بعد أن قعدت والناس من حولها يتعجّبون من انتقالها من حال إلى حال.

وقد أوردت للقارئ العزيز هذه الحادثة لمشابهتها بحادثة (خديجة) من قبل ﵂ هذه الحقيقة التي تثبت وجود تخطيطٍ إلهيٍّ من وراء ستار

فقد كان اللّه عز وجلّ يخطّط لقيام منظّمة نسائيّة لتساعد رسوله الكريم في موضوع أداء رسالة ربّه جلّ شأنه وكما أثبتت ذلك أحداث المدينة فيما بعد. وإلاّ فما معنى أن ترى خديجة ﷺ تلك الرؤيا المبشّرة التي لعبت في حياتها الدور الذي سبق لنا أن أشرنا إليه. وأن ترى (سودة) ﷺ هذه الرؤيا المبشّرة أيضاً والتي بدأت تلعب دوراً متميّزاً في حياتها أيضا إلاّ أن نفسرّ الحدثين المذكورين بوجود يدٍ خفيّةٍ هي يد اللّه العليم الخبير والحكيم تلك اليد التي كانت تعمل من وراء ستار وكانت هذه يد اللّه المخطّط والفعّالٌ لما يريد؟

من هذا كلّه نكون قد أدركنا بأنّ (سودة بنت زمعة القرشيّة) ﷺ كانت من السابقات في الإيمان. أي أنّها كانت ممّن أورد اللّه عز وجلّ بحقّهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وهو النصّ الصريح الذي وعد اللّه تعالى من خلاله السابقين في الإيمان أن يجعلهم من محبوبيه ومن المقرّبين منه جلّ شأنه. وسنرى كيف أنّ اللّه العزيز الذي أرى هذه الصحابيّة الجليلة السابقة في الإيمان تلك الرؤيا المبشّرة كيف حقّق ما بشّرها به بعد سنوات.

وكنت قصصت على القارئ الكريم كيف أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ بقي بعد موت زوجته (خديجة) ﷺ بلا زوجة وبلا مدبّرٍ لشؤون داره وكان يحبّ خديجة ﷺ إلى درجة أنسته أن يفكّر بعد موتها بامرأةٍ غيرها حيث أنّ موت خديجة أوجد فراغاً كبيراً في حياته فما عاد يتصوّر أنّ امرأةً أخرى ستسدّ ذاك الفراغ لنبل صفاته وإخلاصه وبُعده عن شهوة النساء. كما ذكرت للقارئ كيف أنّ الصحابيّة الجليلة (خولة بنت

حكيم) ﵂ عرضت على رسول اللّه ﷺ الزواج وخيّرته بين اثنتين.
وقلت هناك أنّ علينا أن نتساءل عن سرّ عرض (خولة بنت حكيم) على رسول اللّه ﷺ اسم (سودة بنت زمعة القرشيّة) وعدم عرضها اسم امرأةٍ ثيّبةٍ أخرى غيرها. وبعد أن قصصتُ على القارئ الكريم ما قصصته من سيرة (سودة) المذكورة وأنّها رأت في مكّة رؤيا مبشّرة أفرحتها كثيرا. فقد عاد سهلاً جدّاً أن يعلم هذا القارئ الكريم بأنّ هذا العرض الذي عرضته (خولة) كان بإلهامٍ خفيٍّ من ربّها ليحقّق اللّه عز وجلّ ما كان قد بشّر (سودة) به من بشارة كبرى. أي أنّ اللّه عز وجلّ كان قد اصطفى (سودة بنت زمعة لتكون أوّل عضوة رئيسة في المنظّمة النسائيّة التي شاء إنشاءها في المدينة المنوّرة بعد أن أصبح رسول اللّه ﷺ حاكماً فيها وبحاجة للتنظيم المذكور ليعينه ذلك على أداء رسالة ربّه عز وجلّ أداء سليماً وكاملاً.

والآن ليلاحظ القارئ ما فعله الله عزّ وجلّ الذي لا يخفى عليهِ ما كانت قد قدّمتهُ السيّدة (سودة) القرشيَّة من تضحياتٍ في سبيلِ الحفاظِ على دينها وإسلامها فقد شاء اللّه عز وجلّ أن يكافئها في هذه الدنيا وقبل رحيلها إلى الآخرة بوسام الاستحقاق بناء على هذا الوعد الإلهيّ الآنف الذكر فجعلها زوجة رسوله الصادق الأمين وفتح لها باب الثواب على مصراعيه من خلال خدمتها هذا النبيّ الذي فارق من قدّر اللّه تعالى أن يغني رسوله ﷺ عن طريقها ومن ساعدته خديجة وهو يتحنّث عشر سنوات في غار حراء ومن أنفقت عليه وعلى أصحابه في أيام العسرة جميع مالها حتى أنّها ماتت نفسها من سوء التّغذية لأنّها

عادت في السنتين الأخيرتين في مكة المكرّمة عسيرة ذات اليدين أيضاً.
فما كان لمحمّد ﷺ نبيل الأخلاق والخصال أن يفكّر بعد موت خديجة بالزواج من نفسه بغيرها. ثمّ إنّ محمّداً ﷺ لو كان يعشق (سودة القرشيّة) لكان قد تزوّجها بعد موت زوجها مندفعاً من نفسه في مكّة المكرّمة وبدون أن يدفع اللّه تعالى (خولة) المذكورة لتعرض عليه اسم هذه الصحابيّة الجليلة خاصّةً من بين عشرات الأرامل الثّيّبات في مكّة. وبألفاظ أخرى فما كان لرسول اللّه ﷺ أن ينتظر كلّ تلك المدّة لتصبح (سودة القرشيّة) شيخةً كبيرة السنّ وتذهب بهجة شبابها. والذي يهمّنا هنا هو أن ندرك بأنّ تصير (سودة بنت زمعة القرشيّة) زوجة محمّد رسول اللّه ﷺ كان قد حدث بتخطيط إلهيّ من وراء ستار ولم يحدث بطلب أو تخطيط من جانب رسول اللّه ﷺ نفسه. وكيف يخطّط هذا وقد رحلت عنه زوجته الشيخة ليتزوّج بعدها شيخة في السنّ ووراءها أعباء أولادها أيضا؟

أقول: ما دمت قد بيّنت لك يا عزيزي القارئ ماضي (سودة بنت زمعة القرشيّة) ﵂ فأرى أن أطلعك على ما جرى لها بعد عرضت (خولة بنت حكيم) اسمها على رسول اللّه ﷺ. فقد ناجى ﷺ ربّه في قلبه واستأذنه في أمر (سودة) ولقد شرح اللّه صدر رسول اللّه ﷺ خصوصاً وأنّه تعالى كان هو المخطّط لهذا الزواج وعلى حسب ما ذكرناه. وهنا التفت رسول اللّه إلى (خولة) وقال لها (اذهبي فاذكريها عليّ) وعلى حسب ما ورد في كتب التراث بمعنى أنهّ ﷺ طلب من (خولة) أن تخطب (سودة) كزوجة له.

وهنا أسرعت (خولة) فزارت (سودة) وأطلعتها على ما طلبه رسول اللّه ﷺ منها تبليغها إيّاه. فطارت (سودة) فرحاً بصورة لا شعوريّة بدافع الرؤيا المبشّرة التي كانت رأتها في مكّة المكرّمة. ووافقت بلا تلكّؤ ممّا أدهش (خولة) التي استفسرتها عن سرّ ما اعترى (سودة) فأطلعتها على رؤياها وهلّلتا وكبّرتا وشكرتا اللّه عز وجلّ على ما كان سبحانه قد بشّرها به وحقّق بشراه.

فتمّ زواج محمّد رسول اللّه ﷺ من (سودة بنت زمعة القرشيّة) وكان ذاك الزواج مُلفتًا لأنظار جميع أهل مكّة المكرّمة أن يُقدم ﷺ على الزواج بصحابيّة أرملة لم تعد صالحة للمعاشرة الجنسيّة بدلاً أن يخطب إحدى بنات أصحابه العذراوات. لكن الصحابة ما كانوا يدرون ماذا يخطّط ربّهم في علياء سمائه لصالح دينه الإسلاميّ الحنيف ولصالح نبيّه الكريم الصادق الأمين في ذاك الحين. وتمّت هجرة محمّد رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنوّرة وهو على تلك الحال.

الفصل الثاني :

حقيقة معنى (أمّهات المؤمنين)

ألا إنّ الذين يتّهمون محمّدا بـن عبد اللّه رسـول اللهّ ﷺ أنّه كـان شـهوانيّ نسـاء يتّهمونـه بـهذا الاتّـهام بعـد أن أصبـح حاكمـاً فـي المدينــة المنـوّرة. وإلاّ فـإنّ رسـول اللّـه ﷺ بقـي علـى زوجـة واحـدةٍ طيلـة حيــاة دعوته في مكّة المكرّمة. فإذا تذكّرنا بأنّ لقب (**أمّهات المؤمنين**) لم يكـن قد عرفه صحابة رسول اللّه في مكّة بسبب أنّ اللّه عز وجلّ لم يكـن قـد أنزل سورة الأحزاب فيها والتي ورد في الآية السادسـة منـها هـذا اللّقـب (**أمّهات المؤمنين**) نُدرك بأنّ لـهذا اللّقـب دلالـةً خاصّـة بالنسـاء اللواتـي تزوّج بهنّ رسول اللّه ﷺ في المدينة المنوّرة وهو بيت قصيدنا.

وقبل الكلام عمّن تزوّجهنّ رسول اللّه ﷺ فـي المدينـة المنـوّرة أرى أن أوضّح للقارئ الكريم حقيقة معنى (**أمّـهات المؤمنـين**) تلـك التسـمية التي أطلقها اللّه عز وجلّ على النسوة اللّواتي تزوّج بهنّ رسـول اللّـه ﷺ في المدينة المنوّرة. وهو الاسم الذي أعطى تلك الزوجـات مرتبـةَ قداسـةٍ فـي أعـين المؤمنـين رجـالاً كـانوا أو نسـاء والـذي دلّ فــي الوقـت نفسـه

على مهمّة تلك الزوجات على صعيد مساعدة رسول اللّه ﷺ في مهمّة أداء رسالته.

فما هي حقيقة هذه التسمية (أمّهات المؤمنين)؟

فأهمّ ما أورده معجم (محيط المحيط) قال: الأمّ الوالدة وامرأة الرجل المسنّة والمسكن وخادم القوم والجيل من كلّ حيّ والجنس والعلَم الذي يتبعه الجيش. وأمّ كلّ شيء أصله وعماده وأمّ القوم رئيسهم وأمّ الرأس الدماغ أو الجلدة الرقيقة التي عليها وكلّ شيء انضمّت إليه أشياء فهو أمّ لها.

أفلاحظت يا عزيزي القارئ قول مؤلّف المعجم (وأمّ كلّ شيء أصله وعماده. وأمّ القوم رئيسهم). فزوجات رسول اللّه ﷺ لم تكنّ والدات لجميع المؤمنين والمؤمنات. وهذه قرينة لغويّة تنقل المعنى الحقيقي لكلمة أمّ من قوله تعالى (**أمّهات المؤمنين**) إلى المعنى الذي بيّنه مؤلّف المعجم وهو (وأمّ القوم رئيسهم) وفي الحقيقة فإنّ أزواج رسول اللّه ﷺ اللواتي أصبحن بعد زواجهن منه (**أمّهات المؤمنين**) فقد أصبحن في حقيقة أمرهنّ ومن خلال هذه التسمية رئيسات في (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي كان اللّه تعالى قد شاء تأسيسها لتوجيه النساء المؤمنات في أمور دينهنّ. وبذلك فقد عاد من واجب المؤمنات في ذاك الحين النظر إلى زوجاته ﷺ على أنّهنّ رئيسات لهنّ. فهذا هو المعنى الذي فهمته جماعة النساء المؤمنات من لقب (**أمّهات المؤمنين**) في ذاك الحين. ذلك لأنّ لغة قريش كانت تمثّل ذروة الفصحى زمن بعثة محمّد رسول اللّه ﷺ ولذلك نزل القرآن الكريم بلهجة قريش كما هو

معروف. وعليه فإنّ اللّه عز وجلّ حين أعطى (سودة بنت زمعة القرشيّة) وبقيّة زوجات رسول اللّه ﷺ لقب (**أمّهات المؤمنين**) فمعناه أنّ اللّه تعالى نصّب زوجات رسول اللّه ﷺ اللواتي تزوّج بهنّ في المدينة المنوّرة أقول نصّبهنّ رئيسات للمؤمنات وهي صفةٌ إداريّة وليست هي بصفة تكريم روحيّة وعلى حسب ما ظنّ ذلك عامّة المسلمين من بعد القرون الأولى لبعثة محمّد ﷺ. وبألفاظ أخرى فإنّ اللّه تعالى كان ومن خلال هذه التسمية قد أسّس مؤسسةً لتوجيه النساء المؤمنات وجعل العضوات المؤسّسات لتلك (**المؤسسّة النسائيّة الإرشاديّة**) من تلك النسوة الأرامل اللّواتي تزوّج بهنّ رسول اللّه ﷺ وكانت تلك الأزواج من السابقات في الإيمان والسابقات في التضحيات التي قدّموها لتدعيم أركان الإسلام.

وقد يُفاجأ القارئ الكريم بهذه الحقيقة التي بيّنتها له آنفاً إذا استعاد ذكرى الفهم الموروث لديه فيزداد عجباً ويتساءل في حديث نفسه عمّن غرس تلك المفاهيم الموروثة بهذا الشأن في أذهان آبائه وأجداده. فأقول له: لا تعجب يا عزيزي القارئ من هذا كلّه فسأدلّك ببساطة على من زرع المفهوم الموروث لاسم (**أمّهات المؤمنين**) في أذهان الأوّلين. فأنت تعلم أنّ ما ورثه كلّ مسلم من مفاهيم دينيّة ورثها عن آراء المفسّرين القدماء رحمهم اللّه والتي تضمّنتها تفاسيرهم. لذلك أعود بك إلى ما كتبه ابن كثير تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾. فهو كتب يقول مفسّرا ذلك:

(أي في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ولكن لا تجوز الخلوة بهنّ ولا ينتشر التحريم إلى بناتهنّ وأخواتهنّ بالإجماع. وإن سمّى بعض العلماء بناتهنّ أخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعيّ رضي اللّه عنه في المختصر. وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يُقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء رضي اللّه عنهم ونصّ الشافعيّ رضي اللّه عنه على أنّه لا يُقال ذلك. وهل يُقال لهنّ أمّهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكّر السالم تغليباً؟ فيه قولان: صحّ عن عائشة رضي اللّه عنها أنّها قالت: لا يُقال ذلك. وهذا أصحّ الوجهين في مذهب الشافعيّ رضي اللّه عنه. وقد روي عن أُبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي اللّه عنهم أنّهما قرآ (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم وهو أبٌ لهم). وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعيّ رضي اللّه عنه. حكاه البغوي وغيره واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود رحمه اللّه. حدّثنا عبد اللّه ين محمّد النفيلي حدّثنا ابن المبارك عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ "إنّما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه". وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمّة).

فمن خلال ما اقتبسته لك يا عزيزي القارئ تُدرك بأنّ ابن كثير رحمه اللّه عندما فسّر هذه التسمية ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ لم يبحث عن

معنى كلمة أمّ بشكلٍ منهجيٍّ ولا استند إلى أصول تفسير فيما أبداه من معاني. وإنّه أخذ لكلمة (أم) هنا معناها الحقيقي وراح يعلّل الدافع الذي دفع اللّه تعالى ليورد كلمة (أم) في هذه الآية الكريمة نسبةً لأزواج رسول اللّه ﷺ. فمن أخبر ابن كثير أنّ اللّه تعالى استعمل هنا كلمة (أم) بمعناها الحقيقيّ؟ فالمعروف لدى علماء اللّغة أنّ الكلمة التي لا تلاحظ أنّها وردت بمعناها الحقيقيّ يعتبرون هذه الواقعة قرينةً للانتقال من المعنى الحقيقي إلى معنى آخر من معانيها. وما دامت أزواج رسول اللّه ﷺ لم تكنّ أمّهات حقيقيّات للمؤمنين فإنّ من واجبنا هنا أن ننتقل إلى معنى آخر قد أراده اللّه عز وجلّ من هذا الاستعمال. وقد بيّنت من خلال مُعطيات المعجم اللّغويّ أنّ أنّه يقال أمّ القوم أي رئيستهم. وهذا الآية الكريمة وما تضمّنتها من تسمية فقد نزلت بلسانٍ عربيٍّ مبين ولا تفسّر بقول فلان وفلان. لذلك كان من واجب القارئ الكريم إن كان مفكّراً وليس مقلّداً تقليداً أعمى للموروث أن يأخذ بهذا المعنى اللّغويّ هنا لهذه الكلمة (أم) وهي في هذه الآية الكريمة وأن يُعرض عمّا ورثه عن آراء المفسّرين الذين فسّروا الآيات الكريمة على أهوائهم وبدون منهجيّة وأصول تفسير وكما أثبتّ ذلك آنفاً. ويكفي للقارئ الكريم أن يعلم أنّ سرّ هذه التسمية (**أمّهات المؤمنين**) وقوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ أنّ سرّ ذلك يكمن في أنّ زوّجات رسول اللّه اللواتي تزوّج بهنّ ﷺ في المدينة المنوّرة كُنّ من المسلمات السابقات في الإيمان وقد اصطفاهنّ اللّه عز وجلّ ليكافئهنّ على سبقهنّ في الإيمان وعلى تضحياتهنّ في سبيل دعمهنّ أركان الإسلام فجعلهنّ أعضاء (**رئيسات**) للتنظيم النسائي

الذي سمّيته (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) تلك المؤسّسة التي شاء إنشاءها لتوجيه نساء المسلمين في أمور دينهنّ والتي تُشبه الاتّحاد النسائي في أيّامنا هذه تلك المؤسّسة التي كانت مهمّتها مساعدة رسول اللّه ﷺ في أداء رسالة ربّه عز وجلّ وذلك بالقيام بتوعية المسلمات وتوجيههنّ وعلى الوجه الأكمل. فكلمة (أمّ) بمعنى (**رئيسة**) تدلّ على تنظيم إداريّ ولا تدلّ على شيء آخر يتطلّب التّعليل من جانب ابن كثير وغيره من المفسّرين القدماء رحمهم اللّه والدفاع عنه. وهنا تطالبني يا عزيزي القارئ بتقديم الأدلّة التي تثبت مصداقيّة ما ذهبت إليه.

أدلّة تثبت قيام المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة:

فينبغي أن يضع القارئ الكريم نصب عينيه في هذا البحث المتعلّق بقيام المؤسسة الإرشاديّة النسائيّة التي أنشأها اللّه عز وجلّ في المدينة المنوّرة أنّه لن يسمع من خلال الآيات القرآنيّة مراسيم وقرارات صادرة عن رئيس دولة مؤرّخةً وموقعةً منه بالإضافة إلى حيثيّاتها وكما هو معهودٌ في ذهنه في البلد الذي يعيش فيه. فهذه الشكليّات المعروفة هي شكليّات تواضَع عليها الناس في مختلَف الأقطار ومنذ زمن بعيد لكنّ للمراسيم والقرارات السماويّة الواردة في هذا القرآن الكريم المعجز خصوصيّات تختلف عنها تماما.

فالقارئ الكريم يواجه هنا في بحثنا القرآنيّ هذا شكليّاتٍ مختلفةً تماماً عمّا هو معروف على وجه العموم. لكون هذه الأوامر في مجال

قيام المؤسسّة المشار إليها صادرة عن اللّه عز وجلّ نفسه الذي أنزل هذا القرآن العظيم وقد وردت مُصاغة صياغةً بلاغيّةً معجزة تحدّى اللهّ عز وجلّ بها الجنّ والإنس أن يصيغوا كتاباً كمثل القرآن الكريم نصّاً ومضموناً وخصوصيّات ومتضمّناً أمثال تلك القرارات. لذلك فإنّ الإنسان الذي لم يطّلع على منهجيّة هذا الكتاب المقدّس ولا على أصول تفسيره وكان يجهل اللّغة العربيّة وعلم البلاغة الذي صيغ هذا الكتاب على أساسه خاصّة فإنّه يستحيل عليه الوصول إلى الحقائق التي تضمّنها هذا القرآن الكريم هذا الكتاب الذي وصفه اللّه جلّ شأنه وقال:

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾

وعليه فإنني سأستدلُّ بمعطيات الآيات القرآنيّة ولكن بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره وليس بما يتبادر من تلك الآيات لأذهان القارئين القدماء رحمهم اللّه. فلو كانت المعاني المتبادرة للأذهان هي المعاني الحقيقيّة للآيات لكان المفسّرون القدماء رحمهم اللّه تعالى قد أحاطوا علماً بالموضوع الذي نحاول الكلام عنه. ذلك أنّ القدماء اتّبعوا ما ورد في مقالة للعلاّمة ابن تيميّة رحمه اللّه تضمّنت خمس طرائق لتفسير القرآن المجيد وبما يتناسب والزمن الذي عاش فيه ذاك الزمن الذي كانت الفرق الباطنيّة تفسّر فيه الآيات كما يحلو لها. أمّا تلك الطرائق المذكورة فلم تتضمّن شموليّةً ولا منهجيّةً وأصولا. وإنّ مَن اتّبع طرائق العلامة ابن تيمية من المفسّرين كابن كثير رحمه اللّه وغيره فلم يُدركوا هذه الحقيقة التي بيّنتُها فعملوا بإرشادات ابن تيميّة بدون فهمٍ للغاية المرحليّة منها وابتعدوا بذلك عن منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. وجرتّ

تفاسير ابن كثير وغيره من الويلات على الأمّة ممّا لا نزال نحصد من تلك الويلات. وقد كتبت كتاباً في أصول التفسير ممّا فتحه اللّه تعالى عليّ وسمّيته (منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره) وبإمكان كلّ قارئ الرجوع إليه.

الدليل الأوّل - حقيقة الامتياز:

أقول: هل هناك مسلم طالع آيات سورة الأحزاب ومن ثمّ ينكر وجود امتيازٍ لزوجات رسول اللّه ﷺ على بقيّة نساء المسلمين؟ أولم يقل اللّه جلّ شأنه في الآية 32 من سورة الأحزاب: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ . .﴾؟ ومعلومٌ أنّ تقوى اللّه تعالى مطلوبة من كلّ مؤمن ومؤمنة. فما معنى أن تصبح زوجات الرسول إن خشيت اللّه واتّقته أن تمتاز عن بقيّة نساء المؤمنين؟ فاعلم يا عزيزي القارئ أنّ هذا الامتياز الذي نصّت عليه هذه الآية سالفة الذكر قد أتى هذا الامتياز من جهتين:

فالجهة الأولى من حيث أنّ اللّه تعالى أعطى زوجات رسوله الكريم لقب (**أمّهات المؤمنين**) وهو اللّقب الذي تضمّنته الآية السادسة من سورة الأحزاب التي قال تعالى فيها: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ . .﴾. فقول اللّه تعالى (وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ) معناه أنّ أزواج النبيّ أصبحن (**رئيسات**) للمؤمنين وللمؤمنات وهو المعنى الذي أخذت به وأثبتّ مصداقيّته ضمن التحقيق اللّغوي لهذه التسمية الذي أجريته من قبل. فهذه هي الجهة الأولى لهذا الامتياز

الذي امتازت به زوجاته ﷺ على بقيّة نساء المؤمنين وأصبحن من جرّائه لهنّ امتيازهنّ ولسن كأحد من نساء المؤمنين.

والجهة الثانية تأتي ممّا ترتّب على كون أزواجه ﷺ قد أصبحن رئيسات المؤمنين والمؤمنات. إذ أنّ الرئيس ينبغي أن يكون أسوة حسنة لمرؤوسيه. فالمعلوم أنّ اللّه تعالى قد جعل رسوله الكريم أسوة حسنة للمؤمنين وقد توجّب بالتالي على أزواجه ﷺ اللّواتي أصبحن رئيسات للمؤمنين والمؤمنات أن تصبحن أسوة حسنة للمؤمنين أيضاً على طريق إطاعة اللّه عز وجلّ وخشيته واتّقائه. فهذه الحقيقة كانت كامنة وراء الشرط الذي اشترطه قوله تعالى بحقّهنّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ وهو (إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ) فهذه هي الجهة الثانية لهذا الامتياز الذي امتازت به زوجات رسول اللّه ﷺ على بقيّة نساء المؤمنين واللواتي أصبحن من جرّائه لسنَ كأحد من نساء المؤمنين.

فمن خلال هذا الامتياز الذي تميّزت به زوجات رسول اللّه ﷺ يكون قد تشكّل دليلنا الأوّل الذي دلّ على أنّ اللّه الذي أعطى تلك الأرامل السابقات في الإيمان الامتياز المذكور كان قد شكّل منهنّ رئيسات تنظيم (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**).

الدليل الثاني ـ ونواحيه الأربعة:

أقول: ما دامت زوجات رسول اللّه ﷺ قد اعتبرهنّ اللّه تعالى (**رئيسات**) وهو معنى (**أمّهات المؤمنين**) فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: إنّ هذه الكلمة (**رئيسات**) تستعمل في مجال التنظيم الإداريّ وحسبما

هو معروف في زماننا وشائع الاستعمال ولا تستعمل في مجال روحانيّ. ولذلك كان من واجبنا أن نحيط علماً بالنواحي التالية لهذا التنظيم الذي أشارت إليه تسمية (**رئيسات**) :

أولاً - أن نعرف حقيقة التنظيم الإداري الذي أشير إليه من خلال هذه التسمية (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم.

ثانياً - وأن نعرف عدد الرئيسات الذي تطلّب هذا التنظيم النسائي وجودهنّ. أي معرفة عدد اللواتي أُطلق عليهنّ اللّه جلّ شأنه لقب (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم. والذي اقتضى تنصيب هذا العدد من أزواج رسول اللّه ﷺ المسند إليهنّ القيام بأداء مهام هذه (**المؤسّسة الإرشاديّة النسائيّة**).

ثالثاً - وأن نحيط علماً بالهدف الذي يسعى هذا التنظيم لتحقيقه والذي تطلّب وجود هذا العدد من الزوجات الرئيسات واللواتي سمّاهنّ القرآن الكريم (**أمّهات المؤمنين**).

رابعاً - ومعرفة الجهة التي أمرت بقيام هذا التنظيم النسائي المشار إليه والمشابه لتنظيم الاتّحاد النسائي في هذا القطر العربيّ السوري.

فهذه أسئلة ينبغي الإجابة عليها من خلال نصوص قرآنيّة تثبت مصداقيّتها. وهي الأسئلة التي ترتّبت على معنى (**رئيسات**) وهو معنى (**أمّهات المؤمنين**). وأن تأتي تلك الإجابات القرآنيّة مقنعة للباحثين. وليس بشرط أن يكون المفسّرون الأقدمون رحمهم اللّه تعالى قد انتبهوا لدلالات تلك الآيات القرآنيّة المستدل بمعطياتها لإثبات مصداقيّة ما

طرحناه من أسئلة ترتّبت عل التسمية المشار إليها. وإلى القارئ أجوبة الأسئلة المذكورة :

أوّلاً - اللّه هو الآمر بقيام هذه المؤسّسة:

إنّ هذا السؤال يشكّل جوهر موضوع (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي نتكلّم عنها والتي بإمكاننا التوصّل إلى الإجابة الصحيحة عليها في هذا المجال إذا نظرنا إلى موضوع تعدّد زوجات رسول اللّه ﷺ من إحدى زاويتين: فالزاوية الأولى هي هل كان رسول الله ﷺ يتزوّج بصورة شخصيّة ليطفئ لهيب شهوته الجنسيّة وبمعزل عن موافقة ربّه عز وجلّ الذي حمّله عبء رسالة الإسلام الحنيف؟ والزاوية الثانية هي هل أنّ زواج محمّدٍ ﷺ كان يتمّ بأمرٍ من ربّه عز وجلّ وبتوجيه منه سبحانه وتعالى؟

ولا ينبغي للقارئ الكريم أن يتشتّت ذهنه هنا ويذهب بعيداً يل ينبغي عليه مراجعة الآية **52** من سورة الأحزاب فهي التي تحلّ من خلال ما تضمّنته هذا الإشكال الذي نحاول معرفة حقيقته ذلك أنّ اللّه عز وجلّ قد جعل كتابه العزيز مرجعنا في كلّ ما نريد معرفته. أو لم يخاطب اللّه عز وجلّ رسوله الكريم في الآية المذكورة من سورة الأحزاب ويقول له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ رَّقِيبًا﴾. فقول اللّه تعالى هنا (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ) قد وردت فيه كلمة (يَحِلُّ) بصيغة النهي (لَّا يَحِلُّ) ومعنى ذلك أنّ اللّه تعالى هو الذي كان قد أحلّ لرسوله الكريم الزواج بما جمعه في داره من زوجات. وأنّ رسول اللّه ﷺ كان لا يتصرّف من جانبه وبدون إذنٍ من

جانب ربّه عز وجل فيما أقدم عليه من زواج بالعديد من الأرامل السابقات في الإيمان. فمرجعيّة الحلال والحرام بيد اللّه عز وجلّ وما دام قد قال هنا (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ) فمعنى ذلك أنّ محمّداً ﷺ كان كلّما أقدم على زواج فلا يقدم عليه إلاّ إذا أذن له ربّه عز وجلّ وأحلّ له ذاك الزواج. ومعلوم أنّ المحرّك الأصليّ ومسبّب الأسباب فهو اللّه جلّ شأنه والأنبياء إذ تتهيّأ أسباب أيّ أمرٍ من الأمور فلا يقدم الأنبياء على أمرٍ من الأمور إلاّ بعد استئذان ربّهم للإقدام على الأمر المذكور فإن هو تعالى أذن لهم وأحلّ ما يُقدمون عليه فعلوه مع أنّ المحرّك لهذا الأمر هو اللّه تعالى نفسه. وعليه فإنّ إيراد هذا النهي من جانبه تعالى يشير إلى اكتمال العدد المطلوب من الزوجات وسدّ باب الزواج من أخريات (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) أي ولو وجدتَ محرّكاً داخليّاً للإقدام على الزواج الذي تريده هذا من باب أنّ ذاك المحرّك يكون محرّكاً شهوانيّاً ولا يكون محرّكاً رحمانيّا.

هذا وإنّ هذا الجار والمجرور (من بعد) معناه أنّ اللّه تعالى قد حدّد الزوجة الأخيرة التي كان قد سمح لرسوله الكريم بالزواج منها. ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قد شكّل شرطاً لا يصدر عن اللّه عز وجلّ من دون أن تكون وراءه حكمةٌ وهدفٌ معيّنين. لذلك كان من واجبنا التوقّف هنا لنتساءل عن تلك الحكمة وعن الهدف من وراء هذا الشرط الذي تضمّنته الفقرة المذكورة؟

ولمعرفة الحكمة والهدف من وراء الشرط المذكور لننظر أوّلا من هي التي كانت آخر أرملةٍ تزوّجها رسول اللّه ﷺ؟ فالثابت من سيرته ﷺ

أنّ آخر زوجة تزوّجها محمّد رسول اللّه ﷺ هي (ميمونة بنت الحارث) ﵂ تلك الزوجة التي تحقّق بزواجها ما ورد في الآية 50 من سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿. . . وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾. فالاسم الحقيقي لهذه الزوجة المذكورة هو (برّة بُنت الحارث بن حزْن بن بُجير) وأمّها (هند بنت عوف بن زهير بن الحارث). وكانت (ميمونة بنت الحارث) في الأصل متزوّجةً من (أبي رُهم بن عبد العزّى العامريّ) فلمّ توفّاه ربّه عز وجلّ وفي وقت كانت فيه ميمونة زوجته لا تزال في ريعان شبابها قرّرت ألاّ تتزوّج بعده وظلّت أرملةً. حدث هذا قبل هجرة محمّد ﷺ من مكّة إلى المدينة المنوّرة بستّ سنوات فإذا أضفنا إلى هذا أنّ (ميمونة) كانت في السادسة والعشرين من عمرها حين ترمّلت. فيعني هذا أنّها أصبحت في الثاني والثلاثين من عمرها سنة الهجرة.

وحدث بعد صلح الحديبيّة أن دخل محمّد رسول اللّه ﷺ مكّة بقصد الحجّ والعمرة يوم كان عمر (ميمونة) قد أطلّ على الأربعين سنة. فلمّا دخل رسول اللّه ﷺ مكّة وأخذ يطوف حول الكعبة ومن ثمّ يتهادى في أزقّة مكّة على ناقته (القصواء) وعبد اللّه بن رواحة يتقدّم ناقة رسول اللّه وهو ممسكٌ بزمامها وينشد شعراً كانت سيّدات مكّة يُطللن من نوافذ وشرفات وأسطحة بيوتهنّ يُتابعن ذاك المنظر منظر رسول اللّه ﷺ الذي عاد إلى موطنه زائراً وأفئدتهنّ تطير فرحاً وغبطةً بعودته. ومعلوم أنّ العواطف تلعب في مثل تلك اللّحظات كثيراً. وكانت (ميمونة) قد وصلها قول اللّه عز وجل ﴿. . . وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن

وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من سورة الأحزاب التي أنزلها اللّه عز وجلّ في المدينة المنوّرة لأنّها كانت مؤمنةً وتتقصّى جميع ما كان ينزل بعد الهجرة من آيات كريمة. فاستولى على عقل (ميمونة) هذه فكرة أن تهب نفسها ليتزوّجها رسول اللّه ﷺ ومصداق هذه الفقرة القرآنيّة التي أوردناها. خصوصاً وأنّ (ميمونة) كانت تتفاخر من قبل بأنّ أمّها كان رسول اللّه ﷺ وأبو بكر الصدّيق وحمزة والعبّاس وجعفر وعلي أصهاراً لها. وقد دفعت (ميمونة) في تلك اللحظات أختها زوجة العباس ﷺ عمّ رسول اللّه ﷺ لينقل رغبتها تلك إلى ابن أخيه محمّد ﷺ. فرجع العبّاس بموافقته رسول اللّه ﷺ على الزواج منها. وكانت قد انقضت الثلاثة أيّام التي نصّ عليها صلح الحديبيّة. فأبقى رسول اللّه ﷺ مولاه (أبا رافع) في مكّة ليلحق به وبعروسه (ميمونة) المؤمنة التي وهبت له نفسها. ففعل ولحق برسول اللّه ﷺ في موضع يُقال له (سَرِف). فهناك تمّ زواجه ﷺ بميمونة ومن هناك رجع معها إلى المدينة المنوّرة. وبزواج رسول اللّه ﷺ من (ميمونة) التي وهبت له نفسها بدأ يتحقّق ما استهلّ اللّه تعالى به الآية 52 وهو قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾. فتوقّف رسول اللّه ﷺ بعد زواجه من ميمونة عن الزواج نزولاً عند أمر ربّه عز وجل. وثبت من خلال ذلك أنّ اللّه عز وجلّ هو الذي خطّط لزواج رسوله الكريم من تلك الزوجات من وراء الغيب وكان جلّ شأنه يهيّء الأسباب لتحقيق ما كان قد خطّط من أجل تحقيقه.

وإنّ ما يزيدنا يقيناً بمصداقيّة ما ذكرناه هو أنّ اللّه عز وجلّ قال في تتمّة الآية 52: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾. وهذا شرطٌ آخر أضافه اللّه تعالى على شرطه الأوّل الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾. وهذا الشرط الثاني يعني بألفاظٍ أخرى أنّ اللّه عز وجلّ قد نبّه رسوله الكريم إلى أنه بعد زواجه ﷺ بميمونة قد تمّ عدد الزوجات المطلوب جمعهنّ لتنفيذ المخطّط الإلهيّ المرسوم له في عالم غيبه. ذاك العددُ الذي استحقّ تسمية (**أمّهات المؤمنين**) والذي معناه أنّ تلك الزوجات قد أصبحن يشكّلن رئيسات للمؤمنين وحسبما دلّ على ذلك كلمة (أمّ) بمعناها غير الحقيقيّ.

ولكنّ هذه الآية التي وردت فيها هذه الفقرة المتعلّقة بميمونة التي وهبت نفسها لنبيّ اللّه ﷺ يقول اللّه عز وجلّ فيها قبل ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ والحقيقة هي أنّ اللّه عز وجلّ قد أخبرنا بمن زوّجهنّ اللّه تعالى رسوله الكريم خلال المدّة التي انقضت قبل أن تهب ميمونة نفسها لرسول اللّه ﷺ لتصبح زوجةً له. وقد ورد ترتيب زواجهنّ بنفس ترتيب هذا الشقّ من هذه الآية الكريمة. وإنّ الزوجة التي كانت من ملك يمين رسول اللّه ﷺ هي صفيّة بنت حيَي ﷺ وكانت من بني النضير وأمّها برّة بنت السموءل أي أنّها كانت يهوديّة وأرملة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق صاحب حُصن القَموص وكان من أمنع حصون خيبر.

وعليه فإنّ القارئ الكريم وبعد اطّلاعه على زواج ميمونة بنت زمعة القرشيّة من رسول اللّه ﷺ يكون قد أمسك برأس الخيط في موضوع (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي نتكلّم عنها. حيث أنّه يكون قد أدرك من خلال معرفته هذه التي حصل عليها حتّى الآن بأنّ اللّه عز وجلّ كان هو المخطّط الحقيقيّ لقيام تلك المؤسّسة النسائيّة التي نتكلّم عنها. فلمّا أتمّ اللّه عز وجلّ العدد المطلوب من أعضاء تلك المؤسّسة وذلك بعد زواج رسوله الكريم ﷺ بميمونة التي وهبت له نفسها. يكون قد تبيّن للقارئ الكريم ما يساعده على معرفة الحكمة من ذلك التزويج بذاك العدد من النساء الأرامل والسابقات في الإيمان والمقصد منه.

وعلى هذه الصورة نكون قد أجبنا على السؤال الرابع وهو ضرورة معرفة الجهة التي أمرت بقيام ذاك التنظيم النسائيّ الذي ترأّسته زوجات محمّد رسول اللهّ ﷺ. فالجهة التي خطّطت لقيام تلك المؤسّسة كانت ذات اللّه تعالى نفسه الفعّال لِما يريد. لذلك ننتقل للإجابة على السؤال الثالث الذي نصّ على ضرورة معرفة الهدف والحكمة من قيام ذاك التنظيم.

ثانياً: الحكمة والهدف من وراء قيامها:

وإننا إذا شئنا معرفة الحكمة والهدف من وراء تزويج اللّه تعالى من تلك الأرامل السابقات في الإيمان واللواتي قدّمن للإسلام من عظيم التضحيات في سبيل تثبيت دعائم الإسلام الحنيف فما علينا إلاّ إعادة تدبّرنا للآيات القرآنيّة العائدة لهذا الموضوع من زاوية النظر هذه وألاّ نعتمد على ما فهمه المفسّرون القدماء منها وحسب. وإلى القارئ الكريم ما توصّلت إليه بهذا الخصوص.

فلقد تبيّن لي أنّه بعد أن تجمّع العدد المطلوب كأزواجٍ لرسول اللّه ﷺ من الأرامل المقرّبات من اللّه تعالى تحت عقد محمّد رسول اللّه ﷺ فهناك كشف اللّه عز وجلّ الغطاء عن الحكمة والمقصد من تزويج اللّه تعالى رسوله الكريم بتلك النسوة الأرامل والسابقات في الإيمان وليصبحن رئيسات في التنظيم المراد إقامته كمؤسّسة إرشاد نسائيّة ولتوجيه وتثقيف نساء المسلمين بأمور دينهنّ وبصورة تشفي صدورهن في هذا المضمار.

فاستمع يا عزيزي القارئ وأنصت معي خاشعين إلى الآيات 28 ـ 31 من سورة الأحزاب. تلك الآيات التي يُفهم من مضمونها أنّ خطابها قد أتى بعد أن اكتمل تزويج الرسول الكريم بتلك السابقات المجاهدات. علماً بأنّ الكلام الإلهي الوارد في آيات القرآن الكريم مُصاغٌ صياغة بلاغيّةً معجزةً وليس هو بكلام أديب من الأدباء. وسأحاول تدبّر هذه الآيات الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

ألا ليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ اللّه جلّ شأنه راح يخاطب رسوله الصادق الأمين ﷺ ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. ففعل الأمر (قل) الوارد في قوله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ من هذا الخطاب الإلهيّ يعني بلّغ أيّها النبيّ أزواجك هذا الأمر الإلهيّ الموجّه من ربّهنّ الذي كان قد بشّرهنّ بهذا الزواج قبل الأوان وحقق ما وعدهنّ في تلك الرؤى الرحمانيّة فجعلهنّ زوجات رسولنا الأمين وأمّهاتٍ للمؤمنين أي رئيساتٍ للمؤمنين.

فما هو مضمون هذا الأمر الإلهيّ الذي ينبغي على النبيّ تبليغه لأزواجه اللواتي جمعهنّ اللّه تعالى تحت عصمة رسوله الكريم؟

ألا إنّ مضمون هذا التبليغ المشار إليه تضمّنه قوله تعالى الذي استوفى بقيّة هذه الآية 28 وهو: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾. فما المقصود من قوله تعالى في هذا التبليغ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾؟ فمن باب (أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً) وهو ما ورد من حديثٍ عن رسول اللّه ﷺ نفسه فإنّ اللّه عز وجلّ قال في الآية 20 من سورة الحديد: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾.

والمعنى أنّكنّ يا زوجات النبيّ إن ظننتنّ بأننا بشّرناكنّ وجمعناكنّ تحت عصمة رسولنا الكريم وجعلناكنّ رئيسات للمؤمنين من دون أن نحمّلكنّ مسؤوليّات هذا الامتياز الذي امتزتنّ به على نساء المسلمين فتناسيتنَ هذه الحقيقة وفكّرتنّ أنّ رسولنا الكريم سيعاشركنّ كما يعاشر الشاب زوجته لتنجبن أولاداً وتلهونّ بعد هذا الزواج وتلعبن وتتمتّن بزينة هذه الحياة الدنيا فقد أخطأتنّ في هذا الظنّ. فهذا هو مضمون هذا

التبليغ. وليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ اللّه تعالى أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه وأضاف وقال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾. فما هي دلالة هذا القول؟

فما معنى قوله (أُمَتِّعْكُنَّ)؟ تقول متّع المرأة المطلّقة أي أعطاها مُتعة الطلاق أي مؤخّرها وما أعطيت من متاعٍ بعد الزواج. ثمّ ما معنى (وَأُسَرِّحْكُنَّ)؟ تقول سرّح فلانٌ زوجته ومعناه طلّقها. وقد وصف اللّه تعالى هذا الطلاق بأنّه (سَرَاحًا جَمِيلاً) أي طلاق حسن من جميع الوجوه. (محيط المحيط).

وخلاصة قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ هو أنّ اللّه عز وجلّ نبّه من خلال قوله هذا ذهنَ رسوله الكريم وأذهان زوجاته اللّواتي جمعهنّ معه برباط الزوجيّة وهنّ أرامل ومن السابقات في الإيمان نبّههنَ إلى أنّ رسوله الكريم ليس رجلاً شهوانيّ النساء حتى يجتمع تحته هذا العدد من الزوجات. بل أراد اللّه تعالى من وراء ذلك مقصداً سامياً يريد تحقيقه على أيدي هذه الأرامل السابقات في الإيمان لتختتم كلّ واحدةٍ منهنّ حياتها أكثر قُرباً من ربّها جلّ شأنه ولتفوز بمحبّته ورضوانه. وبعد أن أطلع اللّه عز وجلّ تلك الزوجات على أنّ زواجهنّ هذا قد تمّ لتحقيق مقصدٍ سام فقد ترك لهنّ حقّ الاختيار بين أن يطلّقهنّ رسول اللّه ﷺ أو يبقين متأهّبات لتنفيذ ما يطلبه ربّهنّ منهنّ لتحقيق المقصد من عمليّة جمعهنّ في دار رسول اللّه ﷺ كأزواجٍ له. فلماذا ترك لهنّ الخيار في هذا الأمر؟ ترك لهنّ الخيار فيه **لأنّ** تعاليم الإسلام لم تقم على الإكراه في الدين ولكنّها قامت على

حرّية الاختيار ليثاب المرء أو يُهان وفقاً لما اختاره من سبيل. فهذه هي خلاصة هذا التبليغ الذي أمر اللّه عزّ وجلّ رسوله الكريم تبليغه لتلك الأرامل السابقات في الإيمان فإن استجابت الواحدة منهنّ فقد استحقّت شرف جعلها (**أمّ المؤمنين**) أي رئيسةً للمؤمنين. وإن لم تستجب يمتّعها رسول اللّه ﷺ ويطلّقها. وعلى هذه الصورة نكون قد اكتشفنا أنّ تجميع تلك الزوجات لم يكن للمعاشرة الجنسيّة وإنّما كان يخفي وراءه حكمةً ومقصداً. وهو تنظيمٌ نسائيٌّ اعتبرت زوجات رسول اللّه فيه (**أمّهات المؤمنين**) بمعنى رئيساتهم في التنظيم النسائيّ المشار إليه. ويظلّ مع ذلك السؤال قائماً: فما هو ذاك التنظيم الذي قصد اللّه عز وجلّ تأسيسه؟ وعليه كان من واجبنا الانتقال لمعرفة مضمون الآية الثانية لعلّنا نجد فيها جواب السؤال الذي طرح علينا نفسه آنفاً.

فلقد قال اللّه تعالى في الآية الثانية: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. فما هو مضمون هذه الآية الثانية؟ فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ اللّه تعالى قد استهلّ هذه الآية الثانية بحرف الجزاء (وَإِن) الذي يوقع الثاني من أجل وقوع الأوّل فتجزم فعلَين شرطاً وجوابه. ومعنى ذلك أنّ هذه الآية الكريمة اشترطت شرطاً جديداً أيضاً. فما هو هذا الشرط المقصود؟ أجاب تعالى موضّحا هذا الشرط المقصود فقال: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ﴾. فقوله تعالى (تُرِدْنَ ٱللَّهَ) فلا معنى له إلاّ أن نقرّ بوجود حذف فيه. علماً بأنّ الحذف البيانيّ يكون المقصود منه توسيع الدلالة وتصريف المعنى إلى عدّة جهات. وعليه فالتقدير هو: وإن كنتنّ تردن رضاء اللّه تعالى وخدمة دينه والتقرّب منه والفوز برضوانه.

أمّا قوله تعالى (وَرَسُولَهُۥ) فما دامت تلك النسوة قد فُزن أصلاً برسول اللّه وأصبحن أزواجه فهذه قرينة تمنع المعنى المباشر وتنقله إلى معنى آخر غيره. فما هو هذا المعنى المقصود هنا؟ نستطيع إدراك المعنى المقصود إذا علمنا أنّ رسول اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء وأنه ﷺ كان جلّ همّه هو تأدية مهمّة إبلاغ رسالة ربّه إلى الناس. ومعنى ذلك أنّ المعنى غير المباشر هو المقصود في هذا المقام وهو ضرورة قيام تلك الزوجات بإعانة محمّدٍ رسول اللّه ﷺ في موضوع أداء مهمّته السماويّة. وذلك أن تتلقّى هذه الزوجات من رسول اللّه مباشرةً جميع ما يختصّ بأمور النساء من فقهٍ وتعاليم تختصّ بأمور النساء وتساعدنه من حيثيّة كون هذه الزوجات (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهنّ فتساعدنه على تثقيف وتوجيه نساء المسلمين في أمور دينهنّ.

وهكذا تبيّن من خلال هذا الحذف البلاغي المقصد السامي من وراء عمليّة جمع اللهّ تعالى لتلك النسوة تحت عصمة رسول اللّه ﷺ وجعلهنّ رئيسات للمؤمنين وهو أنّ المقصد من تلك العمليّة إقامة هذا التنظيم النسائيّ الإرشاديّ لقيادة نساء المسلمين وتثقيفهنّ في أمور دينهنّ وهي المهمّة التي تستطيع المرأة أداءها على الوجه الأكمل. وبألفاظ أخرى فقد أصبحت زوجات رسول اللّه رئيسات تنظيمٍ نسائيّ هو أشبه بالاتّحاد النسائيّ في أيّامنا هذه. ومن هذا المنطلق فقد أطلقت من جانبي على التنظيم النسائيّ المشار إليه (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**).

والحقيقة هي أنّ اللّه جلّ شأنه عمد إلى إقامة مؤسّسة التنظيم النسائية المذكورة بأسلوبٍ معجز لم تُفهم حقيقته حتّى أيامنا هذه لذلك

كان من المستغرب جداً في أعين أعداء الإسلام أن يتزوّج محمّد ﷺ بتلك المجموعة من النساء ولذلك ظنّوا بالتالي أنّه نبيٌّ شهوانيّ نساء. على حين أنّ تلك الزوجات لم تجتمع تحت رسول اللّه ﷺ من أجل المعاشرة الجنسيّة وإنّما جُمِعت على تلك الصورة ليشكّل بهنّ طلائع مؤسّسةِ إرشادٍ نسائيّة يتلاءم تأسيسها مع تلك البيئة التي أنشأها فيها. وإنّ ما يؤكّد تلك الحقيقة هو أنّ غالبيّة تلك الزوجات كُنّ أرامل ومن السابقات في الإيمان ولم يعدن يصلحن للمعاشرة الجنسيّة وكما سأثبت ذلك عند الكلام عن تاريخ وسنّ كلّ واحدة منهنّ.

وقد أضاف اللّه تعالى وقال: ﴿وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي (وإن كنتُنَّ تُردنّ. الدار الآخرة) وفي هذا التعبير حذفٌ بلاغيٌّ أيضاً وتقديره أنّكنّ يا أزواج النبيّ إن كُنتنّ تُردن ثواب الدّار الآخرة. أي إن كُنتُنّ قد تزوّجتُن هذا الرسول الكريم بأمل الفوز بثواب الآخرة وليس بدافعٍ شهوانيٍّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وبذلك يكون اللّه تعالى قد جمع بين هذه الدوافع الثلاثة وكما لاحظ ذلك القارئ الكريم لتخيير تلك الزوجات الأرامل والسابقات في الإيمان بين قبولهنّ بأداء تلك المهمّة وبين الزواج لمجرّد التمتّع بزينة الحياة الدنيا. وإنّ التاريخ يُنبئنا بأنّ تلك النسوة الأرامل فضّلن (اللّه ورسوله والدار الآخرة) بدليل أنّ محمّدا رسول اللّه ﷺ لم يطلّق بعد هذا التبليغ ولا واحدةً منهنّ. أي أنّهنّ قبلن العرض الذي عرضه ربّهنّ عليهنّ وهو جعلهنّ (**أمّهات المؤمنين**) بمعنى رئيساتهم وليكنّ طلائع تنظيم مؤسّسة إرشاديّة نسائيّة على شاكلة ما نعرفه في زماننا من تنظيمات نسائيّة.

ثالثاً ـ عددُ رئيسات التنظيم:

وعلى هذه الصورة وبعد أن أحطنا علماً بالحكمة من قيام (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي نتكلّم عنها فقد عاد من السهل علينا أن نعرف عدد رئيسات التنظيم المشار إليه. فعدد تلك الرئيسات تحدّد منذ أن أنزل اللّه عز وجلّ تلك الآيات الكريمة التي خاطب تعالى من خلالها وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾. فالزوجات اللواتي كُنّ على عصمة رسول اللّه ﷺ في فترة إنزال هاتين الآيتين الكريمتين هما المقصودين برئاسة التنظيم النسائيّ المشار إليه. وسأورد أسماءهنّ في الوقت المناسب وسيرة كلّ واحدة منهنّ.

ثمّ أوليس من العجيب أن يقتصر هذا الخطاب على زوجات رسول اللّه ﷺ ولا يشمل أولاده وبناته؟ إلاّ أن يكون السبب في ذلك أنّ اللّه تعالى كان يؤسّس منظّمة التنظيم النسائيّ التي نتكلّم عنها. فلو كان المقصود من هذا الخطاب الذي تضمّنته هاتان الآيتان الكريمتان فقط محاولة التميز ما بين نساء المسلمين وما بين نساء الرسول الكريم ﷺ وحسب لكان اللّه عز وجلّ قد شمل في هذا الخطاب أولاد رسول اللّه أيضاً لكونهم من أهل بيت النبوّة. لكنّ إسقاط ذكرهم من هاتين الآيتين الكريمتين يعني بألفاظ أخرى أنّ الموضوع ليس موضوع تميز وإنّما هو موضوع تعيين رئيسات لمؤسّسة شاء اللّه تعالى إنشاءها بهذا الأسلوب المتميّز عن أسلوب إنشاء مؤسّسات تعارف الناس على إنشائها في وقتنا الحاضر.

وهكذا نكون قد أجبنا من خلال ما ذكرناه على مضمون التنظيم المقصود ولذلك ما عُدنا بحاجة للإجابة على أوّل سؤال كنّا قد طرحناه من خلال هذا الدليل الثاني الذي قدّمناه.

لكنّنا نحاول سدّ ثغرةٍ صغيرة هنا وهو أنّ التنظيم على كلّ حال يحتاج إلى فتح موازنة خاصّة به فهل فتح اللّه جلّ شأنه موازنة لرئيسات **مؤسّسة الإرشاد النسائيّة** المذكورة؟ فأجيب بالإيجاب وملفتاً نظر القارئ الكريم إلى مضمون الشطر الثاني من هذه الآية الثانية. الشطر الذي استهلّه اللّه تعالى بفاء الاستئناف وقال فيه: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. فهذا الشطر من الآية تكلّم عن الأجور وكأنّه فتح باب موازنة خاصّة لصالح هذه الرئيسات. وبما أنّ زوجات رسول اللّه ﷺ كُنّ مؤسّسات للتنظيم ويقوم رسول اللّه ﷺ بالإنفاق عليهنّ فقد كان الأجر غير مادّي مرحليّاً. ولنحاول تدبّر هذا الشطر بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فالملاحظ هو أنّ هذا الشطر من الآية قد أورد ثلاثة كلمات هي (لِلْمُحْسِنَٰتِ، أَجْرًا عَظِيمًا) وإنّها تحمل من المعاني ما يؤكّد ما ذهبنا إليه آنفاً. لذلك نتساءل يا عزيزي القارئ عن دلالة قول ربّنا عز وجلّ: (أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ)؟ فأنت تقول: أحسن فلان الشيء ضدّ أساءه كما تقول أحسن الشيء بمعنى علِمه فيقال فلانٌ يُحسن القراءة أي يعلمها (محيط المحيط). وعليه يكون المعنى هو أنّ اللّه عز وجلّ قد أعدّ لأمّهات المؤمنين أي أعدّ لرئيساتهم اللّواتي يُحسنّ أداء دورهنّ المسند إليهنّ واللّواتي يحطن علماً بجميع ما يتّصل به من علم وفقه أجراً عظيما يتناسب مع ما أحسنت كلّ واحدةٍ منهنّ دورها فيه.

وماهي دلالة كلمة (أَجْرًا)؟ تقول أجَره على الأمر أجراً وإجارةً جزاه. فالأجر هو الجزاء على العمل. والأجر الذكر الحسن. قيل في الكلّيات: الأجر والأجرة يقال فيما كان عقداً أو ما يجري مجرى العقد ولا يُقال إلاّ في النفع. أمّا الجزاء فيُقال فيما كان عن عقدٍ وعن غير عقدٍ وفي النافع والضارّ. (محيط المحيط) هذا وإنّ انتقاء اللّه تعالى لكلمة (أَجْرًا) هذه يكون قد عقد مع (**أمّهات المؤمنين**) عقداً في هذا الشأن الذي يتكلّم عنه بسبب أنّه تعالى لم يقل (جزاء) بدلاً عن كلمة (أَجْرًا). والعقد لا يكون إلاّ في التكليف بعمل.

وما هي دلالة قوله تعالى (عَظِيمًا)؟ تقول عظُم الشيءُ ومعناه كبُر وخلاف صغُرَ. وعظّمه معناه فخّمه وكبّره. والعظيم خلاف الصغير. وقال في الكلّيات: العظيم هو عند المشبّهة من أسماء الذات وعند أهل التوحيد من أسماء الصفات. والعظيم نقيض الحقير كما أنّ الكبير نقيض الصغير. والعظيم فوق الكبير لأنّ العظيم لا يكون حقيراً لكونهما ضدّين والكبير قد يكون حقيراً كما أنّ الصغير قد يكون عظيماً إذ ليس كلٌّ منهما ضدّ الآخر. والعظيم يدلّ على القرب والعلّ يدلّ على البعد. (محيط المحيط) وعليه يكون اللّه تعالى قد حدّد لأمّهات المؤمنين إطار (الأجر) الذي أعدّه لهنّ من خلال كلمة (عَظِيمًا) وهو أنّه تعالى وعدهنّ برفع منزلتهنّ وتفخيمهنّ في أعين المؤمنين نساءً ورجالاً في هذه الدنيا بسبب أنّه تعالى لم يستعمل كلمة (كبيراً) عوضاً عن كلمة (عَظِيمًا) هذه الكلمة التي تتعلّق بمنزلتهنّ وما يحملنه من صفات. وفي الوقت نفسه فقد تضمّنت كلمة (عَظِيمًا) هذه وعد اللّه إليهنّ أن يجعلهنّ من المقرّبات إليه من الوجهة الروحيّة فيفزن بعظيم محبّته وقربه ورضوانه.

وإنّ دلالات هذه الألفاظ الثلاثة الواردة في هذه الفقرة من الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أعطت معنى واسعاً لها ومتعلّقاً بموضوع إنشاء (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي خصّص اللّه عز وجلّ أزواج رسوله الكريم للقيام بمهمّاتها لأنّه تعالى قد جمعهنّ زوجات له ﷺ لتحقيق هذا المقصد لكونهنّ أرملات من جهة ولكونهنّ من السابقات في الإيمان من جهةٍ أخرى. ولكونهنّ مؤهّلات لأداء هذه المهمّة الموكلة إليهن من جهة أخرى ثالثة. خصوصاً وأنّه تعالى كان يعلم من خلال واسع علمه الغيبي جلّ شأنه أنّ أعمار هذه النسوة سيمتدّ طويلا حتّى أواخر الخلافات الأربعة الراشدة وهي الحقيقة التي ثبتت من وجهة سيرة كلّ واحدةٍ من سير (**أمّهات المؤمنين**) رضي اللّه عليهنّ جميعاً.

فإلى هنا نكون قد أحطنا علماً بحكمة ومقصد تنظيم (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) والأسس والعقد الذي تأسسّت على أساس منه كما اطّلعنا على (الأجر) الذي أعدّه اللّه تعالى لكلّ واحدة من تلك الرئيسات. ونكون في الوقت نفسه قد تأكّدنا من أنّ عمليّة تجميع تلك النسوة الأرامل السابقات في الإيمان كانت عمليّة تنظيمٍ إداريٍّ هي بمثابة مرسومٍ جمهوريّ أو رئاسيّ. نظّم إقامة تلك المؤسّسة المشار إليها بأسلوبٍ يُخالف الأسلوب المعهود في أذهاننا في أيّامنا هذه. وعاد هذا الأمر يشكّل في حقيقته إعجازاً إلهيّاً متميّزاً بدليل أنّه لم يخطر ببال أحدٍ من المفسّرين إلى الآن. ومن باب أنّ المفسّرين القدماء رحمهم اللّه تعالى كانوا يفسّرون الآيات القرآنيّة بما يتبادر لأذهانهم منها وليس على أساس تدبّرٍ مُستندٍ إلى منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

هذا وقد سبق لي أن تكلّمت عن امتياز وحقيقة معنى (**أمّهات المؤمنين**) في الفصل الثاني من قبل وكان ذلك قد سدّ مسدّ الناحية الرابعة من هذا الدليل الثاني.

الدليل الثالث ـ قيودُ الأسوة الحسنة:

وهنا أسأل: من هو الذي لا يعلم بأنّ اللّه عز وجلّ قد جعل محمّداً رسول اللّه ﷺ أسوةً حسنةً للمؤمنين؟ فلو لم يكن رسول اللّه ﷺ أُسوةً حسنةً فيما يدعو إليه من تعاليم لكان الناس قد طعنوا به وبنبوّته وقالوا له اذهب فأصلح نفسك قبل أن تدعونا إلى الإيمان بما جئتنا تدعونا إليه. فالأسوة الحسنة لها عظيم الأهمّية في مختلف المجالات. فإذا لم يصبح الوالدان أسوةً حسنة لأولادهما في كلّ مجال يحاولان تهذيبهم فيه على سبيل المثال فمن المستحيل على أولئك الأبناء أن يستجيبوا لكلّ ما يوجّههم به والداهم. وهذا الأمر يحدث على مختلف صُعُد الحياة.

وما دام أزواج محمّدٍ رسول اللّه قد أعطاهنّ ربّهنّ لقب (**أمّهات المؤمنين**) بمعنى رئيسات في (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي توصّلنا إليها. فقد أمسى من أشدّ الضرورات أن تحاول (**أمّهات المؤمنين**) أن تكون أسوةً حسنة للرجال وللنساء المؤمنين. وإلاّ فلن تستطعن أن تؤدّين مهمّتهنّ.

فمن هذا منطلق ليحاول القارئ الكريم الإصغاء إلى ما تضمّنته الآية الثالثة من الآيات التي أوردناها آنفاً وليلاحظ تلك القيود التي

فرضها اللّه عزّ وجلّ على (**أمّهات المؤمنين**) وليصدق قول اللّه تعالى الوارد في الآية السادسة من هذه السورة والتي تضمّنت منح أزواج الرسول هذا الامتياز حيث قال تعالى هناك: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ هذه الآية الكريمة التي حثّت المؤمنين والمؤمنات على الالتفاف حول رسوله وأزواج رسوله الكريم وإلى حدّ افتدائه بأرواحهم. فكيف يفتدون رسول اللّه وأزواجه إن كانت أمّهات المؤمنين لا يمثّلن (الأسوة الحسنة) لهم جميعهم فوجود الأسوة الحسنة في رسول اللّه ﷺ وأزواجه من أشدّ الضرورات. وهل يتذكّر القارئ الكريم السؤال الذي وجّهه أحد التابعين إلى عائشة ﵂ قائلاً: (كيف كان خُلُق رسول اللّه؟) فأجابته بثلاث كلمات وقالت: (كان خُلُقه القرآن). والمعنى أنّ محمّداً ﷺ كان يمثّل تعاليم القرآن بصورةٍ عمليّةٍ. وهكذا كانت زوجاته.

قلت: فمن هذا المنظار ينبغي علينا أن نتدبّر الآية الثالثة التي وضع اللّه عز وجلّ فيها القيود الواجب على أزواج محمّد رسول اللّه التقيّد بها في حياتهم اليوميّة تلك القيود التي لم تخالفها واحدة منهنّ بقيّة حياتها. فلقد قال اللّه تعالى مخاطباً أزواج النبيّ يفرض علهنّ أن يمثّلن تلك الأسوة الحسنة للمؤمنين رجالا كانوا أو نساء قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾. وتعال يا عزيزي القارئ نتدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. ففعل (يَأۡتِ) اشتُقّ من قولك أتى الأمرَ ومعناه فعله. أمّا الجار والمجرور (بِفَٰحِشَةٖ) فالباء حرف جرّ

لإفضاء معاني الأفعال إلى الأسماء وقد استُعملت هنا بمعنى الاستعانة كقولك كتبت بالقلم أو أتيت بفاحشة. وأمّا كلمة (فاحشة) فقد ورد في المعجم بأنّ لها أكثر من معنى. فالفاحشة مؤنّث ومذكّرها الفاحش ومعناه القبيح والبخيل جداً والكثير الغالب وكلّ شيءٍ جاوز الحدّ. فإذا قُلت: رجلٌ فاحشٌ فمعناه أنّه مُعتدٍ في القول والجواب. والفاحشة مؤنّث الفاحش وتعني ما يشتدّ قبحُه من الذنوب وكلّ ما نهى اللّه تعالى عنه والزنا أيضاً. وقال في تعريفات: الفاحشة هي التي توجب الحدّ في الدنيا والعذاب في الآخرة جمعها فواحش. وفي الحديث أنّه ﷺ قال لعائشة: لاتكوني فاحشة. قيل أراد بالفُحش التعدّي في القول والجواب. والملاحظ أنّ كلمة الفاحشة وُصفت في هذه الآية الكريمة بكلمة (مُّبَيِّنَةٍ) المشتقّة من أبان الشيء إبانةً معناه اتّضح فهو مبين ومؤنّثه مُبينة.

وعليه يصبح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أنّ اللّه تعالى على حين كان قد خاطب أزواج النبيّ من قبل بطريق غير مباشر أي عن طريق نبيّه الكريم ﷺ. وقد راح اللّه تعالى يُخاطب في هذه الآية الكريمة أزواج النبيّ بطريق مباشر. ولا يفعلُ اللّه عز وجلّ مثل هذا التبديل بدون حكمة واضحة. وأرى أنّ الحكمة من ذلك ووفق مُعطيات سبق هذه الآية أنّ اللّه تعالى قد تجاوز مرحلة التّبليغ التي تكلّمنا عنها من قبل ومرحلة قبول الزوجات ما طلبهُ ربّهن منهنّ خصوصاً وأنّهنّ رضين بما طلبه ربّهنّ منهنّ ولذلك لم يُطلّق رسول اللّه ﷺ ولا واحدةً منهنّ. وقد أصبحن بعد ذلك كلّه وفي نظر اللّه عز وجلّ (**أمّهات للمؤمنين**) أي رئيساتٍ لهم في هذه المؤسّسة

الإرشاديّة وتبعاً للمُهمّة الموكلة إليهنّ. وعلى هذه الصورة فقد أصبحت زوجات رسول اللّه ﷺ جزءً لا يتجزّأ من معاوني محمّدٍ ﷺ على أدائه لرسالة ربّه عز وجلّ لذلك أعرض اللّه سبحانه عن مخاطبته إيّاهنّ بطريق غير مباشر وبدأ يخاطبهنّ مباشرة وكما هو الحال في هذه الآية الكريمة. فهذه هي حكمة هذا التبديل في أسلوب الخطاب الإلهيّ في هذا المقام.

فماذا أراد اللّه تعالى من مخاطبة أزواج نبيّه الكريم بصورةٍ مباشرة وقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ ؟ فقد أراد تعالى من هذا الخطاب أنّ عليكُنّ يا نساء النبيّ بعد أن استقرّ أمر كونك (**رئيسات**) للمؤمنين أن تلتزمن بالبُعد عن ارتكاب أيّ فعلٍ نهى اللّه تعالى عنه من قبيح الذنوب والانتهاء عن الاعتداء على أحدٍ من المؤمنين في القول والجواب. فمن واجبكنّ الآن الالتزام بذلك كلّه وعلى صورةٍ لا يعود يصدر خلال أقوالكنّ ولا خلال إجاباتكنّ ما يكشف عن أنّكُنّ تُخالفن أحكام وتعاليم ربّكنّ. فإن خالفتنّ ما نهيتكنّ عنه بعد الآن ينتقص ذلك من هيبتكنّ ومنزلتكُنّ التي منحتكنّ إيّاها في أعين المؤمنين ولا يعود لِنُصحكنّ ووعظكُنّ إياهم من أثرٍ في قلوبهم. فهذا هو معنى هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الثالثة. ألا إنّ هذه الضوابط التي ضبط اللّه عز وجلّ بها أزواج النبيّ ﷺ تمثّل ضوابط (أسوة حسنة) مطلوبةً منهنّ بعد تنصيبهنّ رئيسات للمؤمنين في هذه المؤسّسة الإرشاديّة المشار إليها. وقد جاءت هذه الضوابط مُصاغةً صياغةً بلاغيّةً مُعجزة وخلاف إنشاء الأدباء لمثل هذه الضوابط أيضاً.

والآن وبفرض أنّ إحدى زوجات النبيّ يصدر عنها أيّة مخالفة لتلك الضوابط المذكورة فما هي عقوبة ذلك؟ فقد راح اللّه عز وجلّ يجيبُ على هذا السؤال ويضيف ويقول: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾. فما هي حقيقة مضمون هذه الإجابة؟

تقول: ضاعف الشيء ومعناه جعله ضِعفَين وهذا التعبير أبلغ من قولك: ضعّفه. أمّا كلمة (ٱلۡعَذَابُ) فمن قولك: عذّب اللّه فلاناً ومعناه أوقع به العذاب أي أوقع به النكال والعقوبة. وقيل أنّ العذاب هو كلّ ما شقّ على الإنسان ومنعه عن مراده ويُجمع على عذابات وأعذبة. وفي الكلّيات: كلّ عذاب في القرآن فهو التعذيب إلاّ وليشهد عذابها طائفةٌ فإنّ المراد من العذاب الضرب.

فمن المعلوم أنّ الإنسان الذي يُذنب ويتوب فإنّ اللّه تعالى يتوب عليه ولا يعذّبهُ على ذنبه هذا في الآخرة. وإنّ اللّه عز وجلّ حين هدّد وقال هنا (يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ) فلا يعني أنّه يُنزلُ بالمذنبة ضِعف العذاب المنصوص عليه في الشريعة بل يعني أنّه تعالى لا يغفر لهذه المُفحشة ذنبها بل ويعذّبها به في الآخرة لتُهان هناك وهي عقوبة ضعف العذاب المنصوص عليه عقوبته. لكنّ المفسّرين القدماء رحمهم اللّه لم ينتبهوا إلى هذا وذهبوا في تفسيرهم لتلك الجملة مذاهباً. وقد فهموا من كلمتي (بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) الإشارة إلى فاحشة الزنا. على حين أنّ هذا المعنى مرفوضٌ بالبداهة. فلقد كنت بيّنت بأنّ غالبيّة أزواج النبيّ كُنّ أرملات وتجاوزن سنّ اليأس وكنّ من السابقات في الإيمان ومبشّرات بهذا الزواج فمن المستحيل أن يخطُر لواحدةٍ منهنّ أن يصدر

عنها فاحشة الزنا بعد هذا العمر وهذا النضال والحفاظ على الإيمان من جانبهنّ.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فقد ردّ اللّه تعالى بذلك على العادة الجاهليّة وهي أنّ للأمراء امتياز يصونهم من العذاب. وقد ألغى تعالى ذاك الامتياز المشار إليه بهذا النصّ فوضّح بأنّ أمر اللّه تعالى يختلف عن أمر خلقه المذكورين فلا يدفع عن زوجة النبيّ العذاب لكونها زوجته بل ويُضاعفُ لها العذاب بسبب كونها زوجة رجلٍ عظيم.

وخلاصة هذا الدّليل الثالث هو أنّ اللّه عز وجلّ لم يخصّص هذه الآية الثالثة لينصّ على مُضاعفة عقوبة الزنا إن زنت إحدى أزواج النبيّ ﷺ. ولكنّ اللّه تعالى نصّ في هذه الآية الكريمة عن القيود التي ينبغي على رئيسات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) أن يلتزمن بها ليحافظن على هيبتهن وقداستهنّ في أعين أبنائهنّ الروحيّين من المؤمنين رجالا ونساء. كيلا يفقدن السيطرة على هؤلاء إن خالفن مُعطيات هذه الأسوة الحسنة المطلوبة.

الدليل الرابع - حوافز هذا التنظيم النسائيّ:

ثمّ إنّ فرض العقوبات ينبغي أن يرافقه حوافز تستنهض الهممَ وتُبعد المرء عن خيانة أمانته. وها أنّ اللّه سبحانه راح في الآية الرابعة يُلوّحُ بتلك الحوافز لأزواج رسوله الكريم ويقول: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.
فما هو مضمون هذه الحوافز التي تضمّنتها هذه الآية الرابعة؟

تقول: قنتَت المرأة لربّها ومعناه أنّها أطاعته وسكتت وقامت إلى الصلاة ودعته ليوفّقها فيما قنتت من أجله وأمسكت عن الكلام في هذا الأمر خارج الصلاة. وإلى هذا المعنى ورد أمر اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ ومعناه أنّ تفكيركم في صلاتكم لا ينبغي أن يذهب هنا وهناك بل أن تتوجّهوا في صلاتكم إلى اللّه عز وجلّ وبكلّ إخلاص وطاعةٍ وخشوعٍ وسكونٍ في أطرافكم فلا تقومون بين يديه سبحانه بأيّة حركات. هذا من باب أنّ كلمة القنوت تعني: الخشوع وخفض الجناح وسكون الأطراف وترك الالتفات إلاّ بالتوجّه إلى البارئ تعالى (محيط المحيط).

فأمّا قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقد أورد اللّه تعالى اسم الجلالة (لِلَّهِ) مُستهلاً بحرف اللام الذي استعمله هنا بمعنى الاختصاص. ذلك أنّ القنوت لا يكون إلاّ لذات اللّه عزّ وجلّ. ويكون لرسول اللّه ﷺ بالتبعيّة لذلك استهلّ لفظ (وَرَسُولِهِۦ) أيضاً باللام ولكن ليس بمعنى الاختصاص وإنّما بمعنى شبه التمليك.

ولم يكتف اللّه عز وجلّ بالقنوت من أزواجه للّه ورسوله بالمعنى الذي بيّنّاه آنفاً. بل أضاف فقرَن ذلك بضرورة اقتران القنوت بالعمل الصالح من جانبهنّ وقال (وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا). وموردًا كلمة (صَٰلِحٗا) وبمعناها الواسع الذي امتازت به تعاليم الإسلام. ففي التوراة وردت الوصايا العشر جامدة الدلالة (لا تقتُل، لا تزن. . .) على حين أنّ

أحكام الشريعة الإسلاميّة لم ترد بجمود مُعطيات الوصايا العشر التي كانت تتناسب مع زمن إنزالها. بل إنّ تعاليم أحكام الشريعة الحنيفيّة السمحة اتّصفت بالمرونة التي يفيدها لفظ (صالحاً) ولذلك نلاحظ أنّ اللّه تعالى حيث وعد المؤمنين بالجنّة قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وعليه فقد بات القارئ العزيز يستفهم عن دلالة كلمة (صالحاً)؟ فأقول له: إن أنت قُلت صلَح الشيء فتعني أنّه زال عنه الفساد بعد وقوعه. فالصالح ضدّ الفاسد والقائم بما يتوجّبُ عليه من حقوق اللّه تعالى وحقوق العباد (محيط المحيط). فإن أنت استبدلت قوله (صلَح الشيء زال عنه الفساد بعد وقوعه) بقولك (صلَح العملُ زال عنه الفساد بعد الإقدام عليه) يكون المقصد من كلمة (صالحاً) الواردة في هذه الآية الرابعة هو أنّ اللّه تعالى يُطالب أزواج النبيّ ﷺ ألاّ يكُنّ جامدات في تطبيق وفَهْم أحكام وتعاليم الدين الإسلاميّ حين التطبيق. بل يطالبهنّ بأن يستوفي وعظهنّ وعملهنّ عُنصُرَ المرونة المطلوبة وعلى صورةٍ يزول معها كلّ فسادٍ منه. فإن قنتت تلك الزوجات للّه ولرسوله وعملت الصالحات بالمعنى الآنف الذكر فقد وعَدهُنّ ربُّهنّ بحوافز عبّر عنها تعالى بقوله: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. فما هي دلالة ألفاظ هذا النصّ؟

فالملاحظ هو أنّ قوله تعالى (نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا) اشتُقّ فعل (نُّؤْتِهَآ) من آتاه. فأنت تقول آتى فلاناً أجره معناه أنّه جازاه على عمله بأن أعطاه أجره. وإنّ كلمة (أَجْرَهَا) فالأجر هو الجزاء على العمل والذكر الحسن

وكنت قد بيّنت من قبل أنّ الأجر والأجرة يُقال فيما كان عقداً أو يجري مجرى العقد ولا يُقال إلاّ في النفع. وقد وعد اللّه تعالى الصالحات من أزواج رسوله الكريم أن يُجازيهنّ إذا التزمن بالعمل على مضمون هذا العقد الذي عقده معهنّ بأن يُجازيهنّ عليه دنيا وآخرة كما كان قد هدّد المخالفة منهنّ من قبل بمعاقبتها دنيا وآخرة. فهذا هو معنى كلمة (مَرَّتَيْنِ) في هذا المقام.

ومن ثمّ أضاف اللّه عز وجلّ وقال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. فقوله (وَأَعْتَدْنَا لَهَا) معناه: هيّأنا لها. أمّا قوله (رِزْقًا كَرِيمًا) ففي التعريفات: الرزق الحسن هو ما يصلُ إلى صاحبه بلا كَدٍّ في طلبه وقيل ما وُجِدَ غير مرتَقبٍ ولا مُحتسَب ولا مُكتسَب. لكنّ الذي ورد هنا هو وصف هذا الرزق بصفة (الكريم). فأنت تقول: كرّمتُ فلانا معناه عظّمته ونزّهته. والرزق الكريم معناه الرزق الكثير. واستناداً إلى دلالات ألفاظ هذه الآية الرابعة فقد قرّر اللّه عز وجلّ فيها حوافز مُذهلة لكلّ زوجة قانتةٍ منهنّ وعاملة للصالحات وتُلخّص تلك الحوافز:

بوعد اللّه تعالى إيّاها بمجازاتها وإثابتها على إيفائها بعقدها مع ربّها أجراً دنيويّاً وأجراً أخرويّا. وأن يرزقها رزقاً كثيراً. فالأجر الدنيويّ تجلّى في المكانة التي كانت لأزواج رسول اللّه ﷺ في أعين المؤمنين. وتجلّت في طول عمر كلّ واحدة منهنّ بشكل مُلفتٍ للأنظار. وتجلّت في مدى قُربهنّ من اللّه عز وجلّ. وقد تجلّى الرزق الكريم من خلال

الأموال التي تدفّقت عليهنّ من حصصهن من أموال غنائم الحروب التي ظلّت مستمرّة إلى آخر أيّامهن.

وعلى هذه الصورة نكون قد أثبتنا مصداقيّة هذا الدليل الثالث الذي أوردناه تدليلاً على أنّ أزواج النبيّ ﷺ كُنّ طليعيّات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**). خصوصاً وأنّ الآيتين الثالثة والرابعة اللتين أوردناهما قد فرضتا ضوابط وحوافز تقيّد سلوك تلك الطليعيّات. أما المفسّرون القدماء رحمهم اللّه تعالى والذين لم ينظروا إلى مضامين هذه الآيات الكريمة من منظارنا الذي نظرنا منه إليها والذين جهلوا منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره فما كان باستطاعتهم الوصول إلى ما توصّلنا إليه لذلك تلاحظهم قد فسّروا هذه الآيات الكريمة على صورة أشعرت القارئ بوجود فروقٍ ما بين نساء النبيّ ﷺ وما بين بقيّة نساء المسلمين وكأنّ نسوة رسول اللّه ﷺ من طبقة تختلف عن طبقة بقيّة نساء المسلمين. وفي وقت كانت تعاليم الإسلام قد قضت على نظام الطبقيّة الذي كان سائداً في الجاهليّة ممّا دفع رسول اللّه ﷺ ليقول: المسلمون سواسية كأسنان المشط. خصوصا وأنّ زوجات رسول اللّه كنّ نسوة وبقيّة النساء نسوة وجميعهنّ كنّ مؤمنات فلا فرق بين هؤلاء وهؤلاء إلاّ هذا الفرق الذي بيّناه وهو أنّ زوجات رسول اللّه ﷺ عيّنهم اللّه عز وجلّ نفسه (**رئيسات**) على المؤمنين من خلال تسميته إيّاهنّ (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم لكونهنّ من السابقات في الإيمان والنضال في سبيل تثبيت دعائم الدين الإسلاميّ الحنيف وبإخلاصٍ تام.

فإلى هنا أكون قد قدّمت للقارئ العزيز ثلاثة أدلّة أثبتّ من خلالها أنّ ما كنّا نظنّه امتيازاً يميّز زوجات النبيّ ﷺ عن بقيّة نساء المسلمين لم يكن امتيازاً بل منصباً إداريّا لقيادة مؤسّسة إرشادٍ نسائيّة في الطور الأوّل من عمر تأسيسها. كذلك أثبتّ حقيقة المقصد من وضع حجر أساس تلك المؤسّسة النسائيّة وكيف أنّ اللّه جلّ جلاله هو الذي وضع حجرها بأسلوب معجزٍ يختلف عمّا هو متعارف عليه في الأنظمة الوضعيّة. وأنّ عدد تلك الرئيسات كان يساوي عدد زوجات رسول اللّه اللّواتي تزوّج رسول اللّه ﷺ بهنّ في المدينة المنوّرة. ولا تدخل في هذا العدد زوجته الأولى خديجة بنت خويلد ؓ ومن باب أنّ رسول اللّه ﷺ وأصحابه ما كانوا يعرفون هذا الاصطلاح في مكّة المكرّمة ولا كانوا يُنادون زوجة رسول اللّه ﷺ خديجة بنت خويلد بلقب (**أمّ المؤمنين**) بل ينادونها زوجة رسول اللّه ﷺ وبسبب أنّ سورة الأحزاب لم تكن قد أنزلها اللّه عزّ وجلّ بعد. فلو كانت قد أنزلت في مكّة المكرّمة لكان تقليد الابن بالتبنّي قد أُبطل قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة وما كان ليحدث زواج زيد بن حارثة بزينب ابنة عمّة رسول اللّه ﷺ فيها في المدينة المنوّرة.

كذلك أثبتّ بأنّ اللّه عز وجل قيّد تلك الزوجات بقيودٍ صارمة وليصبحن أسوة حسنة للمؤمنين وللمؤمنات وليحتفظن بمنصب قيادة النساء المسلمات والتأثير عليهنّ. وأنّ اللّه جلّ شأنه قد خصّ تلك الزوجات بحوافز فعالة لتشدّ تلك الحوافز من أزرهنّ على طريق تقيّدهنّ بما طلب اللّه عز وجلّ منهنّ أن يتقيّدن به من ضوابط وقيود على هذا الطريق.

ومن المعلوم أنّ قيام كلّ منظّمة يحتاج إلى مركزٍ تجتمع فيه أعضاء تلك المنظّمة وتُلقى فيه المحاضرات التثقيفيّة اللازمة ويعود مرجعاً لكلّ ما يمتّ لتلك المنظّمة بصلة من الصلات. فهل أنّ الآيات القرآنيّة أشارت إلى هذه الحقيقة بأسلوبٍ ما؟ وما هي تفاصيل ذلك؟

الدليل الخامس - المركز المختار للمؤسّسة:

وليلاحظ القارئ الكريم ما أورده اللّه عز وجلّ في الآيتين 33/ 34 من نفس سورة الأحزاب واللّتين استهلّهما اللّه جلّ شأنه بالكلمة التي تفيد معنى المركز المختار المطلوب وهي: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فبيتُ كلّ زوجةٍ من أزواج رسول اللّه ﷺ كان مركزاً لهذه المنظّمة النسائيّة ولم تكن نساء رسول اللّه مأموراتٍ بالخروج من دورهنّ للقيام بزيارات على شاكلة ما تقوم النساء به في أيّامنا هذه بل أُمرن بنصّ هذه الكلمات ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أن يجتمع عندهنّ النساء المسلمات لوعظهنّ ونُصحهنّ. فبيت كلّ (**رئيسة**) من أزواج رسول اللّه كان مركزاً لإلقاء محاضرات الوعظ والنصيحة في الدين في المدينة المنوّرة وحتّى بعد وفاة محمّد رسول اللّه ﷺ.

ولاحظ يا عزيزي القارئ هذا الحقيقة وكيف تضمّنتها الآيتان 33 / 34 اللتان أشرت إليهما واللتين ورد فيهما قول اللّه عز وجلّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ

أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ولنحاول تدبُّر هاتين الآيتين الكريمتين بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فنتناول كلمة (وقرنَ) هذه الكلمة التي لم يوردها القرآن الكريم في أيّة آيةٍ من آيات كتابه العزيز إلاّ في مُستهلّ هذه الآية التي نتدبّرها. والتي أشير من خلالها إلى المركزيّة المطلوبة لمؤسّسة الإرشاد النسائيّة التي نتكلّم عنها. فما معنى (وقرْن) بسكون الراء؟ ورد في معجم (محيط المحيط) تقول قرنَ فلانٌ ما بين الحجّ والعُمرة معناه جمع بينهما. وقرن الشيء بالشيء شدّه به ووصله إليه. وقرنَ البعيرين معناه جمعهما في حبل. وورد في معجم (مقاييس اللّغة) القاف والراء والنون أصلان صحيحان أحدهما يدلّ على جمع شيءٍ إلى شيء والآخر شيءٌ ينشأ بقوّةٍ وشدّة. وراح بعد ذلك يقدّم ما يثبت وجود هذين الأصلين.

واستناداً إلى ما نقلناه عن هذين المعجمين المذكورين يتبيّن أنّ اللّه عز وجلّ أورد فعل الأمر ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بالمعنى المشتقّ من الأصل الأوّل لهذه الكلمة. ولكن هل أورد تعالى هذه الكلمة بمعناها الحقيقيّ أم بمعناها المجازيّ؟ وللتحقّق من ذلك نعود إلى سيرة نساء رسول اللّه ﷺ فيتبيّن لنا بأنّ زوجات رسول اللّه ﷺ لم يرتبطن ببيوتهنّ على صورة ما كُنّ يخرُجن معها لقضاء حاجةٍ لهنّ. والأمثلة على ذلك كثيرة في هذا المجال ممّا لا حاجة بنا لتعدادها. فزوجات رسول اللّه ﷺ كُنّ يخرُجن من بيوتهنّ أحياناً وبرفقة بعض أولادهنّ أيضاً. لكنّ أغلبيّة أوقاتهنّ كنّ يمضينها في بيوتهنّ وتجتمع النسوة في بيوتهنّ أيضاً. وهذا يعني بألفاظٍ

أخرى أنّ أزواج النبيّ ﷺ كان الغالب من أوقاتهنّ يُمضينه في بيوتهنّ والحكم للغالب في هذا المجال. وهذه حقيقة إن دلّت على شيء فإنّما دلّت على أنّ فعل الأمر ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قد استعمله اللّه تعالى بمعناه الحقيقي وليس بمعناه المجازيّ.

وهنا ملاحظة لابُدَّ من دفع القارئ الكريم لملاحظتها وهي ما يتعلّق بالدور الذي بدأ بعد انتقال رسول اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فالمعروف تاريخيّا هو أنّ زوجات محمّد رسول اللّه ﷺ ظللنَ قاطنات في بيوتهنّ التي كُنّ يقطُنّها في حياته ﷺ ولم يحاول أحدٌ من الخلفاء أو غيرهم مهما كانت صفته الرسميّة أو صفة القرابة منهنّ أن يُطالبنَ بشيءٍ من بيوت زوجات النبيّ ﷺ ولو كان إرثاً. ولم يُعامَلن مُعاملة الزوجات الأرامل اللواتي مات عنهنّ زوجهنّ. فما هو السببُ في ذلك؟ خصوصاً وأنّه لم يرِد نصٌّ قرآنيّ بهذا الخصوص.

فالسببُ يكمن في هذا الأمر الإلهي المتضمّن ضرورة أن تقرّ كلّ واحدة من نساء النبيّ في بيتها وتجعله مركزاً لها للدعوة والإرشاد فلا تغادره إلاّ لقضاء حاجاتها وهو في نظري ما تضمّنه فعل الأمر ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ إلى جانب دلالة هذا اللّقب (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم. فمسلموا عصر نزول هذه الآيات الكريمة كانوا يفهمون دلالات هذه الفقرات بمعانيها اللّغويّة التي جمعها مؤلّفوا معاجم اللّغة العربيّة في معاجمهم في ذاك الحين. وإنّهم لم يفهموا هذه الآيات بمعانيها الدارجة اليوم على ألسنة مسلمي هذا الزمان. وبألفاظ أخرى فإنّ مسلمي عصر النبوّة كانوا قد فهموا من (**أمّهات المؤمنين**) معنى رئيساتهم. كما فهموا

من فعل الأمر ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أن تتّخذ أمّهات المؤمنين بيوتهنّ التي كنّ يقطنّ فيها مراكز لتلك الرئاسات. ولذلك فقد سكت الجميع بعد وفاة محمّد رسول اللّه ﷺ عن وضع زوجاته ولم يخطر ببال أحد أن يُطالبهنّ بشيءٍ من بيوتهنّ. وتركوهنّ في بيوتهنّ نزولاً عند أمر اللّه الآنف الذكر. وهو معنى أنّ بيوت أزواجه ﷺ يشكّلن مراكز رئاسات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) فتلك الدور كانت ممتلكات عامّة حكوميّة بحسب تعابير هذه الأيّام. وهذه حقيقةٌ لم يفطن لها أحدٌ من قبل.

والأمر الثاني الموجّه إلى (**أمّهات المؤمنين**) تضمّنته الفقرة الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾. فما هي دلالة فعل الأمر (وَلَا تَبَرَّجْنَ)؟ فأنت تقول: تبرّجت المرأة ومعناه أظهرت زينتها ومحاسنها للرّجال أو تشبّهت بالبرج في إظهار المحاسن أو ظهرت من بُرجها. وقيل في أصل التبرّج التكلُّف في إظهار ما يخفى ومن قولهم سفينة بارجة أي لا غطاء لها. (محيط المحيط)

وعليه فإنّ هذا الأمر الإلهي الثاني الموجّه إلى أمّهات المؤمنين تناول مظهرهنّ الخارجيّ وهو أنّه ما دام زواجهنّ المقصود به رئاسة (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) فإنّ عليهنّ أن يبتعدن عمّا تفعله الزوجات غيرهنّ اللّواتي يتزيّن ويُظهرن محاسنهن لأزواجهنّ في دورهنّ. وورد هذا الأمر الإلهيّ من باب أنّ اللّه عز وجل لم يقم بتزويج (**أمّهات المؤمنين**) لإشباع شهوة رسوله الكريم الجنسيّة وإنّما لمهمّة هي ترؤس هذا التنظيم النسائي الذي نتكلّم عنه خصوصاً وأنّ غالبيّتهنّ كُنّ أرملاتٍ وفي سنٍّ متأخرة. فأمرهنّ اللّه عز وجلّ أن تعمد كلّ واحدةٍ منهنّ إلى ارتداء

لباس الحشمة في بيوتهنّ في غالب الأحوال ليكنّ مُستعدّات لاستقبال زائراتهنّ وليتركن الأثر الحسن في نفوسهنّ فيما يقمن به من مواعظ أمامهنّ. وعلى هذه الصورة يتبيّن من هذا الأمر الإلهي الثاني ما يؤكّد ما نحن بصدد إثباته وهو أنّ اللّه تعالى قد جعل من بيوت (**أمّهات المؤمنين**) مراكز لاجتماعات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**).

وبعد أن أمر اللّه تعالى أمّهات المؤمنين بالتزام بيوتهنّ والابتعاد عن التبرّج في لِباسهنّ فقد أمرهنّ أن يداومن على أداء الصلاة في بيوتهنّ مع من يزورهنّ من نساء المسلمين وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. فكلمة (وَأَقِمْنَ) اشتقّت من قولك أقام الصلاة ومعناه أدام فعلها (محيط المحيط) وإنّ المحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها هو ثاني أمرٍ نصت عليه الآيات الأوائل من سورة البقرة ومن باب أنّ الصلاة عماد الدين فهي الوسيلة الرئيسيّة للاتّصال باللّه عز وجلّ. علماً بأنّ تعاليم الدين الإسلاميّ الحنيف امتازت بهذه الصلاة من دون بقيّة الأديان. وهي الصلاة التي قامت على أسسٍ علميّةٍ مثمرة. فبالأحرى أن تحافظ رئيسات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) على صلواتهن للإبقاء على صلتهنّ باللّه تعالى الذي نصّبهنّ رئيسات وسمّاهنّ (**أمّهات المؤمنين**).

وقد أمرهنّ اللّه تعالى أمراً رابعاً متعلّقاً بحياة المجتمع الإسلامي الاقتصادي وقال: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. هذا وإنّ زكاة الأموال ونصابها معروف لا حاجة بنا للتوسّع فيه. والشيء الملفت للنظر هو أنّ أزواج رسول اللّه ﷺ يخضعن في الأصل لإشراف رسول اللّه نفسه

وهو ﷺ المكلّف بالإنفاق عليهنّ. وعليه فما المقصود هنا من هذا الأمر الإلهيّ الموجّه إليهنّ ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؟ إلا أن يكون هذا الأمر الإلهيّ قد وجّهه تعالى إليهنّ من باب حيثيّتهنّ كرئيسات لتنظيمٍ نسائيّ من واجبهنّ أن يحسبن ممّا يدخل عليهنّ من مال حساب نصاب الزكاة ودفعه إلى بيت مال المسلمين ووعظ النساء المسلمات أن يفعلن نفس فعلهنّ. الأمر الذي يؤكّد مصداقيّة ما نحن بصدد الكلام عنه.

وليلاحظ القارئ الكريم هذا الأمر الإلهيّ الخامس الذي يبيّن بوضوح أنّ هذا الخطاب الإلهيّ موجّه إلى أمّهات المؤمنين بصفتهنّ رئيسات لتنظيم نسائي هو (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**). فهو تعالى أمر وقال: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾. والملاحظ هنا أنّ اللّه عز وجلّ لم يُضف على كلمتي (ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ) جملة ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. على حين أنّه جلّ شأنه سبق أن أمر وقال في الآية **59** من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فما هو المقصود من حذف (وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ) من هذا الأمر الإلهيّ إلاّ أن يكون المقصود منه أنّ (**أمّهات المؤمنين**) هنّ (**رئيسات**) لمؤسسة الإرشاد النسائي وهنّ بهذه الحيثيّة من أولي أمر المسلمين قد أصبحن بالنسبة لنساء المسلمين خاصّة من (وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ).

وليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ اللّه تعالى وبعد توجيهه هذه الأوامر الإلهيّة إلى (**أمّهات المؤمنين**) بحيثيّة كونهنّ أصبحن رئيسات لتنظيم نسائيّ. فقد راح اللّه تعالى يُطلعنا على حيثيّات أوامره سالفة الذكر وعلى شاكلة ما يفعله المشرّعون يبيّنون حيثيّات القوانين التي

شرّعوها. فهو تعالى راح يورد حيثيّات ما تضمّنته هذه الآية الكريمة وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وهنا قد يعترض القارئ ويقول: نحن نعلم بأنّ حيثيّات القرارات والقوانين إنّما يذكرها المشرّعون أوّلا ومن ثمّ يُدرجون ما يريدون إصداره من قوانين. فكيف تقول بأنّ الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة هي بمثابة حيثيّات لما سبقها من أوامر إلهيّة؟ فأجيب وأقول: إني ألّفت كتابا عنوانه (خصوصيّات القرآن الكريم) وأثبتّ فيه أنّ للقرآن الكريم خصوصيّاته التي يمتاز بها عن خصوصيّات الأدباء والمشرّعين الأرضيّين. وأنّ من تلك الخصوصيّات أنّه تعالى يورد الأحكام وينهي الآيات التي تضمّنتها تلك الأحكام بالحيثيّات التي استند اللّه تعالى إليها في إصدار تلك الأحكام. علماً بأنّ هذه المؤلّف الذي أشرت إليه في طريقه إلى الطباعة إن شاء اللّه تعالى.

ونعود إلى ما بيّناه من الفقرة التي نصّت على حيثيّات تلك الأوامر الإلهيّة الخمسة التي تضمّنتها هذه الآية 33 من سورة الأحزاب والتي نبّهت أذهاننا إلى المراكز التي خصّصها اللّه تعالى لرئاسات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) فأقول: ورد قوله تعالى في هذه الفقرة الأخيرة متضمّنا كلمتي (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) فما هي دلالتهما في هذا المقام؟؟

فالعلاّمة الفخر الرازي رحمه اللّه تعالى أورد يقول وهو يفسّر هذه الآية الكريمة قال: (واختلفت الأقوال في أهل البيت. والأولى أن

يُقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعليّ منهم لأنّه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبيّ عليه السلام وملازمته للنبيّ).

فأقول: إنّ ما ذكره الفخر الرازي رحمه اللّه آنفاً هو رأيه الشخصيّ وكما لاحظنا فإنّ العلاّمة الفخر الرازي لم يقدّم لإثبات رأيه المذكور أيّ دليل لإثبات مصداقيّته.

ألا إنّ القارئ الكريم لا بدّ أن لاحظ بأنّ الكلام هنا جرى حول أزواج النبيّ ﷺ أي منذ الآية 28 وحتى غاية الآية 34 بمعنى أنّ هذه الآيات الثمانية تكلّمت عن أزواج النبيّ ﷺ ولم تتعرّض لذكرِ أحدٍ من أولادهنّ ولا لذكر أحد من أولاد النبيّ ﷺ. وعليه فلا يجوز حشر أولاد النبيّ في مضمون (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) الوارد في هذه الآية الكريمة ومن غير تقديم دليل مقنع. إذ أنّ المعنى ينبغي أن يتّفق مع مُعطيات سباق الكلام وسياقه. وإنّ سباق هذه الآية الكريمة الوارد فيها هاتان الكلمتان (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) وسياقها يخلو من التعرّض لذكر أولاد النبيّ ﷺ. فليلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ صيغة التأنيث كانت ترد في الخطاب الإلهيّ الذي تضمّنته جميع تلك الآيات السابقة لهاتين الكلمتين (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) ويُقصدُ به أزواج النبيّ وحدهم من دون ذكرٍ لأيّ لأولاد رسول الله ولا لذكر أولادهنّ. فالخطاب ابتداء من الآية 28 استُهِلّ بقول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ

لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فهل لاحظ القارئ الكريم في هذه الصيغ المؤنّثة الواردة في هذه الآيات جميعها أيّ ذكرٍ للأقارب والأولاد التابعين لرسول اللّه ﷺ ولأزواجه وأين ذكر ابن عمّه علي بن أبي طالب ﵁ في هذه الآيات؟ فالمعلوم تاريخيًا هو أنّ الحسن والحسين ﵄ كانا حدثين صغيرين في السنوات الأولى بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة. إلى جانب أنّ عليّاً ﵁ كان يقطن وزوجته فاطمة الزهراء في منزلٍ مستقلّ وليس في دور هذه الزوجات الموجّه إليهنّ هذا الخطاب الإلهيّ في هذه الآيات الكريمة. فكيف أجاز العلاّمة الفخر الرازي رحمه اللّه وغيره من العلماء والمفسّرين حشر هؤلاء الذين أتى على ذكرهم وهو يشرح هاتين الكلمتين (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) الواردتين في حيثيّات تلك الأوامر التي تضمّنتها هذه الآيات المشار إليها وفيما أوردناه من بيان؟ إلاّ أن يكون رحمه اللّه قد وقع تحت ضغط طرح ما حوله من طروحات مغلوطة. وعليه ففي رأيي أنّ المقصود هنا من تعبير (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) هو محمّد رسول اللّه ﷺ بالذات بالإضافة إلى أزواجه بلا تفريقٍ بينهنّ. وإنّ كلّ من يستثني أيّة زوجةٍ من (**أمّهات المؤمنين**) المخاطبين في هذه

الآيات الكريمة يكون قد تجاهل هذا السياق الموضوعي لهذه الآيات المذكورة وأحدث تحريفاً من خلال ادّعائه في مضمون هذه الآيات الموجّهة لجميع أزواج النبيّ ﷺ وليس لواحدةٍ منهنّ بالذات.

وبالإضافة إلى ذلك فلم يكن يدري الفخر الرازي رحمه اللّه شيئاً عن خصوصيّات القرآن الكريم ليدرك بأنّ هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآية تشكّل حيثيّات ما ورد فيها من أوامر إلهيّة. لذلك أُعرض عن رأي الفخر الرازي وغيره رحمهم اللّه وأقدّم ما توصّلت إليه وفق منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. وأعتبر تعبير (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) الوارد هنا في هذه الآيات الكريمة المقصود به تلك الزوجات اللّواتي بدأ اللّه عز وجلّ بهنّ (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي خصّصنا هذا المؤلّف للكلام عنها. فقد أراد اللّه جلّ شأنه من حيثيّات تلك الأوامر الإلهيّة لِيُذهبَ عن تلك الزوجات ما تبقّى في سلوكهنّ من رجس المخالفات وليطّهرهنّ تطهيراً وليعُدن لا ئقاتٍ بالمنصب الرئاسيّ الذي قلّدهنّ إيّاه ربّهنّ لكونهنّ من السابقات في الإيمان. لذلك كان علينا أن نتدبّر دلالة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

أقول: هناك كلمتان في العربيّة هما (أهل وآل) ولكلٍّ واحدة منهما دلالتها. فالكلمة (آل) اشتُقّت منن قولك: آل فلانٌ إلى النبي ﷺ معناه رجع إليه وترك ما كان عليه. وبهذا المعنى وردت كلمة (آل) في الصلوات الإبراهيميّة. فلو كان المقصود بها هناك (أهل) لكان من الأنسب إيراد كلمة (أهل) بدلاً عن (آل). خصوصاً وأننا نقول في

التحيّات (السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين) فالدعاء لم يختص بمحمّد ﷺ في هذا الكلام بل وشمل جميع من عاد إليه ﷺ مؤمناً وعاملا على تعاليم رسالته. وعليه فإنّ كلّ مؤمنٍ باللّه وبرسوله فهو من آل رسول اللّه ﷺ. وبهذا المعنى وردت كثير من الآيات الكريمة تحمل هذا المعنى الذي ذكرناه. وعلى سبيل المثال فحين قال اللّه تعالى في الآية 50 من سورة البقرة مخاطباً بني إسرائيل قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فإنّ قوله تعالى (وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ) لم يكن المقصود منه أنّ جميع أهل فرعون قد أغرقهم اللّه تعالى بل كان المقصود منه أنّ فرعون وجميع من كان معه وتحت إمرته وخاضعاً له قد أغرقه اللّه عز وجلّ. ويقال آل الرّجل أهلُه. ولا يُستعمل إلاّ فيما فيه شرف غالباً فلا يُقال آل الإسكافيّ. بل يقال أهلُ الإسكافيّ. وأصل (آل) أُبدلت الهاء فيها همزة فصارت (أأل) وتوالت همزتان فأُبدلت الثانية ألفاً. فهذا بما يتعلّق بكلمة (آل).

وأمّا كلمة (أهل) فأهل الرجل عشيرته وذوو قُرباه وقيل أهل الرجل من يجمعه وإيّاهم مسكنٌ واحد ثمّ سمّي به من يجمعه وإيّاهم نسبٌ أو دينٌ أو صناعة أو نحو ذلك. وعند أبي حنيفة أهل الرجل زوجته خاصّة وأهل كلّ نبيّ أمّته وأهل الأمر وُلاته وأهل البيت سكّانه أو من كان من قوم الأب وأهل المذهب من يديّن به وأهل الوبَر سكان الخيام وأهل الحضر سكّان الأبنية ويقال فلان أهل لكذا أي مستوجب له. وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة أكثر من مائة وخمسين مرّة وبمختلف هذه المعاني آنفة الذكر. وعلى سبيل المثال فقد قال اللّه تعالى

في الآيـة **105** مـن سـورة البقـرة: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وظاهر أنّه تعالى استعمل كلمة (أهل) هنا في هـذه الآيـة بمعنـى أتبـاع كتـاب موسـى لأنّـه كـان هـو النبيّ المشرّع لليهود والنصارى. (محيط المحيط).

وأمّـا قولـه تعـالى: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ﴾ فقـد اشتقّ تعـالى هـذا الفعل من (ذهب) بمعنى سار أو مرّ. وقد أضاف تعالى صلة (عن) علـى الفعل فأنت تقول ذهـب عـن الشـيء ومعنـاه تركـه هـذا فـي حـال يكـون الفعـل لازمـاً أمّـا هنـا فـالفعل متعـدّي وليصبـح معنـاه ليدفعكـم لـترك الرجس. فما هو معنى كلمة (ٱلرِّجْسَ)؟ تقول: رجسَ البعير ومعناه هـدر. كمـا تقـول: رجـسَ فـلانٌ فلانـاً عـن الأمـر ومعنـاه عاقـه عنـه. ورجِس الرجل عمل عملاً قبيحاً. والرجس هـو القـذر والمـأثم والعمـل المؤدّي إلى العـذاب والشـك والعقـاب والغضـب مـن الوجهـة اللّغويّـة. وورد في الكلّيات: الرجس والنجس متقاربان في المعنـى لكـنّ الرجس أكثر ما يقال في المستقذر طبعاً. والنجس أكثر ما يقال في المستقذر عقـلا وشرعا. (محيط المحيط).

واستناداً إلى معاني ألفاظ هذه الآيـة الكريمـة التـي أوردناهـا يصبـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أنّ اللّه تعالى إذ أمركُنّ يا أزواج النبيّ بهذه الأوامر سابقة الذكر ونهاكم عن تلك المنهيات سالفة الذّكر فقد أراد اللّه تعالى من وراء ذلـك أيضـاً أن يدفعكـم لـترك كـلّ عمـل يـؤدّي بكـنّ إلـى العـذاب والعقـاب

ويبعدكنّ عن ربّكنّ ويحرمكنّ من محبته وقربه ورضوانه خصوصاً وأنّكنّ قد أصبحتنّ أزواجاً لرسولنا الصادق الأمين. فأنتنّ اليوم في بيت النبوّة هذا البيت الذي تتنزّل فيه ملائكة اللّه فلا يجوز أن تختلّ طهارته.

وهذا المعنى على اعتبار أنّ كلمة (ٱلۡبَيۡتِ) من (أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ) وردت معرّفةً بأداة التّعريف العهديّة إشارة إلى أزواج النبيّ المعهودين بالخطاب في جميع هذه الآيات السالفة الذكر. ويعود التقدير (لِيذهب عنكم الرجس يا نساء أهل بيت النبوّة). وإنّ ما يؤكّد هذا المعنى الذي ذهبنا إليه هو أنّه تعالى أنهى هذه الفقرة بقوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾.

فما هو معنى قوله تعالى (وَيُطَهِّرَكُمۡ)؟ ورد في (محيط المحيط): طهَر وطهُر ضدّ نجس فهو طاهر. وطهَر الشيء معناه أبعده. وطهّره معناه جعله طاهراً. وتطهّر تنزّه عن الأدناس وكفّ عن الإثم. والطاهر هو مَن عصمه اللّه عن المخالفات. وطاهر الظاهر هو من عصمه اللّه عن المعاصي. وطاهر الباطن هو من عصمه اللّه عن الوساوس والهواجس والتعلّق بالأغيار. وطاهر السرّ من لا يذهل عن اللّه طرفة عين. وطاهر السرّ والعلانية من قام بتوفية حقوق الحق والخلق جميعا لسعيه برعاية الجانبين وكلّ ذلك من اصطلاحات الصوفيّة. وعليه فإنّ معنى ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ وتأييداً للمعنى الذي سبق لنا أن أوردناه فإنّ معناه أنّ اللّه تعالى يريد من وراء أوامره هذه أن يصل بكنّ يا نساء النبيّ إلى درجة العصمة عن ارتكاب ما يخالف أوامر اللّه تعالى فيعصمكم عن المخالفات لِتنلن عند اللّه تعالى مقامات روحيّة رفيعة لا تحصل عليها غيركنّ من النساء فأنتنّ في بيت النبوّة.

وبقي علينا أن ننبّه ذهن القارئ الكريم إلى نقطة مهمّة وهي أنّه على حين كان الخطاب الإلهيّ يرد مخاطباً أزواج النبيّ وبصيغة التأنيث فقد انقلب الحال في هذه الفقرة الأخيرة التي تضمّنت حيثيّات تلك الأوامر الإلهيّة وأصبح الخطاب بصيغة التّذكير. فما هي حكمة ذلك؟ فلو راجعنا رأي الفخر الرازي رحمه اللّه في هذا المجال نلاحظ أنّه انتبه إلى ما انتبهنا إليه وأجاب وقال:

(إنّ اللّه تعالى ترك خطاب المؤنّثات وخاطب بخطاب المذكّرين بقوله: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ ليُدخل فيه - أي في كلمة البيت معرّفاً بأداة التّعريف العهديّة - نساء أهل بيته ورجالهم).

قال هذا من دون تقديم أيّ دليلٍ يثبت به مصداقيّة ما ادّعاه.

والحقيقة هي أنّ اللّه عز وجلّ حين عرّف كلمة (ٱلۡبَيۡتِ) فقد أجمل من خلاله إلى جانب ذكر أزواج النبيّ ذكر نبيّه المصطفى ﷺ الذي انضمّت هذه الزوجات إلى بيته صلّى اللّه عليه وسلّم وأصبحت هذه المخاطبات من أزواجه. فحيثيّات جميع هذه الأوامر الإلهيّة الموجّهة إلى أزواج النبيّ قد وردت على الأخصّ لكون هذه الرئيسات يقطنّ في بيت النبوّة الذي يشمل كلّ بيتٍ من بيوتهنّ. وإنّ كلّ مخالفة من قبلِ إحداهنّ كانت تمسّ بمنزلة هذا النبيّ المصطفى ﷺ الذي أتمّ اللّه تعالى به مكارم الأخلاق. وعليه فقد تحوّلت صيغة الخطاب في حيثيّات هذه الأوامر الإلهيّة من صيغة المؤنّث إلى صيغة المذكّر لتشمل أزواج النبيّ وزوجهنّ النبيّ ﷺ نفسه الذي كان التّركيز على هذه الأوامر من أجله ﷺ

ومن أجل توسيع رقعة تبليغ دعوته السماويّة المكلّف بتبليغها. وبذلك أصبح الكلام هنا يشمله أيضا.

ولم يكتف اللّه عز وجلّ بتوجيه زوجات رسول اللّه هذا التوجيه الذي بيّناه من خلال مُعطيات الآيات الخمسة سالفة الذّكر. والذي أكّد فيه على ضرورة تمركز نساء النبيّ في بيوتهن كرئيسات ومحافظتهنّ على لباس الحشمة على الدّوام وابتعادهنّ عن المخالفات بجميع أنواعها لتكتمل أسوتهنّ الحسنة في نظر المؤمنين. بل وأضاف اللّه جلّ شأنه توجيهاً أخيرا يدفعهنّ من خلاله إلى تلقّي تعاليم الدين كاملةً وعلى صورة تفيدهنّ في الإقدام على كلّ ما هو صحيحٌ من تعاليم الدين وإلى تجنّب كلّ ما فيه مخالفة أوامر اللّه ورسوله تجنّباً لكلّ ما يمسّ بطهارة بيت النبوّة ولكلّ ما يبعد هؤلاء عن اللّه عز وجلّ وليصبح مركز (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) مرجع نساء المسلمين جميعهم فأضاف ذلك في آية سادسة قال اللّه تعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. ولنتدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

إنّ فعل الأمر (وَٱذْكُرْنَ) اشتقّ من ذكر الشيء معناه حفظه في ذهنه (محيط المحيط) وعليه فما هو الشيء الذي كان من واجب أزواج رسول اللّه ﷺ أن يحفظوه في أذهانهم بعد كلّ ما بيّناه والذي سيفيدهم كرئيسات لهذا التنظيم النسائيّ المشار إليه؟ فقال تعالى مجيباً على هذا السؤال: إنّ عليهنّ أن يحفظن عن ظهر قلب: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾. ففعل (مَا يُتْلَىٰ) اشتقّ من تلا

الكلام تلاوةً ومعناه قرأه. وقيل إنّ التلاوة مختصّة بالقرآن الكريم (محيط المحيط) وأيّد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك (مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ). وليصبح معنى هذا الشطر الأوّل من هذه الآية الكريمة أنّ اللّه عز وجلّ قد أمر أزواج النبي ﷺ أن يحاولن حفظ جميع ما يُنزله اللّه تعالى على رسوله الكريم من آي الذكر الحكيم في بيوتهنّ خاصّ. وليصبحن من خلال ذلك حافظات لكتاب اللّه العزيز وليفيدهنّ ذلك في واجب تدريس نساء المسلمين من تعاليم تضمّنتها آيات هذا القرآن المجيد. ولم يكتف اللّه تعالى بهذا الذي ذكرناه بل وأمرهن أن يحفظن أيضاً (وَٱلْحِكْمَةِ) فما هي دلالة هذه الكلمة (وَٱلْحِكْمَةِ)؟ فهذه الكلمة تذكّرنا بقوله اللّه تعالى في الآية الثانية من سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومن خلال هذه الآية الكريمة نُدرك حكمة الأمر الإلهيّ الموجّه إلى هذه الرئيسات أن يقرن في بيوتهنّ ليتزكّين بواسطة مجاورتهنّ هذا الرسول الكريم وليحفظن أكبر قدرٍ ممّا يتلوه عليهنّ من آيات اللّه وليتعلّمن منه ما ينبغي تعلّمه من تعاليم آيات الكتاب العزيز بالإضافة إلى تلقي (الحكمة) منه ﷺ. فما هي دلالة هذه الكلمة؟ إنّ من أسماء اللّه الحسنى أنّ اللّه تعالى هو (الحكيم) بمعنى صاحب الحجّة القطعيّة المسمّاة بالبرهان فالحكيم هو العالم بالحكمة المتقن للأمور. ولا يسمّى الرجل حكيماً حتى يجمع ما بين العلم والعمل (محيط المحيط). وعليه فقوله تعالى (وَٱلْحِكْمَةِ) قد قُصِدَ به أنّ على أزواج النبيّ ﷺ تعلّم ما يُعلّمهنّ

رسول اللّه من علوم تعاليم هذه الآيات التي يتلوها ﷺ عليهنّ بالإضافة إلى ضرورة إحاطتهنّ بتطبيق تلك التعاليم بصورة عمليّةٍ وهي الخطوة التي تدخل فيما نسميّه سُنّة رسول اللّه ﷺ. فالسنّة في حقيقتها هي الوجه التطبيقيّ لتعاليم القرآن المجيد.

وقد أنهى اللّه عز وجلّ هذه الآية الكريمة أيضا ببيان حيثيّات الأمر الإلهيّ الوارد فيها وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. وقد تضمّنت حذوفاً بلاغيّة لا تبدو دلالاتها الحقيقيّة إلاّ بعد معرفة هذه الحذوفات. ألا إنّ سباق الكلام يدلّنا على أنّ اللّه تعالى عندما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ فقد حذف مضاف قوله هذا والتقدير أن يقول: إنّ اللّه كان لطيفاً بكم أهل بيت النبوّة. والحذف الثاني تقديره أيضا أنّ اللّه كان خبيراً بكم أهل بيت النبوّة. هذا من باب أنّ صفة (لَطِيفًا) اشتقّت من قولك: لَطَف به ومعناه رفق به. ومن باب أنّ صفة (خَبِيرًا) اشتقّت من خبر بالشيء علم كُنهه وحقيقته. وخلاصة دلالة هذه الحيثيّة التي تضمّنتها هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة هي أنّ اللّه تعالى يعلّل لأزواج النبيّ ﷺ أمره السادس الأخير الذي وجّهه إليهم وهو أنّكم ما دمتم يا أزواج النبيّ قد أصبحتم رئيسات للمؤمنين وكانت مهمّتكم الأساسيّة هي القيام بتوعية نساء المسلمين بأمور دينهنّ فقد أوجبت عليكنّ أن تحفظن ما يُتلى في بيوتكنّ من آيات اللّه والحكمة ليساعدكنّ ذلك على أداء هذه المهمّة التي تشكّل جزء لا يتجزأً من مهمّة أداء رسولنا الكريم لرسالته. وأكون قد أثبتّ بذلك أنني أنا اللّه الذي بعث

محمّداً بالحقّ وقد أرفقت بكم وأنّني أحيط علماً بماهيّة ما تقومون به وحقائقها فأنتنّ ورسولنا الكريم يشكّل بيت النبوّة على هذا الطريق.

وعندما فرغ اللّه عز وجلّ من تشكيل كوادر هذا التنظيم النسائيّ الذي سمّيناه (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) وبهذا الأسلوب المعجز. فقد راح اللّه تعالى يُعالج الآثار المترتّبة على ذلك في المجتمع الإسلاميّ في ذاك الحين. ذلك أنّ ما توصّلنا إليه بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره هي المعاني التي كانت نساء المسلمين قد فهمنها في ذاك الحين لتواجدهنّ في البيئة العربيّة التي كانت تمثّل ذروة تقدّم هذه اللّغة العربيّة الشريفة. وكان من الطبيعيّ أن يترك هذا الامتياز الذي فازت به تلك الأرامل السابقات في الإيمان أثره في نفوس بقيّة نساء المسلمين اللّواتي كُنّ يتحسّرن على أنفسهنّ لعدم فوزهنّ بهذا الامتياز. فكيف عالج اللّه عز وجلّ هذه الآثار السلبيّة؟

وقد راعى اللّه جلّ شأنه هذه الآثار وراح يُطَمئن بقيّة نساء المسلمين بأنّ طريقهنّ مفتوحة لنيل نفس الامتياز الذي كتبه لأمّهات المؤمنين وتقربهنّ من ربّهنّ عز وجلّ إن هنّ اتّصفن بالصفات المطلوبة منهنّ. وقد راح اللّه تعالى يعدّد لنساء المسلمين تلك الصفات المطلوبة منهنّ رجالا ونساء وذلك في الآية **35** التي أتت بعد التي تدبّرناها مباشرة من سورة الأحزاب وقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

فمن خلال مُعطيات هذه الآية الكريمة يكون اللّه عز وجلّ قد لخّص تعاليم هذا الدين الإسلاميّ الحنيف والمطلوبة تلك التعاليم من كلّ مسلمٍ وكلّ مسلمة الإحاطة بأطرها ومضامينها ومحاولة العمل عليها بإخلاص والسعي من وراء ذلك للفوز بمحبّة اللّه وقربه ورضوانه ووفقاً لهذا الوعد الإلهيّ الذي أنهى تعالى به الآية سابقة الذكر التي قال فيها: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾. فبواسطة هذا الوعد الذي لم يفرّق تعالى من خلاله ما بين أزواج رسول اللّه ولا بين بقيّة المؤمنين يكون تعالى قد أزال كلّ أثرٍ سلبيٍّ ينتج عن تأسيس تلك المنظّمة النسائيّة التي أنشأها اللّه تعالى من بين الصحابيّات السابقات في الإيمان وبأسلوبٍ معجزٍ أيضاً.

وعلى هذه الصورة يكون القارئ الكريم قد أحاط علماً بمركز تلك المنظّمة النسائيّة التي كان قد أنشأها اللّه عز وجلّ في السنوات الأولى في المدينة المنورة تلك المنظّمة التي قادت نساء المسلمين حتّى زمن الخلافة الراشدة الرابعة. إذ سبق لي أن ذكرت بأنّ اللّه تعالى كان قد أمدّ في عمر أزواج رسول اللّه اللّواتي جعلهنّ رئيسات التنظيم النسائيّ واللواتي سمّاهنّ (**أمّهات المؤمنين**) فقد أمد أعمارهنّ إلى تلك الفترة من الزمان الذي ذكرناها أي إلى زمن الخلافة الرابعة. ويكون اللّه بذلك قد فعل ما شاء أن يفعله وعلى مستوى إعجاز ما بعده من إعجاز.

وإنّ الدليل الذي يؤكّد مصداقيّة جميع ما توصّلنا إليه هو أنّ اللّه عز وجلّ قد قال بعد كلّ الذي ذكرناه وبيّناه ومنوّهاً بهذه الحقيقة قال : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾. والمعنى أنّ ما أورده اللّه تعالى في الآيات سالفة الذكر يمثّل تقديراً قضى اللّه تعالى به ومن دون أن يكون لمؤمنٍ أو مؤمنة الخيرة في ذاك التّقدير الإلهيّ وقضائه. وإنّ كلّ من يخالف ما قضى اللّه تعالى به من تنظيمٍ فقد ضلّ ضلالا مبيناً أي ضلالاً ظاهراً لا لُبس فيه. وهكذا توضّحت المعاني الحقيقيّ لهذه الآيات الكريمة ابتداء من الآية 28 وحتى الآية 36 من سورة الأحزاب والتي لم يتدبّرها سلفنا الصالح رحمهم اللّه تعالى تدبّراً قائما على منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. بل فهموها فهماً سطحيّاً وبما تبادر منها لأذهانهم. مع أنّي أثبت في مؤلّفي (منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره) أنّ من أصول تفسير الآيات القرآنيّة أنّ المعنى المتبادر لذهن القارئ لا يكون هو المعنى الحقيقيّ المقصود منها. إلا آيات الأحكام فهي لا تحتمل ظاهراً وباطناً بل نصّاً صريحاً وواضحاً.

الباب الثالث

الفصل الأوّل:

من هنّ (أمّهات المؤمنين)؟

من المعلوم أنّ سورة الأحزاب قد أنزلها اللّه عز وجلّ في المدينة المنوّرة في السنوات الأولى من الدور المدنيّ. وهي السورة التي تضمّنت في الآية السادسة منها قول اللّه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾. فلقب (**أمّهات المؤمنين**) لم يعرفه المؤمنون في مكّة المكرّمة. وهذه الحقيقة تعني بألفاظ أخرى أنّ مكّة قد خلت من أيّ تنظيم نسائي. ولعلّ ذلك يرجع إلى قلّة عدد المؤمنين والمؤمنات في مكّة المكرّمة فقد كان رسول اللّه ﷺ يوجّه بنفسه المؤمنين والمؤمنات. أمّا في المدينة المنوّرة فقد قامت هناك حكومة وتعاظمت مسؤوليّات رسول اللّه ﷺ فشاء اللّه عز وجلّ إقامة التنظيم النسائيّ الذي سمّيته (**مؤسّسة**

الإرشاد النسائيّة) وقد جعل اللّه جل شأنه الأرامل السابقات في الإيمان واللواتي بذلن أعظم التضحيات في مكّة حفاظاً على دينهنّ ولتثبيت أركان الدين الإسلاميّ الذي أعتنقنه عن قناعة وإيمان صادق فقد أطلق اللّه عزّ وجلّ على تلك الصحابيّات الأرامل السابقات في الإيمان اسم (**أمّهات المؤمنين**) أي (**رئيساتهم**). أمّا لماذا لم يسمّهنّ الله عز وجلّ (**أمّهات المؤمنات**) لكونهنّ عُددن رئيسات لهنّ وبذلك تشمل هذه التسمية النساء خاصّة. فالجواب هو أنّ اللّه تعالى أورد هنا كلمة (المؤمنين) لتشمل الجنسين من المؤمنين. والحكمة في ذلك أن تصبح رئيسات هذا التنظيم النسائيّ لها صفة القداسة في نظر الجنسين وتكون مرجعاً للرجال في أوقات الاختلاف في أمور الدّين. والدليل على ذلك أنّ المؤمنين رجعوا إلى عائشة ﵂ يستفتونها في أمر مقتل عثمان ﵁ والمطالبة بدمه. هذا وبالإضافة إلى أنّ كلمة المؤمنين استعملت في القرآن الكريم في مواقع كثيرة تشمل الرجال والنساء المؤمنين وتأتي القرائن لتحدّد في الآية أحد الجنسين المخاطبين.

ومن المعلوم أنّ القرآن الكريم قد نزل منجّماً أي أنّ اللّه تعالى قد أنزل هذا القرآن المجيد آيات متفرّقة ليساعد ذلك المؤمنين والمؤمنات على حفظها. وبالإضافة إلى ذلك فهناك أسباب نزول لكلّ آية أو لكلّ مجموعة آيات أو لكلّ سورة. وما دام اصطلاح (**أمّهات المؤمنين**) قد نزل في سورة الأحزاب خاصّة التي كان اللّه عز وجلّ قد أنزلها في السنوات الأولى في المدينة المنوّرة ولم ينزل اللّه تعالى هذا الاصطلاح في أيّة سورة أنزلها في مكّة المكرّمة فمعنى ذلك أنّه لم يحدث أيّ

سببٍ كان في مكّة المكرّمة لإنزال أيّة سورة فيها تتضمّن اصطلاح (**أمّهات المؤمنين**).

وسبق لي أن كنت قلت إنّ مناسبة هذا الاصطلاح حدثت في السنوات الأولى في المدينة المنوّرة بمناسبة أنّ اللّه عز وجلّ قد قدّر إقامة (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) لكثرة من دخل من النساء في الإسلام ولتساعد هذه المؤسّسة رسول اللّه ﷺ في مهمّة أدائه لرسالة ربّه عز وجلّ. وسمّى اللّه تعالى رئيسات هذا التنظيم النسائيّ (**أمّهات المؤمنين**) بمعنى (**رئيساتهم**).

وقد سبق لي الكلام أيضاً عن أوّل رئيسة من أمّهات المؤمنين وهي سودة بنت زمعة رضي الله عنها التي كان اللّه تعالى قد بشّرها بهذا المنصب في منامها قبل أن تهاجر إلى المدينة المنوّرة مع أنّ زواجها كان قد حدث خلال السنة الأخيرة في مكة المكرّمة ومن ثمّ هيّأ اللّه جلّ شأنه أسباب تحقيق ما بشرها به ووفق ما سأقصّه على القارئ الكريم من سيرتها في حينه. وسأحاول أن أقصّ على القارئ الكريم قصصَ بقيّة النساء الأرامل اللّواتي جعلهنّ اللّه تعالى أزواجاً لنبيّه الكريم ﷺ ورئيسات للمؤمنين أولئك اللّواتي أعطاهنّ اللّه تعالى لقب (**أمّهات المؤمنين**).

أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما:

فلقد كنت ذكرت للقارئ الكريم كيف أنّ (خولة بنت حكيم) كانت قد زارت رسول اللّه ﷺ لتتفقّد أحواله ﷺ وألهمها اللّه عز وجلّ أن تسأل رسول اللّه ﷺ عن موضوع إهماله التفكير في الزواج وكيف أنّها عرضت

عليه اسمين هما (عائشة و سودة) ﵄ وكيف أنّ اللّه تعالى دفعه ليوافق على الزواج من (سودة) وهو يعرف أنّها بلغت سنّ اليأس وتربي خمسةً من أولادها بصبر وثبات وكيف أنّ اللّه ألهمه تلك الموافقة ليحقّق رؤيا الصحابيّة الأرملة (سودة بنت زمعة القرشيّة) تلك الرؤيا المبشّرة التي كان تعالى قد أراها إيّاها من قبل بعد وفاة زوجها في مكة المكرّمة.

وحدث أن انتشر خبر هذا كلّه وتناقلته ألسن المؤمنين والمؤمنات في تلك الأيّام. فوصل خبر ما اقترحته (خولة بنت حكيم) على رسول اللّه ﷺ إلى مسامع أمّ رومان بني عامر بن عويمر الكنانيّة الصحابيّ الجليلة زوجة أبي بكر الصديق ﵁ التي كانت من أوائل الصحابيّات المخلصات كزوجها أبو بكر الصدّيق والذي كان رفيق حياة محمّد بن عبد اللّه رسول اللّه ﷺ قبل أن يؤتى رسالة ربّه وبعدها أيضاً. فطارت أمّ رومان بذلك الخبر الذي بلغ أذنيها فرحاً واعتبرته فرصةً ذهبيّةً لتزداد هي وزوجها قرباً من محمّد رسول اللّه ﷺ. وقررت في نفسها أن تهب ابنتها عائشة الصغيرة التي كانت ما تزال في السابعة من عمرها زوجةً لرسول الله ﷺ ولتفوز بذلك بالنّسابة معه وليزول ما بينها وما بين عائلته كلّ نوعٍ من أنواعِ الحجب. وقد وجدتها فرصة مغامرة لتحقيق تلك الأمنية التي تمنّتها. خصوصاً وأنّ أمّ رومان كانت تعرف محمّدا رسول اللّه ﷺ عن قرب قبل النبوّة لصداقته لزوجها آنذاك. ثمّ إنّ سورة النساء لم تكن منزلةً يوم فكّرت أم رومان بهذا الأمر وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعاً في الجاهلية وحتّى بين المؤمنين، وما كانت النساء المؤمنات وغير المؤمنات تجد فيه أيّ حرج. لذلك رأينا أمّ رومان تخطّط لتحقيق تلك

الأمنية وبعد سماعها أنّ خولة بن حكيم عرضت اسم ابنتها على رسول الله ﷺ ومن دون تفويض. ولنرى ماذا فعلت أمّ رومان زوجة أبي بكر الصّديق رضي اللّه عنهما؟

ومن المعلوم أنّ رسول الله ﷺ كان قد هاجر بعد زواجه بسودة القرشيّة بسنتين إلى المدينة المنورة. وهاجر أبو بكر الصدّيق برفقته إليها. وبعد أن وصلا المدينة المنوّرة بنى أصحاب محمد رضوان اللّه عليهم لرسول اللّه ﷺ مسجدا من تراب وسقفه من سُعُف النخيل فكان أوّل مسجد بُني في الإسلام. وبنوا حوله داراً مؤلفة من عدة غرف من لبن وطين ومسقوفة أيضاً بسعُف النخيل. وبنى الصديق لنفسه بيتاً على شاكلته وقريباً منه. وكان رسول الله ﷺ يزور كبار المهاجرين في دورهم إشعاراً لهم من جانبه ﷺ بالأخوة في الدّين وتقاسم عناء الهجرة معهم في دار الهجرة.

وقد اغتنمت زوجة الصديق ذات مرة زيارة رسول اللّه لدارها حيث اجتمع حوله فيها رجال من الأنصار ونساء. فماذا فعلت أم رومان؟ أقول: لقد اغتنمت تلك الزيارة. فنادت ابنتها عائشة التي كانت تركب أرجوحةً وتلعب، فسّوت لها شعرها ومسحت لها وجهها وقادتها إلى حيث كان مجلس رسول الله ﷺ. فدخلت مجلسه، وحملت عائشة ووضعتها برفق في حجر رسول الله ﷺ، ورجته أمام جميع الحضور أن يتقبلها زوجة له، وهو الذي كان لم يعرف حتى تلك الأيام طعم الزواج من فتاة عذراء. بل وفضّل مواساة سودة القرشيّة على الزواج من عائشة الفتاة العذراء وعلى هذه الصورة تكون أمّ رومان زوجة الصدّيق قد

أحكمت خطّتها ونفّذتها وهي ترجو النسابة من الرسول الذي عرفته قبل الرسالة وبعدها وأعزّه اللّه تعالى وأيّده وجعله رئيس دولةٍ في المدينة التي هاجر إليها. فزوجة أبي بكر استغلت مكانة زوجها عند رسول الله ﷺ وخطت هذه الخطوة التي ذكرناها. فما كان من رسول الله ﷺ تجاه هذا الموقف إلاّ الصمت الذي دلّ على موافق رسول اللّه. لكنه ظلّ يؤجل الزواج إلى أن بلغت عائشة وبدأت تحيض. وبذلك يكون هذا الزواج الثالث قد سعى إلى محمد رسول الله ﷺ ولم يسع محمد إليه. أمّا (سودة القرشيّة) فلم تعترض على هذا الزواج بل رضيت به مختارةً، ونظرت إلى عائشة نظرة الأخوة في الدين ولم تعاملها كضرة قد دخلت في حياتها حتى أنّ مما أثر عن عائشة بعد موت سوده قولها بحقّها: { ما من امرأة أحبّ إليّ من أن أكون في مسلاخها) أي في مثل عاداتها وهديها وطريقتها، من سوده بنت زمعة ﵁. فجاءت هذه الشهادة من طرف عائشة تحمل كل الدلالة على مصداقية ما ذكرت.

ولقد أثبت الأيام أنّ زواج رسول الله ﷺ من عائشة كان مباركاً جداً حيث اجتمعت في شخصيتها التّربية الفاضلة التي ربّاها عليها أبو بكر الصّديق ﵁ كما اجتمعت في شخصيّتها العلم والتربية الرّوحية التي ربّاها عليها زوجها محمد رسول الله ﷺ نفسه حتّى باتت في السنوات الأخيرة من عمرها معلمة الرّجال والنساء ومرجعهم في شؤون دينهم كما هو معروف لدى الجميع. ولم يحدث أن طالبت عائشة رسول الله ﷺ بما تطالبه الفتيات من لباس وجهاز وغيره من الأشياء بل شاطرته الفقر والجوع وعاشت معه أحياناً على التمر والماء أياماً.

هذا ومع ذلك كله فقد حاول المنافقون في المدينة المنورة يسيئون سمعتها خصوصاً في حادثة الإفك المعروفة التي طهرها الوحي القرآني من شرورها من خلال ما نزل من آيات سورة النور يومئذ والتي ورد فيها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ ولا حاجة بي هنا للدخول في ذكر التفاصيل.

والمعلوم تاريخياً أن عائشة ﵂ عاشت حتّى السنة (57) الهجرية وعاينت الخلافات الأربعة الراشدة وحتّى زمن معاوية بن أبو سفيان ﵁ فلم يحدث بينها وبين ضرائرها من نساء رسول الله ﷺ أيّ نزاع ولا اختلاف له أهمية. الأمر الذي دلّ على سمو أخلاقها وعلو قدرها ومكانتها الروحية بينهم جميعهم أيضاً. فهذا هو حال هذا الزواج الثالث الذي فرض نفسه على رسول الله ﷺ والذي لم يسع هو إليه بحال من الأحوال كما هو ثابت تاريخياً. فالرسول ﷺ لم يخطب عائشة من أبيها بشكل من الأشكال ولا فكر بذلك لكن زوجة أبي بكر الصدّيق ﵁ هي التي خططت ما ذكرته من خطة وأفلحت في خطتها تلك وحظيت بنسا بتها وزوجها مع بيت رسول الله ﷺ. وهو الشرف الذي كانت المؤمنات يتسابقن ليحظين به من دون بقيّة المؤمنات. وكان ما حدث قدراً مقدورا من جانب اللّه تعالى.

ومن المعلوم أيضاً هو أن المهاجرين عانوا كثيراً في السنوات الأولى من هجرتهم إلى المدينة المنورة، عانوا من جهة صعوبة تأمين الرزق كما عانوا من كثرة المعارك التي اضطروا لخوضها مع المشركين الذين لاحقوا المهاجرين من صحابة رسول اللّه ﷺ حتّى المدينة المنورة بقصد القضاء عليهم. حتى أنّه سقط من جرّاء تلك المعارك أبطال مغاوير من الصحابة المهاجرين الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام. فصبرت عائشة رضي اللّه عنها مع زوجها رسول اللّه ﷺ على حالة الفقر التي مرّت بها وعلى التمر والماء فلم تتأفف يوماً في وجه رسول اللّه ﷺ ولم تُثقل عليه في طلباتها بل كانت تؤنسه وتصارع معه الحياة وتلتقط كلّ ما يعظها به رسول اللّه ﷺ التقاط الجائع للرغيف من يد مُحسنه.

وهنا ننظر إلى الأمور من منظار خواتيمها. فكلّ مسلم غير متحيّزٍ يشهد بأنّ زواج محمّد رسول اللّه ﷺ من عائشة بنت أبي بكرٍ الصدّيق كان مباركاً إلى درجة تفوق التصوّر والتأمّل فصغيرة مثلها يتزوّجها نبيٌّ عظيمٌ في كلّ شيء وهي ما تزال بُرعماً في أوّل نشأتها وكانت في بيت الصحابيّ الصدّيق فإنّ رعاية هذين العظيمين لها سيجعلها عظيمة حتماً لأنّ عظمة الشجرة وما تثمره يأتي من عظيم رعاية صاحبها إيّاها. وهذا هو السرّ الذي جعل عائشةَ ﵂ على مستوى من العلم والخلق والفضل والبلاغة إلى درجةٍ صارت معها مرجعاً دينيّاً مهمّاً في الفهم القرآنيّ والفقه وسنّة رسول اللّه ﷺ وسبقت قريناتها زوجات رسول اللّه في كلّ مضمار. ويكفيها فخراً أنّ المنافقين حين حاولوا إساءة سمعتها فيما سُمّي بحادثة الإفك فقد تصدّى اللّه عز وجلّ للدفاع عنها في الآيات

من سورة النور التي استهلها الله تعالى مُزكّياً عائشة الصدّيقة رضي الله عنها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾. وكيف يكون المحرّك الأصليّ لهذا الزواج هو اللّه الذي يعلم السرّ وأخفى وهو الذي صوّر عائشة في الأرحام ولتكون عضوة في رئاسات هذا التنظيم النسائيّ الذي أنشأه اللّه تعالى لدعم رسوله الكريم في أدائه لرسالة ربّه عز وجلّ ومن ثمّ يُخطئ في هذا الاصطفاء؟ فإن ثبتت عدم لياقة عائشة فقد وقع اللّوم على اللّه تعالى الذي ترك زوجة الصدّيق تُلقي بها في أحضان رسوله الكريم الذي ما سعى للزّواج بعائشة ولا بغيرها من أزواجه اللواتي أصبحن رئيسات (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي أنشأها اللّه عز وجلّ بنفسه وعلى حسب ما أثبتّ من قبل. ولكان ثبت أيضاً عدم صحّة ما وصف اللّه تعالى به نفسه من أنّه (فعّالٌ لما يريد) - أعاذنا اللّه من ذلك - .

أمّ المؤمنين صفيّة بنت حُيي رضي الله عنها:

الملاحظ أنّي رويت للقارئ الكريم قصّة زواج (عائشة بنت أبي بكر) برسول اللّه ﷺ لارتباطها بزواج (سودة بنت زمعة) التي كانت (خولة بنت حكيم) قد اقترحتهما ليتزوّج رسول اللّه ﷺ بإحداهنّ

في مكة المكرّمة وذلك بعد مدّةٍ من موت رفيقة حياته (خديجة بنت خويلد) ﵂. وأحاول الآن أن أقصّ على القارئ الكريم قصّة زواج (صفيّة بنت حيي) بدافع أنّ الآية 50 من سورة الأحزاب عندما عدّدت ما كان قد أحلّه اللّه عزّ وجلّ من زوجاتٍ لرسوله الكريم ليصبحن من (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم فإنّ الآية المذكورة استهلّت ذكرهنّ بذكر الزوجة التي كانت من مُلك يمينه ﷺ تلك الآية التي قال تعالى فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾. فالسؤال هنا: متى وكيف أفاء اللّه عز وجلّ على محمّد رسول اللّه ﷺ بصفيّة التي أصبحت من أعضاء (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) وأمّا للمؤمنين؟ وما دمنا قد لا حظنا من قبل أنّ اللّه تعالى كان يوحي للّواتي اصطفاهنّ يبشّرهنّ بهذا المنصب من وراء حجاب قبل تحقّقه بسنوات فهل أنّ اللّه عز وجلّ كان قد بشّر هذه الأمة (صفيّة بنت حيي) أيضاً قبل أن تصبح أمةً وزوجةً له ﷺ من خلال عالم الرؤيا الذي هو بنصّ القرآن الكريم وحيٌ من وراء حجاب لقوله تعالى في الآية 51 من سورة الشورى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾؟؟ فهذه أسئلة لابُدّ من الإجابة عليها عندما نقصّ قصّة زواج (صفيّة بنت حيي) من محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

وأبدا بالإجابة على السؤال الأخير. فمن المعلوم أنّ موسى عليه السلام أنبأ في سفر التثنية 18/ 18 عن أنّ أمّته ستنحرف عن الصراط ويعاقبها اللّه عز وجلّ بالتشرّد وببعث نبيٍّ مشرّعٍ تنتقل رسالة السماء إليه

وإلى أمّته ويأتي بشريعةٍ كاملة. فلمّا انحرفت أمّة موسى عليه السلام وتشرّدت أسباط بني إسرائيل في مختلف الأقطار فقد بدأ كلّ يهوديٍّ استيقظ إلى حقيقة ما حدث يتقصّى أخبار بعثة هذا النبيّ المشرّع الذي أنبأ موسى عن بعثته من بعده. ولمّا كانت الإشارات التوراتيّة تشير إلى أنّ هذا النبيّ المشرّع سيبعثه اللّه عز وجلّ من العرب وفي منطقة (فاران) وهي منطقة عربيّة في شبه جزيرة العرب فقد أخذ بعض اليهود المشرّدين يهاجرون إلى أرض العروبة فقطنوا حوا المدينة المنوّرة وبنوا هناك مساكن لهم سوّروها فجعلوها حصونا تحميهم من غزوات الذين حولهم من العرب. فلمّا بعث اللّه تعالى محمّداً بالحقّ كانت قد بُنيت قبل بعثته عليه السلام عدّة حصونٍ يهوديّةٍ حول المدينة المنوّرة وكانت تقطنها أعدادٌ كبيرةٌ من اليهود. وكان من جملة تلك الحصون حُصنٌ سمّوه (حصن القموص) وصاحبه (كنانة بن الرّبيع بن أبي الحقيق) وكان حصن القموص هذا من أمنع تلك الحصون التي كانوا يسمّونها حصون خيبر.

ومن المعلوم أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ وبعد أن أعلن رسالته السماويّة كذّبه وُجهاء قومه لكونهم كانوا يعبدون الأصنام فاستغرب أهل مكّة أن يدعوهم محمّد ﷺ إلى عبادة إله واحدٍ لا يرونه بأعينهم. وقد عمل اليهود الذين لم يتعرّفوا إلى صدق رسول اللّه ﷺ على تأجيج عداوة وجهاء مكّة المكرّمة ضدّ هذا الرسول الصادق الأمين. فلولا اليهود وما قاموا به من تأجيجٍ لصدور وجهاء مكّة بأساليب دنيئة لكان العرب قد تخلّصوا ممّا وقعوا فيه من حروبٍ بينهم وبين جماعة المؤمنين به ﷺ وهذه حقائق تاريخيّة تستحقّ أن يؤلّف فيها كتاب مستقلّ.

ولقد كان صاحب حصن (القموص) فارساً ماهراً وشاعراً أيضا وزوجاً لصفيّة بنت حيي التي نتكلّم عنها وكانت ذات حسب ونسب وكان أبوها من علماء الدّين اليهوديّ. وكان جمالها أخّاذا كما يروي المؤرّخون. ولقد روت لرسول اللّه ﷺ وعلى حسب رواية أنس بن مالك أنّها تزوّجت كنانة بن الربيع صاحب حصن القموص. ففي ليلة عُرسها التي دخل عليها كنانة بن الربيع رأت في منامها في تلك اللّيلة رؤيا تعجّبت منها. فهي رأت أنّ قمراً وقع في حجرها ولم تفهم منه شيئاً. فلمّا استيقظت قصّت على زوجها ما رأته في تلك اللّيلة في منامها فتعجّب من رؤياها تلك وقال لها والدك عالم مختص بعلوم الدّين اليهودي فحين نزوره أطلعيه على رؤياك.

وتروي (السيرة الحلبيّة) أنّ هذين العروسين حين قاما بزيارة والد صفيّة ذكرا له من جملة حديثهما معه ما رأته صفيّة ليلة زفافها. فأصغى والدها إلى ما قصّته عليه ابنته صفيّة من رؤياها وبسذاجة تامّة وهي مقبلة على والدها. وإذ بوالدها قد غضب غضباً شديداً واحمرّت أوداجه غضباً واتّهمها وهو يقول: أتنوين الزواج بملك عربيّ؟ وصفعها على وجهها صفعةً قويّة تركت على وجهها آثاراً وكأنها آثار جروح من شدّة الصفعة. فلماذا أوّل والد صفيّه للحاضرين التأويل الذي ذكرناه؟ أوّل سقوط القمر في حضن ابنته صفيّة بسبب أنّ القمر كان شعار العرب في ذاك التاريخ. وبدليل أنّ محمّداً ﷺ حين رأى انشقاق القمر استبشر بأنّ اللّه عز وجلّ يبشّره بأنّ قوّة قومه العرب ستضمحلّ ويكون له النصر عليهم عن قريب.

حدث هذا لصفيّة بنت حيي وهي كنت ما تـزال عروساً ولـم تكن تدري ما يخبئه لها الغيب ولم تكن تدر صفيّة ﷺ أنّ اللّه عز وجـلّ كـان قد قدّر في عالم غيبه أنه سيقضي على زوجها وعلى حصنـه الـذي كـان متحصّناً فيه وأنّها ستقع أسيرةً في أيدي المسلمين وتصبح عندهم أمةً من ملك اليمين وأنّ الأقدار ستجعلها ممّا أفاء اللّه جلّ شأنه على رسوله الكريم ليتزوّجها وتصبح عضوةً مؤسّسةً للتنظيم النسائي إكراما لما تحمله من عقل ومحاكمة شديدة وحسب ونسبٍ وصفات تليق بمنصب (**أمّ المؤمنين**). وليتحقّق بذلك تلك البشارة التي بشّرها سبحانه وتعالى في الرؤيا التي أراها إيّاها ليلة زفافها لكنانة بن الربيع.

وعلى هذه الصورة يتبيّن لك يا عزيزي القارئ ممّا قصصته عليك أنّ اللّه علاّم الغيوب هو الذي كان يختار نساءً عضوات ولو كنّ أرامل لتصبح زوجات رسوله الصادق الأمين وليشكّل منهنّ رئيسات تنظيمٍ نسائيٍّ يعين رسوله الكريم في موضوع أداء رسالة ربّه عز وجلّ وتحت سقف الزوجيّة ووفق مقتضيات تلك الأيّام. وإلاّ فلو كان محمّد شهوانيّ نساء لكان سعى للزواج بفتيات أبكاراً وليس بأمَةٍ يهوديّةٍ أرملة وبزوجات أرامل عرفهنّ الرجال من قبله. وبذلك أثبتّ لك يا عزيزي القارئ بأنّ اللّه تعالى أرى صفيّة بنت حيي اليهوديّة ليلة زفافها بشارة وعلى شاكلة ما كان أرى خديجة وسودة من قبلها رضي اللّه عليهنّ جميعا وكانت تلك البشارة السماويّة تبشّر صفيّة بأنّ زواجها من اليهودي كنانة بن الربيع موقّتٌ ولن يدوم وأنّها ستصبح في القريب العاجل زوجةً لسيّد المرسلين. أراها تلك الرؤيا المبشّرة على شاكلة ما

أرى خديجة من قبلها وسودة وغبرها ممّن حقّق اللّه تعالى ما بشّرهنّ فيما أراهنّ في منامهنّ من قبل وفيما أوحاه إليهنّ من وراء حجاب. فسبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على محمّد وآله إنّك حميد مجيد وبهذا أكون قد أجبت على السؤال الأخير.

وأجيب على السؤال الأوّل وهو : متى وكيف تمّ زواج صفيّة بنت حييّ اليهوديّة من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم؟ فأجيب على هذا السؤال وأقول لك يا عزيزي القارئ بأنّ اللّه عز وجلّ حين وصف اليهود بصفاتٍ غير حميدة فقد أورد تلك الصفات من واقع اليهود أنفسهم ومن خلال تصرّفاتهم فاللّه عز وجل قال في الآية **100** من سورة البقرة يوثّق تصرّفات اليهود قال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وإنّ المتتبّع لخطط اليهود زمن بعثة محمّد ﷺ يلاحظ كيف كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين على أوسع نطاقٍ وبشتّى الوسائل ممّا امتلأت به كتب التاريخ. وكان يهود خيبر المحيطون بالمدينة المنوّرة أكثرهم إيذاءً. وكان قربهم منها يساعدهم على استمرارهم في مؤامراتهم وفي وقوع معارك كانت تسفر عن ضحايا أيضاً.

وفكّر محمّد رسول اللّه ﷺ في أمر اليهود وفي هذا الخطر الذي كانوا يشكّلونه على دولته الإسلاميّة الناشئة فهداه اللّه عز وجلّ إلى إجلاء اليهود من هناك وتدمير جميع ما بنوه من حصون جزاءً على ما اقترفوه حتى تلك اللحظة من تحريض ومؤامرات ونقض للعهود. وما أن مرّ على صلح الحديبيّة خمسة أشهر حتّى زحف رسول اللّه ﷺ نحو

حصون خيبر على رأس ألف وستمائة صحابيّ يرافقهم مائة فارس وذلك في آب من عام 628 م. وكانت خيبر أشدّ تلك الحصون تحصيناً ولم يكن من السهل على هذا النفر القليل الذي كان برفقة رسول اللّه ﷺ القيام بفتحها. فهاجم رسول اللّه ﷺ ومن معه الحصون الصغيرة واحدةً واحدةً فتداعت أمامه واحدة إثر أخرى. وكان اليهود يهربون ويتجمّعون في حصن خيبر الأشدّ تحصيناً. وهنا أوحي إلى محمّد رسول اللّه ﷺ أنّ اللّه عز وجلّ قد قدّر أنّ فتح حصن خيبر مقدّر على أيدي عليّ بن أبي طالب ﷺ فدفعه هذا لِيُعلِن أنّه سيعهد بلواء الجيش الإسلاميّ والذي كان أسود اللّون إلى مَن أحبّه اللّه ورسوله والمؤمنون. فدعا عليّاً ﷺ في اليوم الثاني من تاريخ تلك الحملة العسكريّة وحمّله راية الجيش. فحملها عليٌّ ﷺ وقاد الجيش إلى حصن خيبر الذي اعتصم به أكثر اليهود. فهاجمه بكلّ قوّةٍ ولم تغرُب شمس ذاك اليوم حتى تمكّن عليّ ﷺ من فتح حصن خيبر. وأمام ذاك الواقع عرض اليهود الصلح على رسول اللّه ﷺ وعلى أن يجلو اليهود عن خيبر إلى مكانٍ قصيٍّ عنها رجالا ونساء وأطفالا. وعلى أن تعود أموالهم إلى المسلمين وأنّ كلّ يهوديّ يخفي شيئا من متاعه يتعرّض للعقاب.

وكان من جملة ما حدث في تلك الحرب مع يهود خيبر أن قُتل زوج صفيّة وسقط حصن القموص بين أيدي المسلمين وسيقت نساء حصن القموص سبايا للمسلمين وكان من بين تلك السبايا صفيّة بنت حيي زوجة كنانة رئيس القلعة. فلماّ وزّعوا السبايا على المحاربين جاءت صفيّة من حصّة بلال. فألهمه ربّه أنّ سيّده المصطفى أحقّ منه بصفيّة

هذه فتوجّه إلى المكان الذي كان يقف فيه رسول اللّه ﷺ وأهداه ما أفـاءه اللّه تعالى عليه وهو يقول : أنت أحقّ منّي بـهذه السبيّة يـا رسـول اللّـه . فتقبّلها منه رسول اللّه مبتسّما وأصبحت بذلك (صفيّة بنت حيي) ممّـا أفـاء اللّه تعالى على رسوله الكريم وفقاً لهذا الذي تضمّنته الآية **50** مـن سـورة الأحزاب التي ورد فيها قول اللّـه تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ .

ونجيب على الشطر الثاني من السـؤال الأوّل وهـو : كيـف تمّ زواج محمّد رسـول اللّـه ﷺ مـن صفيّـة بنـت حيـي؟ أقـول : بعـد أن استقرّت الأحوال بعد حرب خيبر التي كان يسكنها يهود مـن بنـي النّضير. دعـى رسول اللّه ﷺ صفيّة بنت حييّ ليخفّف عنها وقع وهول ما حدث وكيف انقلبت صفيّة من زوجة شاعر معروف ورئيس لقلعة القموص إلى سـبيّة بين أيدي المسلمين. وقد فعل رسول اللّه ﷺ هذا بدافع ما كان يتّصف به من كريم الشمائل ونُبل الأخلاق فلم يشأ أن يبيت في بيته من هو حزيـن مغموم ولو كان سبيّة من النســاء وكـانت تلـك المبـادرة منه ﷺ فـي ذروة الإحساس الإنسانيّ. فلمّا نظر إلى وجه صفيّة ﵂ وهو يُحادثـها لاحـظ علـى وجـهـها آثـار جـروح فتعجّـب واستفسـرها عـن السـبب. فدمعــت عيناها وراحت تروي له ما حدث لها مع والدها بسـبب رؤيـا رأتـها ليلـة زفافها. وراحت تقـصّ علـى رسـول اللّـه ﷺ رؤياهـا وكيـف أنّ والدهـا حين سمع منها رؤياها صفعـها صفعـةً قويّـةً أحدثـت علـى وجـهـها تلـك الآثار التي لاحظ وجودها رسول اللّـه ﷺ علـى وجـهـها. وفـهـم رسـول اللّه ﷺ من رؤيا صفيّـة ﵂ أنّ اللّـه عـلاّم الغيـوب قـد أطلـع صفيّـة علـى

غيبه الخالص من خلال هذه الرؤيا التي هي وحي من وراء حجاب وأنّه تعالى أنبأها من خلاله بأنّه سبحانه وتعالى قد اصطفاها لتصبح زوجة رسوله المصطفى ﷺ ولتنضمّ إلى من اصطفاهنّ ليصبحن (**أمّهات المؤمنين**) ورئيسات تنظيم نسائيّ لإعانة رسوله الكريم في أداء رسالة ربّه عز وجل. فبعد أن أحاط رسول اللّه ﷺ بهذا الذي فهمه من رؤيا صفيّة فهم السبب الذي دفع بلالاً ليؤثر سيّده المصطفى على نفسه ويقدّم له صفيّة بنت حيي وبإلهام خفيٍّ من جانب ربّه عز وجلّ. وبهذا الإلهام الخفيّ نقل اللّه تعالى صفيّة بنت حيي من يدٍ إلى يدٍ وأوصلها إلى يد رسوله الكريم ليحقّق ما شاء تحقيقه. وهنا توجّه رسول اللّه ﷺ إلى صفيّة وقال لها: (هل لكِ فيّ يا صفيّة)؟ فسارعت صفيّة رضي الله عنها قائلةً: يا رسول اللّه قد كنت أتمنّى ذلك وأنا بين أعدائك وهل أرفض الآن وقد جعلني اللّه عز وجلّ سبيّة بين يديك؟ سمع رسول اللّه ﷺ منها تلك الكلمات التي كشفت عن صحّة ما رأته في منامها ليلة زفافها من كنانة بن الربيع. فأعلن بين صحابته إعتاقه صفيّة هذه التي أفاء اللّه تعالى بها عليه وبذلك استعادت صفيّة رضي الله عنها حرّيتها وبلغت بذلك سعادتها ذروتها وأنساها ذلك ما ألمّ بها من مُصاب نتيجة حرب خيبر. وكان ذلك كلّه ثمرة هذا الإحساس الإنسانيّ الذي تأتّى عن خصال وصفات محمّد رسول اللّه ﷺ الذي جعله اللّه جلّ شأنه (رحمةً للعالمين).

وانتظر رسول اللّه ﷺ فترة أيّام حتّى تعرّفت صفيّة على الدورّ الإيمانيّ الذي ولّدته تعاليم الدين الإسلاميّ الحنيف في المدينة المنوّرة واطمأنّت إليه صفيّة رضي الله عنها وهدأت نفسها ممّا ألمّ بها بفقدان أهلها نتيجة

لتلك الحرب مع يهود خيبر وأدركت إطار البشارة التي كان اللّه تعالى قد بشّرها بها وبذلك أيقنت أنّ أمامها دوراً ستلعبه لتثبيت أركان الإسلام أيضاً. وهنا حمل رسول اللّه ﷺ وراءه صفيّة بنت حيي وانطلق وجيشه عائدين إلى المدينة المنوّرة ظافرين وغانمين. وبعد أيّام من وصولهم هناك تزوّج محمّد رسول اللّه ﷺ بصفيّة بنت حيي نزولا عند إرادة ربّه عز وجلّ الذي خطط لهذا الزواج وحقق ما خطّط من أجله. فقامت الأفراح في المدينة المنوّرة احتفالا بهذا الزواج وأقيمت وليمة بمناسبته أكل منها من اشتركوا فيها داعين اللّه تعالى أن يحقّق ما شاء تحقيقه بذاك الزواج.

وقد حدث حادث يستحقّ الذكر قبل وصول محمّد وجيشه إلى المدينة المنوّرة أرى أن أحدثّ القارئ الكريم عنه. ففي الطريق إلى المدينة المنوّرة جلس رسول اللّه ﷺ ورجال جيشه يستريحون وضربوا قُبّةً ليستلقي فيها رسولهم المصطفى ﷺ بعض الوقت. وهنا وقف أحد الصحابة من أنصار المدينة وهو (أبو أيّوب خالد بن زيد) ساهراً خارج القبّة على راحة رسول اللّه ﷺ شاهراً سيفه متيقّظا حذراً وعيناه ترقبان كلّ حركة تصدر عن خيمته ﷺ وكلّ ما يجري حولها. ظلّ يقوم بذلك ساعات ومن دون أن يعلم بفعله هذا رسول اللّه ﷺ نفسه. وسمع رسول اللّه ﷺ حركةً خارج خيمته فأسرع وخرج خارجها يستطلع ما يجري حولها. فلاحظ وجود (أبا أيّوب) ؓ فتوجّه نحوه وسأله عن سبب وجوده قريباً من خيمته قائلا له (مالكَ يا أبا أيّوب؟). وهنا تأدّب هذا بحضور رسوله المصطفى ﷺ وأسرع وقال: إنّ في خيمتك يهوديّة

سبيّة وأنا أعلم ما انطبع اليهود عليه من غدر وإنّ جيشك يا رسول اللّه قد قتل أباها وزوجها وكثيرا من قومها فهي بذلك موتورة وحديثة عهد بالكفر فخفت أن تفكّر في الانتقام منك لذلك سهرت حول الخيمة وأنا أترقّب ما تقوم به من حركات. فكان لوقع هذا في نفس محمّد ﷺ وقعاً عظيماً وشكر ربّه عز وجلّ على ما أنعمه عليه من أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين. ووجّه خطابه نحو هذا المؤمن المخلص وقال يدعو له: (رحمك اللّه يا أبا أيّوب اللهمّ احفظ أبا أيّوب كما بات يحفظني). لكنّ أبا أيّوب ما كان يدري بالرؤيا المبشّرة التي كانت صفيّة قد رأتها ليلة زفافها ولا بتأويلها الذي أوّل به رسول اللّه ﷺ تلك البشارة.

فهذه يا عزيزي القارئ قصّة (صفيّة بنت حيي) التي جعلها اللّه جلّ شأنه عضوة من بين عضوات (**أمّهات المؤمنين**) الذين قادوا (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي أقامها اللّه عز وجلّ بأسلوب معجزٍ وخلافاً للمتواضع عليه بين الناس دعماً لمساعي رسوله الأمين وهو يؤدّي رسالة ربّه عز وجلّ. فثبت أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ لم يتزوّج بصفيّة اليهوديّة الأصل إعجابا بجمالها ولا بدافعٍ من شهوة النساء بل كان ذاك الزواج بتخطيط من ربّ العالمين نفسه فسبحان الذي بيده مقادير كلّ شيء وإليه تصير الأمور.

أمّ المؤمنين حفصة ابنة عمر بن الخطّاب ﵂:

وكان من (**أمّهات المؤمنين**) حفصة بنت عمر بن الخطاب الذي أصبح الخليفة الثاني لرسول اللّه ﷺ. فهل حدث زواجها من رسول

اللّه ﷺ من باب الصدفة أم حدث باصطفاءٍ خاصٍّ من جانب اللّه تعالى ولأداء مهمّاتٍ خاصّة دينيّةٍ تخصّ الرسالة السماويّة ولإعانته ﷺ على أدائها؟ فهذا سؤالٌ عريضٌ ينبغي الإجابة عليه إجابةً تثبت أنّ زواج حفصة رضي الله عنها لم يكن من باب الصدف وإنّما بتقدير خاصّ من جانب اللّه الذي بعث محمّداً بالحقّ.

وأقصّ أولا على القارئ الكريم شيئاً من تاريخ حفصة رضي الله عنها وهي ابنة الرجل الذي كان قبل إسلامه يخاف المؤمنون من بطشه ومن مواقف تكذيبه لرسولهم العظيم ﷺ وهو ممّن دعا محمّد رسول اللّه ﷺ ربّه مرّة وقال (اللهمّ أعزّ الإسلام بأحد العمرين) إشارة إلى عمر بن الخطّاب وإلى عمرو بن ودّ العامري اللّذين اشتهرا بجرأتهما من بين أهل مكّة المكرّمة. ومن هذا بالإمكان أن نتصوّر عظمة شخصيّة حفصة بالوراثة لكونها ابنة هذا الرجل العظيم الذي أسلم وأسلمت معه ابنته وكانا من السابقين في الإيمان والمقرّبين من اللّه عز وجلّ.

والسؤال الآن: ما مناسبة زواج محمّد رسول اللّه ﷺ بالأرملة حفصة بنت عمر بن الخطّاب وما هي معالم تدخّل اللّه عز وجل في موضوع هذا الزواج؟ علماً بأنني سأستقي الإجابة ممّا وصلنا من تراث ومن زاوية النظر التي ألّفت منها هذا الكتاب.

فمن المعلوم أنّ من أهل مكّة المكرّمة مَن اقتنع بما أعلنه محمّد بن عبد اللّه من إعلانٍ حول نبوّته وأنّ اللّه تعالى قد بعثه رسولاً إلى الناس كافة. وقد وصلوا إلى تلك القناعة الإيمانيّة لمعرفتهم بماضي محمّد من جهة وأنّه اشتهر بالصادق الأمين فلم يتصوّروا أن ينقلب محمّد الصادق

الأمين بين عشيّةٍ وضحاها إلى رجلٍ مفترٍ كاذب. ومن جهةٍ أخرى فقد لاحظوا بأنّ عقيدة توحيد اللّه شيء مقنعٌ على حين يعلمون جيّداً بأنّ الأصنام المصفوفة في حرم مكّة منحوتة بأيدي بشريّة ولا يتكلّمون ولا يسمعون ولا يفيدون شيئاً. فنفوس المؤمنين الأوائل كانت صافيةً وغير مرتبطين بأربطةٍ أرضيّة تشدّهم إليها كروابط التجارة وغيرها التي كانت مستحكمةً في نفوس من كانوا من وجهاء مكّة إلاّ ما شاء اللّه تعالى كعثمان بن عفّان وأبو بكرٍ رضي اللّه عنهما. وكان ممّن أسلم من أوائل من أسلموا حفصة بنت عمر بن الخطاب وزوجها (خُنيس بن حذافة بن قيس السهميّ القرشيّ). فلمّا اشتد اضطهاد أبو جهلٍ وزبانيّته ضدّ الذين أسلموا وبتحريض من اليهود خاصّة وسمح رسول اللّه ﷺ للضعفاء أن يهاجروا إلى الحبشة فقد هاجرت حفصة وزوجها إلى هناك وبقوا في الحبشة فترة من الزمان ثمّ رجعوا إلى مكّة ومن ثمّ هاجروا إلى المدينة المنوّرة من جملة من هاجروا إليه وذلك بعد هجرة محمّد ﷺ إليها برفقة أبو بكر الصدّيق. وهناك في المدينة المنوّرة ازدادوا إيمانا ويقيناً بوجود اللّه الذي لا إله إلاّ هو الذي أيّد نبيّه وأقام له دولة. فعاد كلّ مهاجر يفتدي الإسلام بكلّ قلبه وجوارحه ويطلب الشهادة في سبيل اللّه جلّ شأنه.

فلمّا وقعت معركة بدر الكبرى كان الصحابيّ الجليل (خنيس القرشيّ) في مقدّمة من قاتل مع محمّد رسول اللّه ﷺ وعُدّ من البدريّين نسبة إلى معركة بدر. ثمّ إنّه عندما خاض محمّد رسول اللّه ﷺ معركة (أحُد) فقد كان الصحابي (خنيس القرشيّ) يقاتل في صفوف المؤمنين

مع من قاتل مع محمّد رسول اللّه ﷺ. وقد حدث أن جُرح هذا الصحابي الفارس (خنيس) في تلك المعركة جرحاً بليغا. فلمّ رجع محمّد رسول اللّه ﷺ مع الذين قاتلوا معه إلى المدينة المنوّرة رجع معهم الصحابي (خنيس) وهو جريح. ومكث بعد ذلك في داره يعالج جرحه الذي كان يستفحل أمره فانتهى به الأمر إلى أن توفّاه ربّه وجعله من المقرّبين إليه لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وبوفاته أصبحت زوجته (حفصة بنت عمر بن الخطّاب) أرملةً مع أنّها كانت في عزّ صباها ولم تكن قد أنجبت من زوجها الصحابي الجليل (خنيس القرشيّ) الذي توفّاه اللّه تعالى أيّ ولد.

وهنا ينبغي على القارئ الكريم أن يلاحظ تدخّل العناية الإلهيّة وما قدّرته وما قضت به. فلقد خطر لوالد حفصة التي أصبحت أرملةً وهي حافظة للقرآن المجيد ومن السابقات في الإيمان أقول خطر لوالدها عمر بن الخطاب ألاّ يترك ابنته مغمومةً مُصابة حزينة. ولكن كيف يعالج تلك المسألة؟ دفعه ذلك ليعرضها على أحبّ رجلٍ لرسول اللّه ﷺ وهو أبو بكر الصديق لعلّه يتزوّجها ويضمّها إلى بيته وتبقى بذلك مكرّمةً معزّزة ولا تعود تشعر بمصابها. ولم يكن الصحابي الجليل عمر بن الخطّاب يدري ماذا خبّأ القدر لابنته في عالم الغيب. فهو اندفع بعواطفه ولم يندفع عن استخارة ربّه عز وجلّ في هذا الموضوع. وذهب ابن الخطّاب من فوره إلى بيت أبو بكر الصدّيق ﷺ فلاحظه الصديق مغتمّاً فسأله عن سبب اغتمامه ووجدها فرصة ليفصح له عمّا في صدره فراح يذكر ابنته حفصة وكيف أنّها ترمّلت وهي في سنّها

المبكّرة ووصف له حالها وكيف لا تتحرّك إلاّ ويبدو الحزن في وجهها وعلى تصرّفاتها. وأضاف يقول للصدّيق ﵁: وإنني أعاني يا أخي من هذه الحالة ضيقاً شديداً ولا أعرف كيف أتخلّص منه. وهنا تذكّر الصحابي عمر قول ربّه عزّ وجلّ: ﴿وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ فتجرّأ على مصارحة أخيه الصدّيق بما جاء به لزيارته ولكنّه نظر في الوقت نفسه إلى وجه الصدّيق ليلاحظ ما ارتسم عليه من معالم فلاحظ أنّه ﵁ كان ينظر إليه نظرة عطف ومواساة وألمٍ أيضاً. وهنا توجّه الصحابيّ عمر بن الخطّاب ليصرّح بما في قلبه وقال: جئتك يا أخي لكي تشاطرني في مصابي. فسأله الصدّيق ﵁ وقال له: ما هي الوسيلة التي تمكّنني من أداء هذه الخدمة لأخٍ لي في اللّه عزيزٍ وأحبّه؟ فأمسك بركبتي الصدّيق ضارعاً: خذها يا أخي زوجةً لك وخادمة في بيتك. وإذ بأبي بكر الصديق ﵁ عنه ينتقل وضعه من اللّهفة إلى الهدوء والصمت فهو تذكّر ما أسرّه إليه رسول اللّه ﷺ بعد موت الصحابيّ الجليل (خنيس القرشي) زوج حفصة ﵂ وفوجئ الصحابيّ عمر بن الخطّاب بموقف أخيه الصدّيق ﵁ الذي لم يراعي عواطفه ولا تضرّعاته وكان ذاك الموقف مفاجئاً له وصدمه وهو الذي كان يظنّ بأنّ مشكلته ستحلّ في بيت أخيه الذي يحترمه ويثق بأنّه لن يخيّب طلبه. فصُدم ابن الخطّاب ﵁ بموقف الصدّيق ﵁. فتوقّف عن الرجاء والكلام وقام من عند الصدّيق مكسور الجناح فودّعه الصدّيق إلى الباب صامتاً أيضاً والدموع تلاحق أخيه ابن الخطّاب وكاد أن يفشي ما سرّه إليه رسول اللّه ﷺ بهذا الشأن.

غادر عمر بن الخطّاب بيت أخيه الصدّيق وهو في حالة كانت تصارعه عاطفته نحو ابنته ومن جهة أخرى فقد خشي أن يفشي الصدّيق ما جرى بينهما ويقطع عليه الطريق. فسارع من فوره إلى بيت أخيه عثمان بن عفّان ﷺ ليعرض عليه ما عرضه على أخيه الصدّيق ﷺ والذي لم يجب طلبه بنعم ولا بلا. خصوصا وأنّ عمر بن الخطاب ﷺ تذكّر في تلك اللّحظات أنّ عثمان بن عفّان ﷺ بقي بدون زوجة فقد توفّيت زوجته الصحابية الفاضلة (رقيّة) بنت محمّد رسول اللّه ﷺ وذلك قبل أيّام. فقد تصوّر عمر ﷺ أنّ أخاه عثمان ﷺ سيجد في عرضه فرجاً له. فوصل دار عثمان وزاره وفعل ما فعله بين أيدي الصدّيق ﷺ. فواساه عثمان بن عفّان ﷺ وهو يقول وكأننا أُصبنا يا أخي عمر يا ابن الخطّاب بنفس المصاب فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. وأنا لا أردّ لك طلباً ولكن عليك أن تمهلني أيّاما لأتّخذ قراري النهائي.
ومرّت عدّة أيّام على عمر تتصارعه الأفكار وكان كلّما زار ابنته حفصة ازدادت عواطفه من أجل التخفيف عنها تأجّجاً. وعاد يدقّ باب أخيه الصحابي الجليل عثمان بن عفّان زائراً فاجتمع به وهو يتلهّف إلى ما اتّخذه من قرار في هذا الشأن. وكان الرسول ﷺ في أيّام المهلة تلك قد أسرّ إلى عثمان ﷺ ما كان قد أسرّه إلى أبي بكر الصديق ﷺ من قبل.
وكان عثمان بن عفّان مشهوراً بين الصحابة بكثرة حيائه. وقد وضعه عمر بن الخطاب وما أسرّه الرسول إليه في حرجٍ وموقف حياء قلّما واجهه. فأمسك بكتف عمر ﷺ والدموع تذرف من عينيه وهو يقول: إني خجلٌ منك يا أخي عندما أبلّغك بأني قرّرت ألا أتزوّج في هذه

الأيّام. وكان لهذا الموقف وقع الصاعقة على ابن الخطّاب ﷺ فازداد همّا وغمّاً ولم يعد أمامه إلاّ أن يقصد النبيّ ﷺ يُصارحه فيما جرى ويجري معه ليطلب دعاءه ولعلّ اللّه عز وجلّ يُحدث على يديه فرجاً ممّا كان هذا الصحابيّ الجليل عمر بن الخطّاب لا يدري علاجه.

فلمّا حضر ابن الخطّاب ﷺ عند محمّدٍ رسول اللّه ﷺ وتوسّع في شرح ما جرى لابنته الصحابيّة والحافظة للقرآن الكريم وكيف أنّها أصبحت أرملةً حزينة ويزداد هو حزناً عليها كلّما دخل منزلها ولا حظ ما هي عليه. وقصّ عليه موقف أبو بكر الصدّيق وموقف عثمان ابن عفّان رضي اللّه عنهما منه بعد أن عرض عليهما الزواج وطلب من رسول اللّه ﷺ أن يدعو له لعلّ اللّه يحدث له مخرجاً ممّا يتألّم هو وابنته حفصة منه. حدث ما فاجأ به محمّد رسول اللّه ﷺ عمراً بن الخطاب فماذا حدث؟

الذي حدث خلاف ما كان ابن الخطّاب ﷺ يتوقّعه. فهو كان يتوقّع من رسول اللّه ﷺ أن يتعاطف معه رسول اللّه ويواسيه وأن يرفع أيديه بالدعاء من اللّه تعالى ويدعو له. لكنّ الذي حدث وخلاف ما توقّعه هو أنّ شفتي رسول اللّه ﷺ ظهر عليهما علائم الابتسام وفتح ﷺ ثغره ليقول لعمر ما يفسّر له مواقف أبا بكرٍ وعثمان وقال (يتزوّج حفصةَ مّن هو خيرٌ من عثمان ويتزوّج عثمان مَن هي خيرٌ من حفصة). ووقع في فؤاد عمر أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ كان يتنبّأ عمّا سيحدث وما درى أنّ رسول اللّه ﷺ كان يحدّث عمر ابن الخطّاب عمّا كان قد أطلعه اللّه تعالى عليه من قبل بشأن حفصة واختياره تعالى إيّاها لتنضمّ إلى

مجموعة (**أمّهات المؤمنين**) وأنّه كان قد أخبر بذلك أبا بكر الصديق ﷺ ولذلك وقف أبو بكرٍ من عمر الموقف الذي تكلمنا عنه .

وقف عمر بن الخطّاب يفكّر فيمن سيكون خيراً من عثمان بن عفّان زوجاً لابنته حفصة ﷺ . وفجأةً عرف مغزى كلام الرسول الكريم ﷺ وهو أنّه ﷺ كان يقصد نفسه وبناءً على بشارة من ربّه عز وجلّ . فإنّ اللّه عز وجلّ قد اصطفى هذه الأرملة التي كانت من السابقات في الإيمان ومن المهاجرات إلى الحبشة ومن الصابرات الحافظات لكتاب اللّه العزيز وهي الفتاة التي شاء اللّه عز وجلّ أن يقدّر على أيديها عملا عظيماً في المقبل من الأيّام .

وما إن فهم عمر بن الخطّاب مغزى ما سمعه من رسول اللّه ﷺ من كلمات حتّى طار فرحاً فقد فاز بالنسابة إلى رسول اللّه ﷺ وهو شرف له قيمته المعنويّة فزال ما بعمر بن الخطاب من غمّ وألم جاء يبثّه إلى رسول اللّه ﷺ وأبدى كلّ وموافقة وخضوع بين يدي سيده المصطفى واستأذن وانطلق إلى ابنته الحزينة يزفّ إليها هذه البشرى . وفي طريقه إليها صادف أبا بكر الصدّيق ﷺ وهو في تلك الحالة من البهجة والسرور فأدرك بحدسه أنّ رسول اللّه ﷺ قد أطلعه على الشيء الذي كان قد أسرّه لصديقه الصدّيق . فاعترض عمراً ﷺ وقال له : (لا تجدْ عليّ ياعمر فإنّ رسول اللّه ﷺ ذكر حفصة فلم أكُن لأفشي سرّ رسول اللّه ﷺ ولو تركها لتزوّجتُها) . وهنا تجلّت حقيقة الموقفين اللذين كانا قد وقفا منه ولم يكونا قاصدين إهانته أو التعالي عليه ولا عدم مشاطرته آلامه . فازداد لهما احتراما وازداد لهما محبّةً وتعظيماً . وأدرك أنّ اللّه عز وجلّ

مرّره بابتلاء بقصد امتحانه فاستغفر ربّه كثيراً واستخلص من ذاك الدرس عبرةً وقيمة السبق في الإيمان.

فعلى هذه الصورة وعلى شاكلة ما فعله محمد رسول الله ﷺ لإعزاز صحابيّة الذي كان زوجاً لسوده وبدافع من أمر ربّه عز وجلّ فقد أقدم على هذا الزواج من هذه الأرملة حفصه ليلأم الجراح التي خلّفها موت زوجها الصحابي المخلص الجليل (خنيس القرشيّ) الذي كان قد خاض معه معركتي بدر الكبرى وأحداً ذبّاً عن حياض الإسلام ونصرةً للإسلام وللرسول الكريم ﷺ وكان هذا الزواج بتوجيه من اللّه تعالى لرسوله الكريم ليفعل ما فعل. فقد أحلّ اللّه جلّ شأنه هذا الزواج من أجل أن يجمع اللّه تعالى العدد المطلوب من رئيسات التنظيم الإلهيّ الذي شاء إقامته لدعم نبيّه المصطفى ﷺ في موضوع أدائه لرسالته وبعد أن عظمت مسؤوليّاته وأصبح حاكماً. فالمشيئة السماويّة كانت وراء الزواج من الأرملة حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ ولم يسع محمّد رسول اللّه ﷺ إلى هذا الزواج بدافعٍ شهوانيّ. فقد كانت عائشة تكفيه، لو كان خيّر فيما آل إليه حاله وهو الذي وردنا قوله ﷺ بحقّها : خذوا نصف دينكم عن هذه ويقصد عائشة نفسها خصوصاً وأنه كان قد ترك جميع ما يملكه في مكة المكرمة حين هاجر منها إلى المدينة المنورة وما عاد يملك ما يقدّمه لعائشة وعاشت عائشة ﷺ مع رسول اللّه ﷺ على الكفاف.

ومرّت الأيام وانتقل رسول اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولّى أبو بكر الصدّيق من بعده الخلافة. فما كان من أبي بكرٍ ﷺ وبسبب معرفته بمنزلة أمّ المؤمنين (حفصة بنت عمر بن الخطّاب) ﷺ خصوصا وأنّها

كانت ممّن حفظ القرآن الكريم كلّه ما كان منه إلا أن طلب منها الصدّيق ﷺ أن تُجمع جميع رقائق القرآن الكريم في منزلها وأن تكون هي المؤتمنة عليها. وقد حافظت أم المؤمنين حفصة على تلك الرقائق التي دُوّن القرآن الشريف عليها إلى أن أتى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان ﷺ الذي أشار عليه بعض قادة جيش المسلمين الذين لاحظوا أنّ الأعاجم المسلمين أخذوا يلحنون في قراءتهم لآيات القرآن الكريم أشاروا على الخليفة عثمان ﷺ أن يدوّن ما على الرقائق على شكل كتاب. فلمّا أقرّ الخليفة عثمان رأيهم فقد أرسل وراء أمّ المؤمنين حفصة ﷺ وطلب منها رقائق القرآن المجيد المجموعة عندها. فسلّمته تلك الوديعة الأمانة مصونةً سالمة وشهد على ذلك عدد كبير من حُفّاظ القرآن العظيم. وقد أثبتت عظمة شخصية الصحابيّة الحافظة للقرآن أمّ المؤمنين حفصه التي حافظت على رقائق الأحجار والعظام التي كان قد دونها كتبة الوحي القرآني في حياة محمد رسول الله ﷺ نفسه وكانت من الصالحات القانتات بين أمهات المؤمنين ولقد أمد الله تعالى في عمرها فشهدت خلافتي أبا بكر وعمر وعثمان بن عفّان ﷺ والفتوحات الإسلامية التي تحققت في عهدي خلافتهما. ولقد سلّمت الخليفة الثالث عثمان بن عفان ما عندها من رقائق القرآن حين قررّ تدوين تلك الرقائق على شكل كتاب وبحضور جميع حفّاظ القرآن وبنفس ترتيب تلاوته الذي حفّظهم إياها رسولهم الكريم. وهكذا أكون قد أطلعت القارئ الكريم على كيف ومتى تمّ زواج محمّدٍ رسول اللّه ﷺ بالزوجة الرابعة حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ ليس بسعيٍ من جانبه ﷺ إلى

الزواج بها ولكن باصطفاء وتحلّة من جانب اللّه علاّم الغيوب الفعّال لما يريد. الأمر الذي يثبت بأنّ محمّدا رسول اللّه ﷺ لم يكن شهواني نساء ولكنّ اللّه عز وجلّ قدّر جمع تلك الأرامل في داره ﷺ ليصبحن (أمّهات) أي (**رئيسات**) للمؤمنين وطلائع تنظيم نسائيّ.

وتوفيت حفصه رضي الله عنها سنة سبع وأربعين للهجرة في عهد معاوية بن أبي سفيان. لذلك أنتقل للكلام عن أقدار المشيئة الإلهيّة التي دفعت محمداً رسول الله ﷺ للزواج من زوجة خامسة أتت بها الأقدار إلى بيت النبوة ولتصبح أماً للمؤمنين على شاكلة اللواتي سبقنها وتقلّدن هذا المنصب المشرّف على حين أنّ والدها كان زعيم قبيلة عربية كانت تعبد الأصنام وكان متعصّباً لعبادة الأصنام إلى درجة دفعته ليشارك بصورة عملية في عمليّة محاربة المشركين محمداً رسول اللّه ﷺ واستعداء الإسلام. فمن كانت تلك الزوجة الخامسة؟وما هو اسم قبيلتها؟ومن كان والدها؟

أمّ المؤمنين جويريّة بنت الحارث سيّد بني المصطلق رضي الله عنها :

هذه الزوجة الخامسة كان اسمها في دار أبيها (برّه) بنت الحارث بن أبي ضرار زعيم قبيلة بنو المصطلق التي كانت أحد بطون خزاعة. فلقد حدث وبعد أن تشتت شمل الأحزاب الذين تزعمتهم قريش والذين كانوا قد هاجموا المدينة المنوّرة وفوجئوا بخندق محفور حولها وحدث ما حدث ورجعوا إلى ديارهم خائبين. فقد نزل في تلك الأيّام قحطٌ

شديدٌ في مكّة المكرّمة وما حولها فجمع محمّدٌ رسول اللّه ﷺ من هنا وهناك مبلغاً من المال وأرسل بالمبلغ إلى مكّة المكرّمة كتبرّعٍ لفقرائها ليشعر زعماء مكّة بأنّه لا يضمر لهم شرّاً. ولكنّ برّه ذاك ومعونته لفقراء بلدتهم لم يؤثّر في تخفيف عداوتهم له وللإسلام بل ازدادوا إمعاناً في عدائهم المعروف. فراحوا يؤلّبون قلوب القبائل الصديقة للإسلام على الإسلام. وكان من جملة من حرّضوهم من القبائل الكبيرة المعروفة آنذاك قبيلة بنو المصطلق الذين كان بينها وبين المسلمين علائق ودٍّ وحسن جوار. وبعد أن تأثّر زعيم قبيلة المصطلق هذه بتحريض زعماء قريش ضدّ الإسلام انقلبوا بين ليلة وضحاها أعداءً للمسلمين حتى أنّهم عزموا على مهاجمة المدينة المنوّرة. فأخذ زعيم بنو المصطلق وأفراد عشيرته يعدونّ العدة ويحرضون من كان حولهم من القبائل لمهاجمة المدينة المنورة بعد غزو ة الأحزاب وليثبت وجوده في ميدان محاربة الإسلام وكانت قبيلته من أكبر القبائل في تلك الأيّام.

ووصلت أخبار تحرّكات زعيم قبيلة المصطلق إلى علم رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة فأرسل من يتحقّق من صدق الخبر المذكور فلمّا تبيّن صدق الخبر المشار إليه بادر محمّد رسول اللّه ﷺ بحيثيّة كونه حاكم المدينة المنوّرة وأنّ بني المصطلق راحوا يشكّلون خطراً عليها وعلى الإسلام فقد عمد ﷺ إلى حشد المقاتلين من المسلمين، وإعداد العدّة للقتال وشاء الخروج بنفسه لمواجهتهم. ولم ينتظر أن يهاجمه بنوا المصطلق بل انطلق رسول اللّه ﷺ بنفسه على رأس المقاتلين ووصل أرض بني المصطلق. وأرسل إلى زعيمهم محاولاً فضّ النزاع والعداوة

التي غرسها زعماء قريش في قلوبهم فقد حاول فضّها سلميّا وصلحا لكنّهم واجهوه بالقتال. فلمّا لم ينفع عرضه المذكور معهم قاتلهم ودار بينهم قتال عنيف ولم تمض ساعة إلاّ ورفرفت راية النصر فوق رؤوس المسلمين وانهزم بنو المصطلق وحلفاؤهم شرّ هزيمة وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأخذوا أسرى من النساء والرجال فكتّفوهم جميعهم وساقوهم جميعهم إلى المدينة المنورة. فلمّا وصلوها وزعوا الغنائم على المقاتلين. وصدف أنّ ابنة زعيم قبيلة بنو المصطلق والتي كان اسمها (برّه) كانت من بين النساء الأسرى وكانت من نصيب ثابت بن قيس وابن عمّ له فأرضى قيس ابن عمّه على نخلات له في المدينة مقابل أن يستخلص (برّه) لنفسه ففعل.

وكما أنّ قبيلة بني المصطلق شُتّتوا بين عشيّة وضحاها وباتوا أذلاّء لا كيان لهم فإنّ (برّة) بنت زعيم بنو المصطلق أمست على نفس الحال. فعلى حين كنت في بيت أبيها وتحت ظلّ عشيرتها تحيا سيّدةً مطاعةً وحرّةً أبيّة محترمة عادت بعد أسرها من قبل المسلمين ووقوعها غنيمةً لديهم عادت أمةً من ملك اليمين وكيف ترضى ابنة زعيم عشيرة كبيرة معروفة بحياة العبودية والذل بعد أن كانت حرّة وسيّدة لقومها؟ فبادرت وعرضت على قيس المذكور الذي أصبحت من نصيبه أن تفتدي نفسها بالمال فطالبها بمبلغ كبير يعاجزها به. فضاقت الدنيا في أعينها فمن أين لها تأمين هذا المبلغ المطلوب منها وهي في الأسر بعيدة عن قومها المنكوبين؟ وفكرت في الأمر ملياً وكانت تسمع عن محمد رسول اللّه ﷺ أنه ادعى أنّ ربّه قد جعله (رحمةً للعالمين) وفهمت من هذا أنّ محمّداً ﷺ

يمثل ذروة الشهامة والإباء في كلّ شيء لذلك فكّرت في الاستنجاد به لعلّه يعينها في مصابها لتأمين المبلغ المطلوب منها لتدفعه لقيس ولتحرر نفسها من عبوديته ومن باب أنّ العرب كانوا مشهورين بمكارم الأخلاق. وهنا بدأ القدر الإلهيّ الذي كان في عالم الغيب يطلّ برأسه ليرى النور وليُقضى ما كان اللّه عز وجلّ قد قدّره.

فلّبت (برّه) ما خطر ببالها في نفسها مراراً وقلّبته على أوجهه وهي تزداد يقيناً بصحّة ما قرّرته. وبعد أن حزمت أمرها على ما قررته تجرّأت وقصدت دار محمد رسول الله ﷺ فلمّا مثلت بين يديه ذكرته بحربه مع عشيرتها وقصّت عليه قصتها وتمنّت عليه إعانتها لتستعيد حريّتها. وهنا نظر رسول الله ﷺ بثاقب فراسته الإيمانية إلى أنّ الله مسبب الأسباب لم يدفعها إليه عبثاً. وأدرك أنها جاءت كمناسبة لجذب عشيرتها إلى الإيمان بالله تعالى وبرسالته السماوية. فرسول اللّه ﷺ كان سيّد العارفين باللّه تعالى وبتصرّفاته الحكيمة وأنّه لا يتحرّك شيء بدون موافقته وأنّ مجيء (برّة) هذه لا يُعقل أن يحدث دون حكمة من جانب ربّه عز وجل. فتوجّه رسول اللّه ﷺ إلى ربّه يستلهمه ما ذا يفعل. ودفعه ربّه عز وجلّ أن يعرض على (برّة) الزواج فقد كان تعالى مقدّراً لهذه الفتاة أن تصبح عضوة في التنظيم النسائيّ الذي يُنشئه لصالح إتمام تبليغ رسالة نبيّه السماويّة. لذلك لم يتلكّأ محمّد رسول اللّه ﷺ في العمل على ما دفعه ربّه إليه وما كان منه ﷺ إلاّ أن عرض على (برّة) الزواج منها ليتحمل هو بدوره أداء المبلغ الذي طالبها مالكها قيس بدفعه. ومتأملاً من ربه عزّ وجلّ أن يحقق ما كان قد قدّره في علياء سمائه. وكانت مفاجأة لهذه

الفتاة (برّة) ما بعدها من مفاجأة وذلك من عظمة ما فاجأها به محمد رسول الله ﷺ. وهل كان بإمكانها رفض سيادة تحصل لها وتكون أعظم من السيادة التي كانت لها في دار أبيها؟ وعلى أقلّ تقدير وأن تعود لها بمكانة أعظم مما فاتها فإنّها ستتخلّص من هذه العبوديّة التي وقعت فيها وتعود حرّةً وأسعد مما كانته من قبل كيف لا وهي ستصبح أمّا للمؤمنين. فدارت هذه الأفكار في خلدها في لحظاتٍ لذلك رأيناها لم تتردد لحظة ولم تترك هذه الفرصة تضيع منها ووافقت على طلب رسول الله ﷺ مستبشرة وكأنها راحت في حلم لا يفوّت. وحينئذ أمر رسول الله ﷺ أن يُنادى على قيس ويطلعونه على ما جرى ويدفعون له طلبه من المال. وبذلك عادت (برّه) بنت سيّد بني المصطلق حرّةً وعلى عصمة محمّد رسول اللّه ﷺ الذي دعا ربّه أن يجعل (برّه) وسيلة هداية قومها بفضلٍ من اللّه ورحمته. وانضمت (برّه) إلى سوده وعائشة وحفصه اللواتي سعدوا بها من منطلق أنهم كانوا يرجون هدايتها وهداية قومها هم أيضاً. إذ كان جوّ أمّهات المؤمنين جوّاً إيمانياً ترفده التضحيات في سبيل الله عزّ وجلّ ولم يكن جوّهم جوّ بيت ضرائر تتنازعهن الغيرة والحسد والطلبات المادية.

وانتشر خبر هذا الزواج المبارك بين المسلمين وتوقّعوا من ورائه خيراً كثيراً فلا يُقدم رسول اللّه ﷺ على عملٍ إلاّ وتكون من ورائه مشيئةٌ إلهيّة وحكمة كبيرة فهذا ما عاينوه طوال السنوات التي مضت بعد إيمانهم باللّه وبرسوله. حتى وأرسلوا من يشيع خبر هذا الزواج بين أفراد عشيرة بنو المصطلق ليصل الخبر إلى أذني والد برّة نفسه أيضاً

ولينظروا ماذا سيفعلّ لعلّ اللّه يحدث خيراً خصوصاً وأنّ علاقات المسلمين ببني المصطلق كانت علاقات ودٍّ ومسالمة قبل تحريض زعماء قريش إيّاهم واستعداءهم على المسلمين.

فوصل خبر هذا الزواج إلى مسامع والد (برّه) فسارع إلى الحضور إلى المدينة المنورة بنفسه متواضعاً وطالب رسول الله ﷺ أن يدعها تعود معه إلى قومها بعد أن حررها. وكان ذلك في حضور ابنته التي دعاها رسول اللّه ﷺ للاجتماع بوالدها. سمعت (برّة) طلب والدها فتسمرت قسمات وجهها وغابت عن وجهها تعابير حبورها وسرورها بقدوم أبيها إلى المدينة المنورة. وهنا وقفت (برّه) من أبيها نفس الموقف الذي كان قد وقفه زيدُ الذي كان عبداً لخديجة رضي اله عنها بعد تحرير زوجها محمد بن عبد الله إياه وهو الموقف المعروف تاريخياً. وقفت نفس موقفه من رسول اللّه ﷺ وتوجّهت بخطابها نحو والدها وقالت له: أبتاه هيهات هيهات أن أفضّلك على زوجي هذا الرسول الذي بعثه اللّه عز وجلّ حقّاً رحمةً للعالمين فمحمد الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين ولهداية خلقه تعالى من المستحيل وبعد أن تيقّنت من ذلك وبعد أن أوصلني ربي إلى هذه المنزلة أن أرفض نعمته عز وجلّ ويكفي أنّ محمّداً ﷺ لم يحاول إذلالك بإذلالي خصوصاً وأنني لم أسع إلى ما حصلت عليه.

وقد أثر هذا المشهد في نفوس صحابة رسول الله الذين عاينوا ما حدث أمامهم فما كان منهم إلاّ أن أطلقوا جميع الأسرى الذين وقعوا في أسرهم من بني المصطلق إكراماً لهذا الموقف الذي وقفته (برّة) ﵂

من والدهـا إعـزازاً وتدعيمـاً لمكانـة رسـول اللـه ﷺ فـي أعـين بنـي المصطلق جميعهم.

فأدهش هـذا الموقـف الـذي وقفتـه (برّه) مـن والدهـا زعيـم بنـو المصطلق والموقف الذي وقفه صحابـة رسـول اللّـه ﷺ مـن أسـرى قبيلته وتجاه عينه. فتسرّبت إشعاعات الإيمـان إلـى صـدره شيئاً فشيئاً والتجـم عن الكلام وعاد أدراجه إلى موطن عشيرته تتصارعه تلك الحقيقـة التـي شـاهدها بـأمّ عينيـه وتذكّـر ذاك التّحريـض الـذي قـام بـه زعمـاء قريـش لاستعدائه على هذا الرسول الرحمة الذي ثبت له ولابنته أنّه فـي حقيقـة الأمر (رحمةً للعالمين). فعـاد إلـى قومـه يدعوهـم لـترك عبـادة الأصنـام والالتفات إلى عبادة الإلـه الحقيقـيّ الواحـد الأحـد القـهّار. وقـد أسـلم على إثر ذلك قوم كثيرون من عشيرته. وتحققت بذلك الخاطرة المحمديـة الرحمانيّة التي خطرت له يوم جاءته (برّة) شاكية مالكـها قيس. وكيف أنّ اللّه عز وجلّ دفعه ليعـرض الـزواج علـى (بـرّة) ويدفـع هـو ﷺ فديـة حرّيتها. وثبت من خـلال تلـك الأحـداث أن محمـد ﷺ لـم يقـدم علـى تلك الخطوة التي أقدم عليها بدافـع شـهوة النسـاء بـل بدافـع سـعيه لأداء رسالته السماوية التي كانت تشغل كل دقيقة من حياته.

وقد استبدل محمّد رسـول اللّـه ﷺ اسـم (برّة) وهـو اسـمها الـذي كان لـها قبـل الـزواج منـها وأعطاهـا اسـم (جويريّـة) أمّ المؤمنين. ولقـد أطـال اللـه عمـر (جويريّـة) لتشـهد الخلافـات الراشـدة وتـؤدّي مهمّتـها كمرشـدةٍ لنسـاء المسـلمين فتوفاهـا اللّـه عـزّ وجـل فـي السـنة الخامسـة والخمسين للهجرة ودفنت بالبقيع مثوى أمّهات المؤمنين رضي اللّه عنهن

جميعهنّ. وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يناديها باسم (جويرية) المشتقّ من جار إلى الله إذا رفع صوته بالدعاء إليه وتضرع بين يديه واستغاثه وهو يرجو أن تنقلب (برّة) إلى مصلّية قانتة مستجيرة بالله بعد أن كانت وقومها يستجيرون بالأصنام وهذا هو ما كان.

وعلى هذه الصورة تعددت زوجات رسول الله ﷺ فبلغت أربعة زوجات أحياءً وفي وقت واحد وعلى عصمته وبتحلّةٍ من الوحي السماوي الذي كان يتلقاه محمّد رسول اللّه ﷺ من جانب ربّه عزّ وجل كما دلّ على ذلك قول اللّه تعالى في الآية **50** من سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾. وهنا ملاحظة لابدّ من بيانها وهي أنّ فعل (أَحۡلَلۡنَا لَكَ) الوارد في هذه الآية الكريمة سالفة الذكر ورد بصيغة الماضي المتعدّي ليعني أنّنا كنّا نحلّ لك. ثمّ إنّ اللام في الجار والمجرور (لك) بمعنى التعليل أي أنّ ما أحللناه لك كان لصالحك. أي لصالح إعانتك في تبليغ رسالة ربّك عز وجل. وإنّ هذا التّعليل أشار إلى قيام التنظيم النسائيّ والذي أصبحت زوجات رسول اللّه ﷺ (**رئيساته**) وهو معنى (**أمّهات المؤمنين**) كما دلّ على ذلك المعنى غير الحقيقيّ لكلمة (أمّ). فأنت تقول (أمّ القرى) أي كبيرتهم ورئيستهم.

بل راحت تنزل آيات تنظم حياة هذا العدد من الزوجات اللواتي لم يسع رسول الله ﷺ للزواج بهنّ بدافع شهوة النساء ولكنّ الزواج بهنّ هو الذي سعى إليه. وسنرى كيف أنّ أحداثاً كانت تجرّ محمداً ﷺ ليضم إلى هاته الأربعة زوجات زوجة بعد زوجة وبنفس الأسلوب

الذي أسلفنا ذكره. وكانت جميع تلك الزوجات ثيّبات ترملت بعد موت أزواجهنّ ومن السابقات في الإيمان ومن صحابة رسول اللّه ﷺ المخلصين ، ولم يحدث أن كان منهنّ ولا واحدة محصنة عذراء إلاّ عائشة. ولقد أثبتت الأيّام عظمة ما قامت به كلّ واحدة من تلك الزوجات من تضحيةٍ في سبيل اللّه عز وجلّ. وبذلك كان كلّ ما حدث استثناءً بعد استثناء. وتقادير خاصة لصالح الإسلام والمسلمين ولتوحيد الأمة العربية على أيدي سيد المرسلين ﷺ. النبيّ الذي خاطبه ربّه في سورة الأحزاب التي أنزل آياتها في المدينة المنورة لتعالج مضامينها التطورات الطارئة على المهاجرين من المؤمنين فيها وما قدّر الله تحقيقه في المدينة من أمور لإكمال رسالته تعالى. فقد خاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم في الآية (50) من سورة الأحزاب المذكورة وما بعدها وقال له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ

مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾.

أفلا تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنهى الله جلّ شأنه هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾؟ فكلمة (رقيباً) التي أنهى بها هذه الفقرة الأخيرة هي صفة من صفات الله عزّ وجلّ وتعني الحارس والحافظ ومعاني أخرى لا صلة لها بنصّ هذه الآية الكريمة. وقد نبّه تعالى أذهان المؤمنين من خلال إيراده تعالى لهذه الصّفة هنا إلى أن كلّ ما يجري تحت سمعهم وبصرهم من تعدد زوجات يحدث في بيت النبوة إنما هي ثمار تقادير خاصّة من جانب اللّه تعالى الرقيب على مسيرة رسالة نبيّه الصادق الأمين وإنّه جلّ شأنه يجمع هذه الزوجات تحت رعاية رسوله الأمين كمعلمات ومرشدات لنساء المؤمنين. ولتدرّس كل واحدة منهنّ على من يزورهنّ من النساء ما يسمعنه من رسول الله ﷺ حين يزور إحدى زوجاته من مواعظ وإرشادات تنفعهنّ في أمور دنياهم وآخرتهنّ ومن باب أنّ الله تعالى هو الحارس وهو الحافظ للمؤمنين.

فمن خلال معطيات هذه الآية (50) من سورة الأحزاب التي أوردناها ندرك بان الله عزّ وجلّ كان يقدر زواج محمد رسول الله ﷺ بهذه الزوجات بتقادير خاصة ولحكمة بالغة أيضاً، ولم تكن تجري تلك الأحداث صدفة وبتدبير من رسول الله ﷺ نفسه وبدافع شهوة جنسيّة وكانت الحكمة الظاهرة مما حدث كلّه هو وكما ذكرت سابقا، أنّ الله عزّ وجلّ كان يعد أمهات للمؤمنين ليتربّين على أيدي محمد رسول اللّه ﷺ

نفسه، وليقمنّ برعاية وتوجيه نساء المؤمنين خلال أدائه ﷺ لرسالة ربّه في المدينة المنوّرة التي كثرت فيها الأعباء على كتفيه. بل ولرعاية وتوجيه نساء المؤمنين من بعده، وبدليل أنّ الله عزّ وجلّ أطال في عمر تلك الزوجات حتّى عاينّ الخلافة الراشدة وحتّى عصر معاوية بن أبي سفيان. والمهمّ هو أنّ الزوجة الرابعة (جويريّة) لم يطلب رسول اللّه ﷺ يدها بدافع شهوة النساء بل فعل ذلك بتوجيه من ربّه عزّ وجلّ من أجل هداية والدها وقبيلتها ولتصبح عضوةً من ضمن (**رئيسات**) منظّمة (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) نظراً للياقتها في نظر ربّها عز وجلّ الذي لا يخفى عليه شيء.

أمّ المؤمنين هند بنت أبي أميّة ﵂:

وعلى شاكلة القصص السابقة فقد حدثت قصة الزوجة السادسة في حياة رسول الله ﷺ وهي قصة هند بنت أبي أمية بن المغيرة التي تمّ زواجها في المدينة المنوّرة والتي كانت أمها عاتكة الكنانية. فهند المذكورة لم تكن عذراء بل كانت متزوجه من عبد الله بن هلال المخزومي الصحابي الجليل الذي لقبه الصحابة بصاحب الهجرتين لأنه هاجر أولاً إلى الحبشة، ومن ثمّ عاد إلى مكة المكرّمة وهاجر منها إلى المدينة المنورة. وكان في الوقت نفسه أخُ بالرضاعة لمحمد رسول الله ﷺ ومن بين العشرة الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة من جراء اضطهاد المشركين لهم في مكة المكرمة. وعلى هذه الصورة فقد كانت زوجته

هند ممن تحمّلت معه أشد أنواع العذاب ورافقته في هجرته إلى الحبشة حيث ولدت له هناك ابناً سموه سلمة بن عبد الله بن هلال المخزومي.

ومن المعلوم تاريخياً أن من أهل المدينة المنورة من قدموا وبايعوا رسول الله ﷺ بما سمّي بيعة العقبة الكبرى. تلك البيعة التي عاهدوا رسول الله ﷺ أنّه إذا قدم إلى مدينتهم يحمونه ويدافعون عنّه بدمائهم وأموالهم. ومن المعلوم تاريخياً أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قد سمح لأصحابه بعد البيعة المذكورة بالهجرة إلى المدينة المنورة حيث يجدون فيها أخوة لهم في الدين يعينونهم على الاستقرار في المدينة المنوّرة والعيش فيها بسلام.

وكان هذا الصحابي الجليل عبد الله المخزومي الذي أطلقوا عليه اسم صاحب الهجرتين كان ممّن هاجر بدوره وزوجته وابنه إلى المدينة المنورة بعد أن شاع ما أذن محمّد رسول اللّه ﷺ به. فبينما هم في الطريق إلى المدينة المنوّرة وإذ بقوم هند يلاحقونهم ويتعرضون لهم ويخطفون من هذا الصحابيّ عبد اللّه المخزوميّ زوجته وابنه مدّعين أنهما من متاعهما وليسا من متاعه، وتركوه يهاجر إلى المدينة المنورة وحيداً يعاني فراق زوجته الصحابيّة السابقة في الإيمان هند وابنه سلمة. فوصل المدينة المنورة منهكاً من كثرة ما خطّط لاسترجاع زوجته وابنه من هؤلاء الظالمين. فما هو الحال الذي آلت إليه الصحابيّة هند وابنها سلمة؟

وأرى من المناسب أن أنقل ما حدث مع هند وزوجها وابنها وبألفاظها ليدرك مدى الخطب الذي ألمّ بها حين تكالب عليه قومها

وقوم زوجها وما فعلوه معها. فقد حدّثت الصحابيّة والأرملة هند ﷺ عن ذلك فهند قالت تروي ما حدث لها:

(لمّا أزمع زوجي أبو سلمة الخروج إلى المدينة المنوّرة، رحّلَ لي بعيره - بمعنى أنّه جهّزه ليحملني عليه - ثمّ حملني عليه وحملَ معي ابني سَلمة في حجري، ثمّ خرج بي يقود بعيرَه. فلمّا رآه رجالُ بني المغيرة وهم قومي قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلَبتنا عليها أرأيت صاحبتنا أي ابنتنا هند هذه علامَ نترُكُكَ تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خِطام البعير من يده وأخذوني. فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد وهم قوم زوجي وأهووا إلى ولَدنا سَلمة وقالوا مخاطبين بني المغيرة: لا واللّه لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا ابني سَلمة حتّى خلَعوا يده وانطلق به رهطُ آل أبيه وحبسني بنوا المغيرة عندهم. ومضى زوجي أبو سلمة حتّى لحقَ بالمدينة فراراً بدينه ونفسه. وعندها وجدت نفسي ممزّقة الشمل وحيدةً مع أحزاني حيث فُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني في ساعة ظلماً وقسراً. ومنذ ذلك اليوم جعَلتُ أخرج كلّ غداةٍ إلى الأبطح فأجلس في المكان الذي شهد مأساتي وأستعيدُ صورة اللّحظات التي حيل بيني وبين زوجي وبين ولدي. وأظلّ أبكي حتّى يخيّم اللّيل وبقيت على ذلك سنةً أو قريباً منها حتّى مرّ بي رجلٌ من بني عمّي فرقّ لحالي ورحِمني فقال لبني قومي: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها. وما زال بهم يستلين قلوبهم حتّى قالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ. وردَّ عليّ بنوا عبد الأسد عند ذلك ابني، فرحّلتُ بعيري ووضعت ابني في حِجري ثمّ خرجت أريد زوجي

بالمدينة المنوّرة وما معي أحدٌ من خلق اللّه تعالى. حتّى إذا كنت بالتنعيم ـ وهو مكانٌ على بُعدِ ثلاثة أميالٍ من مكّة ـ لقيت عثمان بنَ طلحة ـ وكان مشركاً ـ فقال: إلى أين يا بنت زادِ الرّكب؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا واللّه إلاّ اللّه ثمّ ابني هذا. فقال: واللّه ما لكِ من متركَ. وأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني، فو اللّه ما صحبتُ رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه ولا أشرف، كان إذا بلغ مَنزِلاً من المنازل أناخ بي ثمّ تنحّى إلى شجرةٍ فاضطجع تحتها، فإذا أردنا الرواح قام إلى بعيري فأعدّه ورحّلهُ ثمّ استأخر وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويتُ على بعيري، أتى فأخذ خطامهُ وقاده. فلم يزل يصنعُ ذلك حتّى قَدِمَ بي المدينة. فلمّا نظر إلى قرية بني عوفٍ بقباء ـ المكان القريب من المدينة المنوّرة ـ وكان بها منزلُ أبي سلمة في مُهاجَرِه قال: إنّ زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة اللّه. ثمّ انصرف راجعا إلى مكّة

وهكذا تكون يا عزيزي القارئ قد سمعت ما جرى مع الصحابيّه الأرملة هند بلسانها. فهي قالت أنّها دأبت على أن تزور كلّ يوم المكان الذي خَطفوها فيه من زوجها وتجلس تبكي وتنوح على فراق زوجها وتدعو اللّه عز وجلّ أن يجمع شملها بزوجها وابنها. فقد كانت تفعل ذلك تحت أعين أقاربها من عشيرتها. فرقّ لحالها قلب ابن عمها الذي كان يراقبها طوال سنة من الزمان واقترح على قومه تخليصها مما هي فيه والسماح لها باللحاق بزوجها في المدينة المنورة فاستجاب قومه لرأيه وأعادوا إليها ابنها وتركوها تهاجر إلى المدينة المنورة وتلحق بزوجها فيها

هناك وبذلك يكون اللّه تعالى قد رقّ لحال هند السابقة في الإيمان واستجاب أدعيتها مكافأةً من جانبه تعالى على مثابرتها على الدعاء بين يديه تعالى قرابة عام كامل. وهكذا هاجرت هند ﷺ مسرعةً إلى المدينة المنوّرة وبرفقتها هذا الشخص النبيل الذي سخّره اللّه عز وجلّ لمرافقتها إلى هناك. فوصلت هناك وبذلك اجتمع شمل هذه العائلة المؤمنة المؤلّفة من الصحابيّة السابقة في الإيمان هند بنت أميّة وزوجها الصحابي الجليل عبد اللّه المخزوميّ وابنهما صغير السنّ اجتمع شملهم من جديد في المدينة المنورة. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة التف جميع من كان من المهاجرين حوله لينصروه وليدافعوا عنه وليقاتلوا في صفوف من جمعهم من المقاتلين وقد كان من حظ زوج هند الصحابيّ عبد اللّه المخزوميّ أنّه قاتل إلى جانب رسول الله ﷺ في معركة بدر الكبرى، وفي معركة أحد التي أصيب فيها بسهم لم يشف منه بسهولة والذي حدث هو أنّ قوم هذا الصحابي وهم بنو أسد قد اشتدّ عدوانهم على المسلمين فأرسل رسول الله ﷺ هذا الصحابي عبد اللّه المخزوميّ والذي هو أخوه في الرضاعة في حقيقة أمره أرسله على رأس مائة وخمسين صحابياً مقاتلاً لتأديبهم. فلم يكن من هذا الصحابي الجليل إلاّ أن سافر مع كتيبته وهاجم قومه وانتصر عليهم وأعاد للإسلام هيبته في نظر أعداء الإسلام التي اهتزت بعد معركة أحد، وافترش الفراش من أثر الجرح الذي كان يعاني منه، فلما أحسّ بدنوّ أجله نادى زوجته هنداً وقال لها (إذا متّ يا هند فتزوجي ولا تظلّي ثيباً) ومن ثمّ دعا لها وقال: (اللهم ارزق أمّ سلمه بعدي رجلاً خيراً مني لا يُحزِنُها ولا

يؤذيها). فلمّا اشتدّ مرضه وعلم بذلك محمّد رسول اللّه ﷺ زاره في منزله خاصّةً أنّ عبد اللّه أخوه في الرضاعة وإظهاراً من جانبه ما لهذا الصّحابي الجليل من مكانة في نفسه وغادر رسول الله ﷺ دار أخيه في الرضاعة وقلبه يعتصر من أجله ألماً.

والذي حدث أنّه لم يمض على مغادرة رسول اللّه ﷺ دار هذا الصحابيّ المريض عبد اللّه المخزوميّ ساعات إلا وفارق هذه الحياة وانتقل إلى الرّفيق الأعلى. فأرسلت زوجته الصحابيّة هند من لحق برسول اللّه ﷺ وأطلعه على هذا الخبر المشؤوم. فعاد إلى دار هذا الصحابي المتوفى ورفع يديه ودعا له من كلّ قلبه: (اللهم اغفر لأبي سلمه وارفع درجته في المقرّبين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين). وعلى هذه الصورة انقلبت الصحابيّة الجليلة السابقة في الإيمان هند بنت أميّة من زوجةٍ ناضلت مع زوجها سويّةً لصالح الإسلام وحفاظاً على دينها وعقيدتها إلى امرأة أرملة تضاعفت مسؤوليّاتها في منزلها وعادت بحاجة إلى من يعيلها وأولادها وهي في دار الهجرة بعيدةً عن أهلها وأقربائها الحقيقيّين. فتقدم أبو بكر الصديق ﷺ بدافع مواساته لها تقدم لخطبتها لعلّه يضمّها إلى زوجته الصحابيّة المناضلة لتتعاونا على أمور المنزل لكنّها رفضت طلبه بلطف ورفق شديدين. وقام عمر بن الخطاب فتقدم هو بدوره لخطبتها بعد أن أتمّت عدّتها يتملّكه نفس الإحساس والشعور تجاه مصابها لكنها رفضته بلطف ورفق شديدين أيضاً، وفضلت أن تظلّ أرملةً تعاني كلّ تعب

وشقاء لإعالة ابنها الذي يذكّرها بزوجها الـذي أخلص لـها ولـم يؤذها في يوم من الأيّام.

وكانت أخبار مجريات أمور الأرملة هند أرملة أخيـه فـي الرضاعـة تصل رسول اللّه ﷺ أوّل بأوّل. لأنّ رسـول اللـه ﷺ كـان يتتبّـع أخبارهـا خطوة خطوة إحساساً من جانبه بمنزلة زوجـها المتوفـى الـذب كـان أخـوه في الرضاعة في عينيه وإحساساً بحزنها وآلامها. ومن جملـة مـا وصلـه من أخبار عنها عرض صحابيّه الكرام أبو بكـر وعمـر رضـي اللّـه عنـهما على الأرملة هنـد الـزواج منـها ورفضـها الـزواج مـن هذيـن الصحـابيين الجليلين أبو بكر وعمر وتيقّن رسول اللّه ﷺ أن حالـها تـزداد سـوء. فمـا كان منه إلاّ أن زارها في دارها وطيّب خاطرها بكلمات أشعرتها بمنزلتـها ومنزلة زوجها المتوفى في فؤاده خصوصاً وأنّها وزوجها كانا من العشـرة الأوّلين الذين هـاجروا إلـى الحبشـة تخلّصـاً مـن ظُلـم واضطـهاد زعمـاء قريش إيّاهم بسبب قبولهم الإسلام ديناً وابتعـادهم عـن عبـادة الأصنـام التي كان زعماء قريش يقدّسـونها؛ وأقـدم محمّـد رسـول اللّـه ﷺ علـى خطبتـها لنفسـه إنقـاذا لـها مـن محنتـها وليضمّـها إلـى أهلـه فيرعاهـا هـو نفسـه. فـهل خطبـها رسـول اللّـه ﷺ مـن نفسـه ولمجـرّد مواسـاتها وهـي الأرملة التي تجاوزت سنّ اليأس؟ هذا السؤال أجاب اللّه عزّ وجلّ عليـه حين قال تعالى في الآية الكريمة 50 وبصورةٍ وضّحت أنّ محمّداً ﷺ كان لا يقدم على الـزواج إلاّ بـإذن ربّـه عـز وجـل. قـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾. والدليل الثـاني مـا ورد في الآية 52 من نفس سورة الأحزاب: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ

أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَاجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ وتدلّ هذه الآية الثانية أنّ اللّه تعالى كان يهيّئ الأسباب ليحدث زواج نبيّه الكريم بكلّ امرأة يصطفيها اللهّ عز وجلّ لتصبح عضوةً في التنظيم النسائيّ الذي كان قد شاء إنشاؤه وهي حقيقة دلّ عليها قوله تعلى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَاجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أي أنّ اللّه تعالى كان يصطفي من عالم غيبه امرأة صالحة لهذا التنظيم النسائيّ فكان يهيّئ الأسباب ليتزوّجها رسوله الكريم وبشكلٍ لا يدري أحد بما كان يُنشئه اللّه تعالى من وراء حجاب. وإننا إذا أمعنّا نظرنا في مُجريات حياة هذه الصحابيّة الجليلة التي كانت من العشرة الأوائل من السابقات في الإيمان وتأمّلنا فيما مرّ عليها من ابتلاءات وامتحانات وكيف صبرت تجاه تلك العواصف نُدرك عظمة اصطفاء اللّه تعالى لأمّ المؤمنين (هند بنت أميّة) والتي سأطلع القارئ الكريم على بعض مواقفها العظيمة بعد انتقال رسول اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى وكيف أنّ اللّـه تعالى أمدّ في عمرها إلى الرابعة والثمانين عاماً.

طنّت كلمات رسول اللّه ﷺ التي عرض من خلالها عليها الزواج منها فتذكّرت دُعاء زوجها المرحوم أبو سلمة حين رفع يديه وهو على فراش الموت ودعا لها قائلاً: (اللّهمّ ارزق أمّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منّي لا يُحزنها ولا يؤذيها) وكيف أنّها تساءلت في تلك اللّحظات (وهل يوجد من هو خيرٌ من أبي سلمة ومَن عساه أن يكون؟). وأدركت أنّ اللّه ربّها قد استجاب دُعاء زوجها الراحل بشكلٍ ما كان ليخطر لها ببال. وهنا نظرت إلى رسول اللّه ﷺ باستحياء وقالت له: يا

رسول اللّه (مرحباً بك يا رسول اللّه ومالي لا تكون بك الرغبة ولكنّك لم تدري أنّي امرأة قد دخلت بالسنّ ـ أي تجاوزت سنّ اليأس ولم أعد صالحةً للمعاشرة الجنسيّة ـ وأخاف أن تر منّي شيئاً يعذّبني اللّه به وأنا ذات عيال.). صارحته بهذه الصراحة التي ما بعدها من صراحة وذهنها قد ذهب إلى أنّ وراء الزواج معاشرة جنسيّة وهي لم تعد صالحةً لها. فالقارئ الكريم وقد سمع ما قالته الأرملة هند ﵂ يتشوّق ليحيط علماً بالموقف الذي وقفه رسول اللّه ﷺ ومدى تأثّره بما أحاط به علماً فهل ارتجّ طلبه منها؟ ألا إن رسول اللّه ﷺ ابتسم مشفقاً عليها وهو الذي كان قد استأذن من ربّه بهذا العرض وأحلّه له. قال: (أمّا قولك إنّك امرأةٌ مسنّة فأنا أسنّ منك ولا يُعاب على المرء أن يُقال: تزوّج أسنّ منه ـ ومن خلال هذه الإجابة يكون ﷺ قد حسم موضوع المعاشرة الجنسيّة وأنّه لم يعرض الزواج منها بدافع شهوةٍ جنسيّة ـ وأمّا قولك: إنّي أمّ أيتام فإنّ كلّهم على اللّه ورسوله وأمّا قولك: إنّي شديدة الغيرة فإنّي أدعو اللّه أن يُذهب عنك ذلك). وتمّ فيما بعد هذا الزواج.

ومن خلال ما ذكرته للقارئ من مجريات الأمور لابد أن أدرك بأن هذا الزواج السادس الذي أقدم عليه محمد رسول الله ﷺ لم يكن بدافع جنسي ولا كان قد سعا إليه من نفسه بل إن التطورات والمتغيرات التي هيّأتها الأسباب هي التي كانت وراء هذه الزيجة السادسة التي لم تكن زواجاً ما بين شاب وصبية بل كانت ما بين شيخين طاعنين في السّن.

وقد أمد الله تعالى في عمر هند ﵂ فشهدت مع رسول الله ﷺ فتح خيبر وفتح مكة وحصار الطائف وغزوة هوازن وثقيف وحجة

الوداع ، وأصبحت فيما بعد من أفقه أمـهات المؤمنين فـي الديـن وتربـى ابنها سلمه في كنف رسول الله ﷺ في حياته وقـام رسـول اللـه بتزويجـه بابنة عمّه أمامة بنت حمزة بن عبد المطلـب وامتـد عمـر هنـد إلـى الرابعـة والثمـانين فعـاصرت الخلافـات الأربعـة الراشـدة وتوفيـت سـنة (59) للهجرة ودفنوها في البقيع في مقبرة أمهات المؤمنين.

وقبل أن أُنهي الكلام عن أمّ المؤمنين (هنـد بنـت أبـي أميّة) أرى أن أُطلع القارئ الكريم على مبلغ عظمتها وحكمتها وسداد رأيـها إيفـاء بمـا وعته به. فقد روت سيرتها أنّها رحمها اللّه تعالى لم تتّصف بمـا تتّصـف به بعض النساء من أنّها تضيع وقتـها فـي الكـلام عـن سفاسـف الأمـور. وكانت تعظ أكابر الصحابـة إن لاحظـت عليـهنّ مُنكـراً. فـهي لاحظـت عمر بن الخطّاب يعنّف ابنته حفصة في يوم من الأيّام لمجرّد أنّه وصل إلـى علمـه بعـض نشـوز صـدر عنـها. فتصـدّت (هنـد بنـت أميّـة) وقـالت لـه مستنكرةً ما صـدر عنـه تجـاه ابنتـه وقـالت لـه: (عجبـاً يـابن الخطّـاب قـد دخلـت فـي كـلّ شـيء حتّـى تبغـي أن تَدخُـلَ بـين الرسـول وأزواجــه؟) فأثرّت كلماتها في نفس ابن الخطّاب ﵁ وصرّح بعـد ذلـك بـأنّ كلمـات أم المؤمنين (هند) تسببّت في انفراج نفسه وابتعـاد الغضـب عنـها. وكـان لأمّ المؤمنين (هند) رأياً أخذ به رسول اللّه ﷺ عنـد اختلافـه مـع أصحابـه في موضوع ما صـالح عليـه أهـل مكّـة ممّـا نجـد تفصيلـه فيمـا وردنـا عـن مُجريـات أمـور صلـح الحديبيّـة وأحداثـها. وامتـازت أم المؤمنيـن (هنـد) بنزول كثيرٍ من الآيات القرآنيّة فـي غرفتـها حيـث كـانت تسـتقبل رسـول اللّه ﷺ. وكانت تُستشار من قبل أكابر الصحابة بعـد انتقـال رسـول اللّـه

إلى الرفيق الأعلى. وكثيراً ما كانت تنادي رجال السلطة وتتظلّم عن بعض المسلمين المظلومين. إلى جانب أنّها كانت قبلة النساء في فقه أمورهنّ الخاصّة.

وعلى هذه الصورة يكون القارئ الكريم قد أحاط علماً بكيفيّة زواج محمّدٍ رسول اللّه ﷺ بهذه الزوجة (هند بنت أبي أميّة) تلك الأرملة التي كانت من أوائل المؤمنات الصالحات والتي تحمّلت في سبيل الحفاظ على دينها الإسلاميّ الحنيف الذي اعتنقته عن قناعة واستقلاليّة هي وزوجها الراحل وهي الأرملة التي مرّت بمختلف شدائد الأمور وابتلاءاتها تحمّلت كلّ ذلك بصبرٍ وثباتٍ ولم تترك الوهن ينساب إلى قلبها بشكل من الأشكال والتي لم يتمّ زواجها من محمّد رسول اللّه ﷺ بدافع شهوته الجنسيّة بل تمّ بتحلّةٍ من جانب ربّه عز وجلّ ولصالح (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي شاء اللّه تعالى إنشاءها بأسلوبٍ مُعجزٍ ما تبيّنت لأحدٍ معالمه الصحيحة حتى هذه اللّحظات وحقّق أهدافه.

أمّ المؤمنين زينب بنت جحش ؓ:

وأحدّثك يا عزيزي القارئ الكريم عن زواج ابنة عمّة محمّد رسول اللّه ﷺ التي تحدّث عن زواجها من رسول اللّه الناس في زمنه ﷺ وما يزالون يتحدّثون. فهو زواجٌ كان قد جعله اللّه عز وجلّ وسيلة إلغاء تقليدٍ جاهليٍّ وألغاه الدين الإسلاميّ الحنيف. فما هو ذاك التقليد الجاهليّ؟ لقد كان العرب قد تعارفوا في جاهليّتهم على اعتبار أنّ الابن بالتبنّي ولدا حقيقيّاً ويورّثونه إذا مات الذي تبنّاه. ولقد اعتبر الإسلام

هذا التّقليد خاطئاً ولا يجوز العمل عليه. فألغاه على شاكلة ما ألغى من تقاليد جاهليّة موروثة كان يعمل عليه الجاهليّون بدون مرجعيّة سماويّة. ذلك أنّ الإسلام أحدث تبديلاً جذريّا في كلّ ما هو موروث يتنافى وأسس تعاليم الدّين الإسلاميّ الحنيف وفي جميع مجالات الحياة الفرديّة والجماعيّة سواء العقائديّة منها وسواء الاجتماعيّة والاقتصاديّة وغيرها من نواحي الحياة. وسواء أكانت عائدةً للرجال أو كانت عائدةً للنساء. وكان للّه تعالى في موضوع إحداث هذا التبديل المشار إليه وسائله الخاصّة وأساليبه المتميّزة المعجزة. ومنها هذا الأسلوب الذي عمد إليه جلّ شأنه في موضوع زواج نبيّه المصطفى ﷺ من (زينب بنت جحش) ابنة عمّته (أميمة بنت عبد المطّلب) وحفيدة عبد المطّلب بن هاشم. فكيف حدث ذلك الزواج؟

فلكي يكون جوابنا وافياً أرى أن أحدّث القارئ الكريم بشيء من التفصيل عمّن جعله ربّنا عز وجلّ وسيلةً ليلغي عن طريقه التقليد الجاهليّ ومن ثمّ يضمّ ابنة عمّة رسول اللّه ﷺ إلى زمرة الرئيسات من أمّهات المؤمنين. وليثبت اللّه جلّ شأنه أنّه هو مسبّب الأسباب وأنّه فعّالٌ لما يريد.

فأنت تذكر يا قارئي العزيز أنّي كنت قد أخبرتك عن أنّ محمّداً ﷺ بعد زواجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أعتق عبيدها من دون مقابل. وكان من جملة مَن أعتقهم من الأرقّاء غلامٌ يُقال له (زيد) الذي كان من أكثر أولئك العبيد ذكاء ونشاطاً. لكنّ زيد ما استحبّ حرّيته الشخصيّة على مفارقة هذا الشاب محمّد بن عبد اللّه الذي تزوّج سيّدته

خديجة رضي اللّه عنها بسبب أنّه لاحظ في تصرّفات سيّده الجديد عواطف إنسانيّة وصفات متميّزة جذبته نحوه فتعلّق به وأخذ يرجوه أن يبقيه عنده. فلم يرفض محمّدٌ بن عبد اللّه ﷺ طلبه. وعاش (زيد) في كنفه ورعايته وهو يزداد كلّ يومٍ احتراماً لمحمّد وشغفاً وحبّاً. فلمّا كان حدث إعتاق محمّد لزيد قد انتشر في الآفاق ووصل إلى أذن والديه في الشام وكانت عصابة قد اختطفت زيداً من والديه وباعوه في مكّة فقد جاء والده وعمّه ليُرجعوه إلى داره في الشام. وباختصار فإنّ والد زيد وعمّه شاءا الرجوع إلى الشام برفقة ابنهما زيد. فخاطب الوالد ابنه زيد وقال له: يا بنيّ إنّ هذا الرجل الشريف قد أعتقك وإنّ والدتك قد برّح بها الشوق إليك وهي تحنّ إلى لُقياك فارحل معنا إليها لتقرّ عينها برؤيتك. فأجاب زيدٌ والده وبسرعة فائقة: يا أبتاه أنا بأشدّ الشوق للقيا أمّي لكنّ محمّداً هذا عاد أحبّ الناس وأعزّهم وأكرمهم إلى نفسي. وأنا الآن أشدّ تعلّقاً به وعُدت لا أطيق فراقه والبُعد عنه. وأدهشت هذه الكلمات التي نطق بها زيدٌ والده وعمّه وحاولا المستحيل ليقنعاه بمرافقته لهما إلى الشام. وبقي زيدٌ مصرّاً على موقفه كلّ الإصرار. وكان يجري ذلك الحديث كلّه على مسمعٍ ومرآى من محمّد بن عبد اللّه ﷺ وهو الذي أعتقه. وهنا تدخّل بينهم وخطابه موجّه إلى والد زيدٍ وعمّه وقال: أما وقد كنت قد أعتقت زيداً من قبل ليذهب حيثما شاء أمّا وقد أبدى لي في هذه اللّحظات ما كان يضمره نحوي من محبّة وعواطف لم أكن لأتوقّعها فإنّي ما عُدت أستغني عن زيدٍ وإنّي لأتبنّاه على شاكلة ما يتبنّى العرب أبناءً ليسوا من أصلابهم. فعل محمّدٌ بن

عبد اللّه ما هو شائع في زمنه يوم كان شابّاً ولم يكن قد أصبح نبيّاً بعد. عاد الناس بعد ذلك إذا تحدّثوا عن زيدٍ يقولون عنه أنّه ابن محمّدٍ بالتبنّي. حدث هذا يوم كان زيد ما يزال في سنّ مبكّر. ومضى على تلك الحادثة خمسة عشر سنة يوم أصبح محمّد ﷺ نبيّاً وأخذ كفّار قريش يضطهدونه والذين اتبعوه مدّة ثلاثة عشرة سنة هاجر بعدا ﷺ إلى المدينة المنوّرة. وهاجر زيدٌ بعده أيضاً. وبعد فترة من الزمان بعث محمّد رسول اللّه ﷺ زيداً هذا الذي كان قد أصبح ابنه بالتبنّي بعث به إلى مكّة المكرّمة ليأتي له بابنتيه رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما ووضع ﷺ في تلك الفترة أساس مسجده في المدينة المنوّرة وبنى لنفسه دراً من اللّبن وسقفه بسعف النخيل على شاكلة ما سقف مسجده بسعف النخيل أيضاً. ومن ثمّ وصلت ابنتاه برفقة زيد رضي اللّه عنهم جميعهم. ومن هنا تبدأ قصّة زواج زيد الذي أصبح شابّاً يافعاً وفي العقد الرابع من عمره ولا يُعقل أن يبقيه رسول اللّه ﷺ بلا زواج، فكيف تمّ زواج زيدٍ رضي الله عنه؟ وماذا كان موقف رسول الله ﷺ من هذا الزواج المطلوب وهو ﷺ الذي تبناه وأمسى مسؤولاً عن تزويج زيد بما يتلاءم مع سبقه في الإيمان ومع ما كان يضمره من إخلاص وبما يتناسب مع ما تحمّله زيدٌ طوال تلك السنوات من مشقّات كلّفه بها رسول الله ﷺ والده بالتبني. هذا الرسول الذي كان يتقيّد بكل ما هو موروث على مختلف صعد الحياة إلى أن ينزل وحي يصحّح له ما كان قد سار عليه والتزم به في حياته؟ فهذا كلّه كان يلزم محمّداً ﷺ وهو في دار الهجرة وفي السنوات الأوائل فيها كان

يلزمه بتزويج زيد ليس من عامّة المؤمنين المهاجرين بل أن يزوّجه من أقاربه وعلى اعتبار أن زيداً كان ابنه في التبني.

فاختار رسول اللّه ﷺ لزيد ابنة عمّته (أميمة بنت عبد المطّلب بن هاشم). وكانت من أوائل المؤمنات بالإسلام ديناً. وكانت هاجرت بعده إلى المدينة المنورة. فكان لها ابنة اسمها (برّة) قام رسول اللّه ﷺ باستبداله باسم (زينب) هذه الكلمة التي تعني شجرة حسنة المنظر وطيبة الرائحة. وفرحت (برّة) بالاسم الجديد وأقنعها ﷺ بالزواج بابن خالها بالتبنّي (زيد بن حارثة) وتمّ الزواج بعد ذلك بينهما. أي أنّ فتاةً عاشت تتفاخر بحسبها وبنسبها تزوّجت بشابٍّ كان عبداً في يوم من الأيّام. فهل كان ذاك الزواج سيدوم ومن دون توفّر عنصر التّعادل بين هذين الطرفين؟

ويخطر للباحث هنا أكثر من سؤال. فأوّل ما يخطر بباله هو هل أنّ الشرع الإسلامي يقرّ تقليد الابن بالتبنّي ومعاملته كالابن الحقيقي وراثة وتوارثاً؟والسؤال الثاني الذي يخطر ببال هذا الباحث هو هل ينجح زواج لا تعادل فيه بين طرفي الزواج؟ وسأجيب على هذين السؤالين من ضمن مُجريات أحداث ذاك الزمان.

ألا إنّ زيداً كان عبداً في الأصل وكان بسبب ذلك يحمل نفسيّة عبدٍ وإن أصبح محرّراً وابناً بالتبنّي عند رسول اللّه ﷺ فهو ظلّ يخدم رسول اللّه ﷺ وزوجته خديجة ﵂ قبل زواجه وبذلك كان يحمل نفسيّة الخادم. أما (برّة) التي أصبح اسمها (زينب) فقد كانت من سلالة أسياد أهل مكة المكرمة من قريش، وعلى شاكلة ابن خالها رسول الله ﷺ فمن حيث الأصل والواقع فما كان يوجد تعادل ما بين زيد وما بين زينب في

هذا الزواج خصوصاً وأنّ نزول بقية أحكام الشرع الإسلامي لم يكن قد حدث زمن الزواج المذكور. حتّى ولم تكن آيات سورة النساء قد نزلت في تلك السنوات الأوائل من الهجرة. تلك السورة التي حدّدت تعاليم آياتها مسؤوليات كلّ طرف من أطراف الزواج. وإنّ هذا الزواج الذي رتّبه محمّدٌ رسول اللّه ﷺ وباجتهاد شخصيٍّ كان الدافع إليه ما جُبلَ رسول اللّه ﷺ عليه من شعورٍ إنسانيٍّ وأخلاقٍ كريمة. فالرسول هو الذي تبنّى زيداً وضمّه إليه وفق التقاليد الجاهليّة في موضوع التبنّي. لذلك عندما أقبل ﷺ على تزويج زيدٍ كان يريد أن يُثبت أنّ تبنّيه له كان تبنّياً حقيقيّاً. وما دام زيدٌ قد أصبح ابن رسول اللّه ﷺ فكان من اللّائق أن يتزوّج من بنات هاشم. وعليه فإنّ رسول اللّه ﷺ بهذا الزواج قد أثبت إنسانيّته وكرم أخلاقه. وإنّ عمّة رسول اللّه حين وافقت على تزويج ابنتها من زيدٍ الذي كان عبداً فيه كلّ الدلالة على أنّ سبقها في الإيمان وتركها تقاليدها الموروثة كان شيئاً حقيقيّاً وكانت صادقةً فيه. وإلاّ لاعترضت على رسول اللّه وقالت له: أتخطب ابنتي لشابٍّ كان عبداً؟ بل أثبتت بموافقتها أنّها أي والدة (زينب) كانت مطيعةً لرسول اللّه ﷺ ولا تعصي له أمراً وتؤثر رأيه على رأي نفسها. وأنّ هذا هو نفس حال ابنتها زينب أيضاً وإلاّ لكانت هي بدورها قد اعترضت على تزويجها من زيد. فكيف جرت أمور زواج زيدٍ ؓ من زينب ؓ وهل جرت بكلّ رتابةٍ ووئام؟ وينبغي أن نضع نصب أعيننا هنا أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ لو كان يميل إلى زينب وجمالها قبل تزويجها من زيد لكان قد خطبها لنفسه يقيناً.

لذلك يسأل هذا الباحث نفسه هنا عن المآل الذي آل إليه زواج زيد من زينب ولا يكون تساؤله في هذا الموضوع غريباً بل يحدث بصورة فطرية وآلية. والحقيقة هي أنّ أحداث ما بعد الزواج المذكور أخذت تفصح عن جواب السؤال المذكور. إذ بدأت تظهر الاختلافات بين زيدٍ وزينب بصورة تلقائيّة خصوصاً وأنّ الجاهليّة وتقاليدها لعبت دوراً أساسيّاً في هذا الزواج. فزينب كانت سليلة عائلةٍ من أسياد العرب. وما اعتادت أن يأمر عليها عبد. على حين أنّ زيداً هو أيضاً كان من عائلة شاميّةٍ فاضلة ولم يكن من نسل عبيد وقد أصبح عبداً بسبب سطو لصوص الصحراء عليه وجعله عبداً وبيعه في مكّة المكرّمة. فكلمة عبد قد تُشعر المحقّق الباحث أنّ زيداً كان شابّاً أسود اللّون أفطساً. على حين أنّ زيداً كان شاميّاً أصيلاً وأهل الشام معروفين ببياض لونهم وجمال وجوههم وعليه فقد كانت تتوتّر العلاقات ما بين زيد وزينب بسبب هذا الشعور الجاهليّ الذي لم تكن قد نزلت من الآيات الكريمة ممّا يزيل آثاره. ونكتفي هنا بهذا التحليل لمجريات الأمور ما بين الزوجين المذكورين ولا ندخل في تفاصيلها. هذا بالرغم من كون هذين الطرفين المذكورين مؤمنين وأتقياء ومن السّابقين الأوّلين في الإسلام. ويكفي أن نعلم بأنّ زيداً ﵁ كرّر شكواه من زينب ﵂ مراراً و تكراراً بين يدي رسول الله ﷺ حتّى ووصل به غضبه منها أحياناً حدّ طلبه الطلاق منها أيضاً لظنّه أنّها تستكبر عليه. وقد دأب رسول اله ينصحه و يوصيه بإبقائها على عصمته خصوصاً وأنّ زيداً وزينب كانا في الأربعينيات من عمريهما ، ومن أنساب وأقرباء رسول الله ﷺ نفسه. وخشية أن يصبح

هذا الطلاق مادةً دسمةً للمنافقين يستغلونه ضدّ الإسلام والمسلمين. وظلّ الأمر على تلك الحال إلى أن فصل اللّه جلّ شأنه في أمر ذاك الزواج الذي نتكلّم عنه حين نزلت الآية (37) من سورة الأحزاب التي نسخ الله تعالى من خلالها ما تعارف الجاهليون عليه بشأن عادة الابن بالتبني ومعاملته كابنٍ حقيقيّ يرث ويورّث. ولقد قال اللّه تعالى في الآية المذكورة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. فماذا حدث بعد ذلك؟

وكان اللّه عز وجلّ يصطفي من النساء السابقات في الإيمان والمخلصت في العمل على دينهنّ وقد اصطفى من النساء الأرامل ما كنّا قد ذكرناهنَ حتى الآن. وكان اللّه جلّ شأنه في الوقت نفسه يريد أن يُلغي تقليد الابن بالتبنّي وتوريثه خطأ. فقد وقع نظره جلّ شأنه على (زينب) زوجة (زيد) الذي كان ابن رسوله الكريم بالتبنّي والذي كانت حياتهما الزوجيّة غير مستقرّة وكان رسول اللّه ﷺ يوصي ابنه بالتبنّي زيداً ألاّ يطلّق زوجته (زينب) التي كان يشكو منها تعاليها عليه في تعاملها اليوميّ. وطلّقها في نهاية المطاف. فاصطفى اللّه جلّ جلاله زينب مطلّقة زيدٍ الذي كانوا يُنادونه يا ابن محمّد لتبنّيه ﷺ إيّاه. وشاء اللّه عز وجلّ أن يزوّج أرملة زيدٍ لرسوله الكريم لتنضمّ إلى أمّهات المؤمنين من جهة وليُبطل ذاك التقليد الجاهليّ المتعلّق بتوريث الابن

بالتبنّي من جهةٍ أخرى. ويفعل اللّه تعالى ما يشاء وكيفما شاء. وأحدثت تلك المشيئة الإلهيّة في المدينة المنوّرة ضجّةً استغلّها من استغلّها من أعداء الإسلام والمنافقين.

وإن أنت تدبّرت يا عزيزي القارئ الآيات الأولى من سورة الأحزاب تلاحظ يقيناً بأنّ اللّه عز وجلّ كان يمهّد من خلال مضامينها لإلغاء تقليد الابن بالتبنّي دفعاً لتلك الضجّة التي أثارها أعداء الإسلام والمنافقون بعد زواج محمّدٍ رسوله الصادق الأمين من الأرملة (زينب ﵂ مطلّقة زيد. وبدلاً من أن يتدبّر المؤمنون ذلك فقد راح كثيرٌ من المسلمين يتأثّرون بما روّجه هؤلاء الأعداء ويوثّقونه في تفاسيرهم وأحاديثهم أيضاً ممّا لا حاجة بي لاطلاعك يا عزيزي القارئ عليه وقصدي من ذلك أن أدعك تشرب من نَبع هذا القرآن المجيد وحده الذي توزن به الموازين. فلا يُعقلُ أن تكون الآيات تنزل بخلاف وقائع تلك الأيّام ويسكت عن ذلك الصحابة الكرام أنفسهم فأنت لست بحاجةٍ إلى قيل وقال لتحيط علماً بموضوع زواج محمّد رسول اللّه ﷺ من مطلّقة ابنه بالتبنّي زيد رضي اللّه عنه وكما يفعل الكُتّاب المسلمون من قبل وفي هذه الأيّام أيضاً.

وما أن أنزل اللّه جلّ شأنه هذه الآيات الأولى من سورة الأحزاب وهي تحمل هذا التمهيد الذي بيّنّاه وهذا الأمر الإلهي الذي نصّ على إلغاء تقليد التبنّي الجاهليّ الذي كان قد عمل عليه محمّدٌ رسول اللّه ﷺ قبل أن أوتي رسالة ربّه عز وجلّ وبعد زواجه بخديجة بنت خويلد رضي اللّه عنها بشأن تبنّيه معتوقه (زيد) الذي رويت لك يا قارئ العزيز

قصّته آنفاً فقد أدرك محمّد رسول اللّه ﷺ أنّ تعامله مع زيدٍ وفق تقليد التبنّي الجاهليّ كان خطأً كبيراً وأنّ اللّه تعالى الذي بعثه رسولاً قد صحّح له خطأه المشار إليه وأنزل حُكماً شرعيّاً يفصل فيه. وأنّ من واجبه أن يُعلنَ خطأ العمل على تقليد التبنّي الجاهليّ ويتراجع عنه علنيّاً. وأوقعته هذه الحقيقة التي جاءت بها الآيات الأوائل من سورة الأحزاب في حرجٍ كبير جعله يفكّر في كيفيّة تراجعه عن خطئه الذي صدر عنه بشأن هذا العبد الذي حرّره من عبوديّته ورفض العودة إلى أمّه وأهله وفضّل البقاء في تبعيّته لهذا الشاب محمّد بن عبد اللّه الذي أعتقه ولذلك تبنّاه في ذاك الحين. كما أخذت الأفكار تدور في خلده بشأن زيدٍ نفسه إذا لم يعُد يُناديه إخوانه المسلمون بزيد بن محمّد الذي كان يتباهى به. فدخلَ رسول اللّه ﷺ في صراعٍ يخفيه في نفسه وهو لا يعرف كيف يُظهره لجماعة المؤمنين من المهاجرين والأنصار وهو ما زالت لم تمض على هجرته إلى المدينة المنوّرة ثلاث سنوات أو مما يقارب ذلك.

فظلّ حال محمّد رسول اللّه ﷺ على تلك الحال يُخفي ما فهمه من الآيات الأوائل من سورة الأحزاب التي ذكرناها خصوصاً وأنّه أصبح حاكماً للمدينة المنوّرة وقد ظهر من سكّانها من أتباع بن سلّول منافقون يترصّدون كلّ حركةٍ من حركاته لتحريض المؤمنين ضدّه وهو الذي انتزع زعامة ابن سلّول التي كاد يصل إليها لولا مشيئة اللّه عزّ وجلّ.

أقول: ظلّ حال محمّدٍ رسول اللّه ﷺ يُخفي في صدره هذا الصراع الذي أشرت إليه إلى أن فوجئ بنزول الآية **37** من سورة الأحزاب التي أوردتها لك آنفاً والتي مهّد اللّه تعالى لها بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ هذه الآية التي أتبعها جلّ شأنه بالآية الكريمة التي حسم من خلالـها موضـوع زواج محمّد ﷺ بأرملة (زيد) ابنه بـالتبنّي. هذا الحسـم الـذي أورده اللّـه تعالى بعد أكثر من ثلاثين آية من الآيات التي مهّد اللّه تعالى مـن خلالـها لإلغـاء تقليـد توريـث الابـن بـالتبنّي والـذي كـان معمـولا عليـه. فقـال تعـالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ولنتدبّر هاتين الآيتـين الكريمتين بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فالحرف (إذْ) هو اسم للزمان الماضي فهو في محلّ ظـرف فـي هـذا المقام ولذلك ورد فعل (تَقُولُ) بصيغة المضارع بمعنى أنّك يا محمّد كنت تقول (لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ). ونأتي إلـى اسـم الموصـول (للّذي) فالّذي هو اسم موصول صيغ ليتوصّـل بـه إلـى وصـف المعـارف بالجمل فالسؤال هنا ما هي دلالة الّلام المُدخلة على هذا الاسم الموصـول ولماذا أدخل اللّه تعالى اللام عليه ولماذا أخّـر تعـالى مفعـول تقـول (وهـو (زيد)؟ والذي أراه أنّ اللّه تعالى أدخل هذه اللام للتعليل أي ليُعلّل اللّـه تعالى مـا كـان محمّـد يقولـه لزيـد. بدليـل هـذا التقديـم والتـأخير الـذي

أجراه اللّه تعالى عند صياغته لهذه الآية الكريمة. فالأصل أن يُقال: تقول لزيد. وقد وصف اللّه تعالى المعارف باسم الموصول (الّذي) وقال (أنعم اللّه عليه وأنعمت عليه) فصيغة الماضي (أنعم وأنعمت) تفيد أنّ إنعام اللّه تعالى على زيد وإنعام محمّد على زيدٍ ﷺ قد حصل قبل نزول هذه الآية الكريمة وهو تزويج زيدٍ بزينب ابنة عمّة محمّد رسول اللّه ﷺ. والآن فماذا كان يقول محمّد لزيد بعد أن زوّجه بزينب؟ ووقع الاختلاف بينهم وعزم زيد على طلاقها؟ يقول اللّه تعالى حكاية على لسان نبيّه الكريم وموجّهاً إلى زيد (أمسك عليك زوجكَ واتّق اللّه). فما معنى (أمسك عليك زوجك)؟ تقول: مسك به ومعناه تعلّق به واعتصم والمتعدّي منه أمسك به بنفس معناه. أمّا إذا قُلت أمسك عنه فمعناه سكت وهذا في حال استبدال صلة الباء بالحرف (عن) ويصبح معنى (أمسك عليك زوجك) أنّ محمّداً ﷺ كان ينهى زيداً أن ينشر خبر ما يحدث بينه وبين زوجته زينب وألا يفشي ما كان يحدث بين زيدٍ وزينب من خلافاتٍ تحدث لأسبابٍ تتسبّب بتلك الاختلافات. ولنلاحظ أنّ اللّه عز وجلّ ستر على تلك الخلافات التي كانت تقع بين هذين الزوجين ولم يشأ أن يتكلّم عنها في كتابه العزيز. ومعنى هذا أنّ على كلّ كاتبٍ أو مفسّرٍ ألاّ يتدخّل في أمر تلك الاختلافات فلا ينقل أخبارها التي بثّها المنافقون في تلك الأيّام ولا يلقي الضوء عليها ويفضحها وإلاّ يكون قد خالف مشيئة اللّه الستّار الذي أعرض عن ذكرها. على حين لم يراعي المفسّرون القدماء هذه الملاحظة وتناقلوا الأحاديث الكثيرة التي هي من قبيل التقوّلات التي تقوّلها المنافقون ليس إلاّ.

ونتقل لفهم قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ فالسؤال هنا هو ما هو هذا الشيء الذي كان رسول اللّه ﷺ يُخفيه في نفسه؟ والجواب يدلّنا عليه سباق هذا الكلام وهو قول محمّد ﷺ لزيد (أمسك عليك زوجك واتّق اللّه). فالرسول ﷺ إذاً ما كان يريد من زيدٍ ابنه بالتبنّي أن يُطلّق ابنة عمّته زينب التي زوّجه إيّاها بنفسه. وكان يوصي زيداً بتقوى اللّه في هذه القضيّة وخشيته وبمعنى أن يتحمّلَ ما يدفعه إلى طلاق زوجته زينب. ويتبيّن من ذلك أنّه لو كان محمّدٌ يريد الزواج بقريبته زينب لكان قد تزوّجها بدلا أن يُزوّجها لابنه بالتبنّي (زيد) ولكان قد زوّجه رسول اللّه بفتاةٍ غيرها أو إن كان قد ندم على ذلك وأراد ﷺ أن يطلّق زيدٌ زينباً فليس من المعقول أن يوصي زيداً أن يُمسك عليه زوجه ويتّقي اللّه. وإنّ هذه الحقيقة تُكذّب ما أشاعه المنافقون في المدينة المنوّرة في هذا الشأن. وما تناقله بعضهم من بعد. وعليه فإنّ ما كان رسول اللّه ﷺ يُخفيه في نفسه هو وجود اختلاف ما بين زيد وزينب وأنّه ﷺ كان يتظاهر وكأنّ زواجهما موفّق لا يُعكّره شيء. ومن المعلوم أنّ هذا الموقف الذي كان قد يقفهُ رسول اللّه ﷺ من اختلاف زيدٍ مع زوجته لا يقفه إلاّ كلّ إنسانٍ شريفٍ ونبيلٍ لا يريد نشر غسيله أمام أنظار الناس. فهو موقفٌ مُشرّفٌ لرسول اللّه ﷺ ولا غبار عليه. وإنّ كلّ كاتبٍ أو مفسّرٍ لا يراعي هذا التسلسل الموضوعيّ لهذه الآيات الكريمة يبتعد عن الحقيقة كثيراً ويكون متأثّراً بأقوال فلان وفلان من الناس. لذلك فتعال معي يا عزيزي القارئ إلى الآية الثالثة من هذه السورة، سورة الأحزاب، وحاول أن تحيط بمعانيها تلك الآية التي كان

الله عز وجلّ قد مهّد من خلالها لطرح حكم تحريم التبنّي الجاهلي. فلقد قال الله تعالى هناك في الآية الرابعة من هذه السورة: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وأحاول تدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

أولاً ـ فعندما قال الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ فقد نبّه هذا الإنسان إلى أنّ الحبّ الحقيقي مرتبط بقلب الإنسان والقلب لا يفضّل في المحبّة أحداً على من كان من صُلبه وهي ظاهرة طبيعيّة نلاحظها لدى جميع الكائنات الحيّة ولا يشذّ الإنسان عنها. فإن حدث خلاف ذلك فيبدو للناظر شواذاً. وعليه فقد أتى هذا التّنبيه عاماً وشاملاً.

ثانياً ـ وعندما ضرب الله مثالاً آخر وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فقد لفت الله تعالى ذهن العرب الجاهليّين إلى الكيفيّة التي تجري من خلالها حالات الطلاق عندهم. إذ كان الرجل إذا أراد تطليق زوجته قال لها: أنت عليّ حرامٌ كظهر أمّي وهو يكنّي بالظهر عن البطن تأدّباً (محيط المحيط). فالظهار عند الجاهليّين العرب يعني الطلاق في تقاليدهم. وقد سفّه الله عز وجلّ

هذا التقليد الجاهليّ المذكور ومفهومه وكأنّه تعالى نبّه أذهانهم إلى أنّ مجرّد قول الزوج أنت أمّي أو أنّك كظهر أمّي فلا يوجب أن تصبح زوجته أمّه وبإجماع الناس على ذلك. وبهذا الأسلوب فقد اقترب حديث اللّه عز وجلّ ممّا يريد بيانه بعد التنبيه إلى الأمرين الماضيين.

ثالثاً ـ ومن ثمّ صرّح اللّه جلّ شأنه بما أراد الكلام عنه وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي أنّكم إذا قُلتم أتبنّى فلانا فلا يعني ذلك أنّه ابنكم الحقيقيّ لأنّ هذا التبنّي يخالف هذه الحقائق التي أسلفنا ذكرها آنفاً. ولا يصير أحدٌ ابن فلانٍ لمجرّد قولكم بأفواهكم أنّه أصبح ابناً لكم. وبألفاظ أخرى فإنّ اللّه عز وجلّ تبّه هؤلاء إلى أنه من الضروري أن يكون للتقليد والحكم الشرعيّ مرجعيّة. وإنّ هذا النظام الطبيعيّ الذي لفتنا نظركم إليه يجعل اللّه الخالق هو المرجعيّة في هذا الموضوع وليس مجرّد تفوّهكم أنفسكم بكلمات.

رابعاً ـ ومن ثمّ أضاف اللّه عز وجلّ وقال يفصل في هذا الموضوع وذلك في الفقرة الرابعة من هذه الآية الأولى وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ ومستعملا كلمة (الحقّ) التي تستعمل لغةً ضدّ الباطل من جهة ليفيد أنّ ما قرّرتموه بأفواهكم هو الباطل وأنّ ما يقرّره اللّه ربّكم هو الحق. وتعني كلمة (الحقّ) التي تستعمل لغةً بمعنى الأمر المقضيّ. وليصبح مراد اللّه جلّ شأنه أنّ ما يقوله ربّكم ويقضي به فهو الذي ينبغي أن تأخذوا به وتعملوا عليه لكون كلام اللّه تعالى هو الأمر المقضيّ والنافذ بين عباد اللّه تعالى وليس قول أيّة جهةٍ أخرى سواه. ومن باب أنّ اللّه

لا إله غيره في هذا الكون. ولذلك فهو الذي يقدّر كلّ شيء وهو **الذي** يقضي به وهي حقيقةٌ كونيّة ثابتة.

خامساً ـ وقد أنهى اللّه عز وجلّ هذه الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾. ومن خلال كلمة (يهدي) فقد جزم تعالى بأنّ الهداية مهما كان نوعها وموضوعها فترجع إلى اللّه الذي خلق هذا الكون ومخلوقاته. ومن خلال كلمة (السبيل) جزم اللّه تعالى أيضاً أن سبيل العمل على تقليد التبنّي الجاهليّ لا يصبح شرعيّاً إلاّ من خلال نصٍّ شرعيٍّ يتفوّه به اللّه تعالى ويفرضه على الناس. ومن خلال هذا التدرّج في الأفكار العلميّ والمنطقي في موضوع الكلام على تقليد التبنّي الجاهلّي الذي تدرّجت به فقرات هذه الآية من سورة الأحزاب يكون اللّه جلّ شأنه قد مهّد بشكلٍ موضوعيٍّ لتحريم تقليد التبنّي الجاهلي وبصورة لا زيادة عليها. لذلك فقد أتى اللّه عز وجلّ بالآية الخامسة ليقول كلمة الحقّ ويفصل في موضوع هذا التقليد الجاهليّ المذكور. فاستهلّ الآية الخامسة وهو يأمر الجاهليّن وكلّ من يعمل على تقليدهم وقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أنّ كلّ ولدٍ ينبغي أن يُنسب إلى أبيه الحقيقيّ ولا يجوز القول بحقّه أنّه ابني بالتبنّي. ونبّه تعالى في الوقت نفسه إلى أنّ هذا الأمر الذي آمركم به هو القول الحق والأقسط عند اللّه عز وجلّ.

فبغض النظر عن موقع هذه الآية الكريمة من تسلسل آيات سورة الأحزاب الموضوعيّ. فالذي أفاده مضمونها في تلك السنوات الأولى من حياة الدعوة الإسلامية في المدينة المنوّرة هو أنّ اللّه عزّ وجلّ قد

جعل موضوع زواج زيد بزينب وسيلة لتنبيه أذهان المؤمنين عن ضرورة مراعاة تعادل ما بين الأزواج وتكافؤ في بداية أمر الزواج كيلا ينتج عنه ما نتج عن زواج زيد بزينب من اضطراب في حياتهما الزوجية. وفي الوقت نفسه فقد تضمّنت هذه الآية الكريمة حكماً شرعيّاً وهو أنّ الابن بالتبنّي لا يجوز اعتباره ابناً حقيقياً من جهة ولا يجوز أن تطبق عليه أحكام المواريث.

وبالإضافة إلى هذا وذاك فقد قضى الله تعالى بطلاق زينب من زيد كما قضى بتزويجها لرسول الله ﷺ ولتصبح الزوجة السابعة من أمهات المؤمنين وليصبح ما جرى أسوةً حسنةً لكلّ مؤمنٍ يحتذي برسول اللّه الكريم وليساعد هذا على تطبيق هذا الحكم الشرعي المتعلق بالابن بالتبنّي.

فهذه أمور خمسة هامة تضمّنتها هذه الآية الرابعة التي مهّدت لهذا الحكم الشرعيّ في تلك الأحوال. وقد فهم محمّدٌ رسول اللّه ﷺ مضامين تلك الآيات الأوائل من سورة الأحزاب على الصورة التي ذكرناها فأوقعه ذلك في ارتباكٍ كبير. فهو كان قد عمل من قبل على تقليد الابن بالتبني الجاهليّ وزوّج زيدا بزينب ولم يكن يدري أنّ اللّه عز وجلّ سينسخ هذا التقليد الذي جرى عليه العرب في جاهليّتهم. فماذا يفعلُ أمام هذا الأمر الواقع الجديد الذي مهّدت له تلك الآيات الأوائل من سورة الأحزاب؟ وخصوصاً بعد أن أصبح حاكماً في المدينة المنوّرة. وعاد ﷺ يُخفي في نفسه ما يدور فيها من صراع ولا يتجرّأ على إظهاره. فهو كان يتصارعه فكرتان بسبب مُعطيات الآيات الأوائل التي

ذكرناها. فالفكرة الأولى تتلخّص في أنّ تزويج زيدٍ بزينب كان قد جرى قبل نزول هذه الآيات الأوائل من سورة الأحزاب فهل يعني قول اللّه تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ المستقبل أم يشمل الماضي والحاضر والمستقبل؟ فتارةً يذهب اجتهاده إلى تعلّق هذا الأمر بالمستقبل وأنّ ما مضى قد مضى. وتارةً يخشى أن يكون هذا الأمر يشمل الماضي وفي تلك الحالة لايعود يحقّ له ﷺ أن ينادي زيداً (ابنه) بل أخاه في الدين. ولم يفكّر ﷺ أن يطلّق زينب من زيدٍ ويتزوّجها. وإلى هذه الحقيقة أشار قول اللّه عز وجلّ: ﴿وَتُخۡفِى فِى نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾. أي أنّ أمرَ اللّه تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ واضح الدلالة فلا ينبغي أن تُخفي هذه الحقيقة ولا تُصرّح بها وتدعها خافيةً في نفسك خصوصاً وقد أبداها اللّه ربُّك. وأنت في ذلك تخشى الناس أن عملت على هذا التقليد الجاهليّ كلّ هذه السنوات الماضية. فالنبيّ لا يخشى إظهار الحقيقة التي يُظهرها ربّهُ الذي بعثه نبيّا. بل يتوجّه فوراً للعمل على ما أبداه اللّه عز وجلّ. فأنت نبيٌّ مشرّعٌ وأمر التبنّي وإلغاؤه يدخل في باب التشريع. أي أنّ اللّه عز وجلّ قد لامَ رسوله الصادق الأمين على إدخال اجتهاده في هذا الموضوع ليس إلاّ ولم يقصد تعالى شيئاً آخر. ففعل (تخشى) اشتقّ من (خشيه) وهذه المادّة موضوعة للخوف مع التعظيم كالخوف من الملك والخوف من الوالي أو الخوف من الوالدين. ففي سورة الكهف قال اللّه تعالى في الآية 80 منها: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ قال الأخفش: معناه كرهنا مع احترامنا وتعظيمنا للملك. (محيط المحيط).

وعليه فالمقصود من (تخشى الناس) أي تستحي من الناس أن عملت على التقليد الجاهليّ طيلة كلّ تلك السنوات الماضية فلمّا أصبحت حاكماً تناسيت بنوّتك لزيد. وهذا المعنى لا يُشين محمّداً رسول اللّه ﷺ في شيء. بل يُكبره في الأعين أن خشي أن يقطع صلة بنوّته لزيدٍ الذي كان عبداً لزوجته خديجة ﵂ وحرّره بدون مقابل واتّخذه ابناً له.

ولنأت إلى قول اللّه تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾. فما هي دلالة هذه الفقرة آنفة الذكر؟ الملاحظ يا عزيزي القارئ أنّ اللّه عز وجلّ أورد في هذه الفقرة كلمة (وَطراً) وهي كلمة مشتقّةٌ من وطرَ فالوطر هو الحاجة التي لك فيها همٌّ وعناية. (محيط المحيط) ويعود معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي أنّ زيداً بعد أن بلغ بُغيته وحاجته التي كان يُطالب رسول اللّه ﷺ أن يقضيها له من زينب وهي السماح له بطلاقها فسمح له بذلك وطلّقها. قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾. بمعنى أنّنا أمرناك أن تتزوّجها فنفّذت أمرنا وتزوّجتها مع أنّها مطلّقة زيدٍ الذي كنت تناديه ابنك بالتبنّي وكان متعارفاً عليه بين الناس أنّ زيداً هو ابن محمّد رسول اللّه ﷺ.

وهنا كان من الضروريّ أن أُطلعَ القارئ الكريم على ما فهمه المفسّرون القدماء رحمهم اللّه تعالى من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾. فالعلاّمة الفخر الرازي رحمه اللّه كتب يقول في تفسير هذه الفقرة:

(أي لمّا طلّقها زيدٌ وانقضت عدّتُها وذلك لأنّ الزوجة ما دامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج إليها. فلم يقض منها الوطر

بالكلّية ولم يستغن. وكذلك إذا كان في العدّة، له بها تعلُّق لإمكان شُغل الرحم. فلم يقض منها بعدُ وطره. وأمّا إذا طلّق وانقضت عدّتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلُّق فيقضي منها الوطر. وهذا موافق لما في الشرع لأنّ التزوّج بزوجة الغير أو بمعتدّته لا يجوز. فلهذا قال (فلمّا قضى).

فالملاحظ يا عزيزي القارئ ممّا اقتبسته لك من قول الفخر الرازي رحمه اللّه أنّه فهم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ ما تبادر لذهنه منها لذلك استدلّ بالفقرة التي بعدها وهي: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. على حين أنّ ما تبادر لذهن الرازي كان خطأً بدليل سباق هذا الكلام الإلهيّ. فالسباق شكّل قرينةً منعت هذا المعنى الذي تبادر لذهنه رحمه اللّه. فالسباق ذكره اللّه تعالى وهو: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فهذا القول أشار إلى خلاف مستمرٍّ واقعٍ ما بين زيدٍ وما بين زوجته زينب. وهذا قرينة تحوّل معنى كلمة (وَطراً) ليس إلى وَطر وهو ما يجري بعد الزواج وإنّما الإشارة إلى تحقيق الحاجة التي كان همّ زيدٍ أن يقضيها وهي رجاؤه أن يطلّق زينب. أمّا قوله تعالى في الفقرة التي استدلّ الفخر الرازي بها فليس يوجد قبلها من سباقٍ يمنع المعنى الحقيقي لكلمة (وطراً) الواردة في تلك الفقرة والتي أتناولها بالتدبّر أيضاً.

فلقد قال اللّه تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ

اللّه تعالى استهلّ هذه الفقرة بقوله (لكي) فحرف اللام هنا تعليليّة جارّة وإنّ (كي) بمنزلة أن المصدريّة المضمرة بعدها معنىً وعملاً ومثال ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾. ومعنى ذلك أنّ اللّه عز وجلّ حين استهلّ هذه الفقرة بهذا فقد شاء تعليل عمليّة تزويج اللهّ تعالى نبيّه محمّداً بزينب مطلّقة ابنه بالتبنّي زيد. فقد علّل تعالى وقال: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ وبهذا القول فقد برّأ اللّه تعالى نبيّه محمّداً رسول اللّه ﷺ من أنّه لم يُقدِم من نفسه بدافعٍ شهوانيٍّ على الزواج بزينب مطلّقة زيد، بل أقدم على ذلك بأمرٍ من ربّه عز وجلّ ليلغي بذلك الزواج تقليد التبنّي الذي كان معمولاً عليه في الجاهليّة وكان محمّدٌ قد عمل عليه حين أعتق عبيد خديجة ومنهم زيد الذي فضّل البقاء في خدمة محمّد على حرّيته الشخصيّة فاتّخذه محمّد ابناً له حدث هذا في مكّة المكرّمة. وقد زوّجه ﷺ في المدينة المنوّرة ابنة عمّته زينب تمتيناً لبنّوة زيد عنده. فلو كان محمّد رسول اللّه ﷺ يحبّ زينب وهو الذي كان يشاهدها مراراً فليس من المعقول أن يزوّجها زيداً ومن ثمّ يطلّقها زيدٌ ويتزوّج رسول اللّه ﷺ مطلّقة ابنه بالتبنّي زيد. فهذه ليست تمثيليّةً قام بها محمّد رسول اللّه ﷺ ولكنّ اللّه تعالى الذي جعلَ نبيّه محمّداً نبيّا مشرّعاً هو الذي أمر بذلك لتعود هذه الحادثة مثالاً يُحتذى بها للمؤمنين في موضوع الإعراض عن هذا التقليد الجاهليّ.

ولاحظ معي أيضا يا عزيزي القارئ ما أنهى اللّه عز وجلّ به هذه الآية الكريمة تأكيداً لجميع ما بيّنته لك آنفا. فقد أنهى اللّه تعالى هذه

الآية الكريمة قائلاً: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً﴾. ومعناه أنّ ما جرى في قضيّة طلاق زيد زوجته زينب ومن ثمّ زواج محمّد ﷺ بتلك المطلّقة قد جرى بأمرٍ أصدره اللّه جلّ شأنه ومعلومٌ أنّ أمر اللّه يستحيل إلاّ أن ينفّذ ويصبح مفعولاً أي مقضيّاً ولو خالف رغبة وإرادة كائنٍ ما يكون ولو كان نبيّاً.

وقد أراد اللّه عز وجلّ تنبيه أذهان المؤمنين إلى أنّ ما حدث ليس بالشيء الجديد المبتدع بل حدثت قبله نماذج كثيرة في تاريخ البعثات السماويّة لتحريم أشياء وتحليل أشياء أخرى. لذلك نلاحظ كيف أنّ اللّه تعالى راح يبيّن هذه الحقيقة وقال في آية جديدة: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾. والمعنى أنّ ما حدث لمطلّقة زيدٍ ليس بالمثال التاريخيّ الأوّل. بل هو مثالٌ تكرّر عبر تاريخ البشريّة كلما كان اللّه تعالى يبعث نبيّاً مشرّعاً فينسخ تقليداً قديماً ويأتي بحكمٍ تشريعيٍّ جديد. ويكون في كلّ حالةٍ هناك أمرٌ إلهيٌ ويكون أمر اللّه مفعولاً.

ومن خلال ذلك نكون قد أدركنا بأن زواج محمد رسول الله ﷺ من زينب ابنة عمّته التي كانت حليلة ابنه بالتبنّي زيد الذي حرّره زمن زواجه من خديجة، قد سعى هذا الزواج إلى رسول الله بتقدير من جانب الله تعالى ولم يسع رسول الله ﷺ إلى هذا الزواج من نفسه وهل يعقل أن يكون عمر رسول الله قد تجاوز منتصف الخمسينات من حياته وعنده زوجات أحياء أصغرهنّ عائشة ﵂ والباقي كنّ أرامل ومسنّات،

ومع ذلك يقدم على الزواج من زوجة سابعة مسنّة قاربت الخمسين من عمرها؟ فهذه الحقيقة التاريخيّة تكشف عن أنّ ظاهرة تعدّد زوجات محمد رسول الله ﷺ ما كانت ظاهرةً طبيعيةً بل كانت تمثل جملة استثناءات لها مقاصد حميدة قدرها الله عزّ وجلّ الذي كان وما يزال على المؤمنين رقيباً.

فزينب ﵂ لم تكن شابّة وطائشة حين تزوجها زيد ومن بعده محمد ﷺ بدليل أنها كانت وعلى حسب ما تروي لنا صفحات تاريخهم. أنها كانت تميل إلى صفة النسائية مستغلة كلّ دقيقة من عمرها لتدبغ القماش وتخزره وتبيعه لتكسب من نتاج يديها ليعينها ذلك على التصدق بما كسبته على المساكين من المؤمنين والمحتاجين لتجذب محبّة ربّها إليها وقربه ورضوانه. كما تروي أوراق التّاريخ بان زينب اشتهرت بكونها عابدة وشاكرة ربّها وحامدة في قيام الليل خاصّة. حتّى أنه أُثر عن محمدٍ رسول الله ﷺ أنه قال بحقّ أم المؤمنين زينب ﵂ أنّها كانت أوّاهة على شاكلة ما وصف الله تعالى نبيّه إبراهيم عليه السلام به وقال بحقّه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾. أضف إلى ذلك أنّه أُثر عن عائشة أم المؤمنين قولها بحق زينب (لم أر امرأة قطّ خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل رحماً وأعظم صدقةً وأشدّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عزّ وجلّ.). فزينب ﵂ كانت من السابقات في الإيمان وكان اسمها (برّة) لكنّ رسول اللّه ﷺ استبدل اسمها بزينب لمجانسته لواقعها وقد أمد الله تعالى في عمر زينب إلى أن توفيت في عهد خلافة عمر بن الخطاب.

فلمّا حضرتها الوفاة قالت (إني قد أعددت كفني وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إليّ بكفن، فتصدقوا بأحدهما. وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوقي فافعلوا أيضاً) فمن خلال هذه الوصيّة يدرك القارئ الكريم مدى تقوى زينب أمّ المؤمنين ومدى مكانتها لدى الخليفة من خلال تلك الحيثيّة وكيف أنّها ظلّت مرجع نساء المسلمين. وكانت زينب أول من مات من نساء النبيّ ﷺ فصدق ما روي عنه ﷺ قوله لزوجاته (أسرعكنّ لحاقاً بي أطولكنّ يداً) إشارة إلى زينب التي كانت تسابق في ميدان التصدّق بما تكسبه من نتاج يديها.

وفي تلك السنوات وبعد أن تعدد وجود أمهات المؤمنين في بيت رسول الله ﷺ توالى نزول آيات سورة الأحزاب. ومنها ما أتينا على شرحه وتبيانه. فإن تذكّر القارئ الكريم تلك البيّنات وحقائقها يدرك حكمة تعدّد زوجات الرسول الكريم وأنه كان وراء ذلك أوامر وتقادير إلهيّة فمنها أنّ الله عزّ وجلّ كان قد شاء أن يهيئ للمؤمنات مرشدات تنقل لهنّ ما كان يتنزّل على رسول الله من أحكام شرعيّة وتعاليم تهذبهنّ بها، ولتكون هذه الزوجات مرجع نساء المؤمنين في أمور الفقه والفتوى وغيرها من الأمور. وهي حقيقة أثبتت مصداقيتها توالي الأيام والسنون بعد وفاة رسول الله ﷺ خاصةً.

ولنلاحظ كيف أنّ الخطاب الإلهي في تلك الآيات الكريمة ورد شاملاً جميع زوجات رسول الله بدون أي استثناء. وقد سمّى الوحي السماويّ جميع أزواج النبيّ (**أهل البيت**) و (**أمّهات المؤمنين**) وبدون استثناءٍ أيضاً. وبخلاف ما سعى بعضهم إلى زعمه في هذا المجال.

وها أن الله عزّ وجلّ وقد راح يكشف عن وجهه لرسوله الكريم حين راح يقدّر تزويجه بزوجة ثامنة ويتقدير خاص من عنده وعلى حسب ما سيعرفه القارئ الكريم في حينة الأمر الذي سيثبت منه بأن محمداً ﷺ لم يعدد زوجاته من نفسه، بل إن تلك كانت مشيئة الله سبحانه الذي شاء أن يشكل من تلك الظاهرة مدرسةً إيمانية تضم أمهات المؤمنين أي رئيسات تنظيم (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) التي نتكلّم عنها في هذا الكتاب لإعانة محمّدٍ رسول اللّه ﷺ في أداء رسالته إلى جانب مدرسة حفّاظ القرآن الكريم وغيرها من المؤسّسات التي كان قد أنشأها اللّه عز وجلّ لتحقيق تلك الغاية ولمعالجة أحوال فئة المؤمنين والمؤمنات الناشئة من أمّةٍ أمّيّةٍ ما كان يعرف أغلبهم القراءة ولا الكتابة ولا الحساب.

أمّ المؤمنين رملة بنتُ أبي سفيان ﵁:

فمن المعروف أنّ قريشاً كان يتزعمها رجلان مشهوران هما أبو جهل وأبو سفيان، كانت إحدى بنات أبو سفيان تدعى رملة قد زوّجها والدها لعبيد الله بن جحش الأسدي الذي كان متأثراً بأفكار المسيحيين ولربما عن طريق ورقة بن نوفل المعروف. وكان عبيد الله المذكور أحد أخوة زينب بنت جحش ﵁ التي رويت للقارئ قصّة زواجها من محمّدٍ رسول اللّه ﷺ والتي أصبحت فيما بعد زوجةً لرسول الله ﷺ وبأمرٍ وتقديرٍ من اللّه عز وجلّ. أي أن عبيد اللّه بن جحش الأسديّ كان ابن عمّة رسول الله ﷺ فهو الذي عاصر بعثة محمد ﷺ وتأثر أكثر فأكثر بأفكار وعقائد الذين أسلموا من أقربائه إلى أن تقبّل عبيد الله وزوجته

الإسلام ديناً وفي زمن مبكّرٍ في مكّة المكرّمة فكانا من السابقين في الإيمان ومن المقرّبين من ربّهم جلّ وعلا.

والذي يتبيّنُ لنا من تاريخ تلك الأيّام أنّ أبا سفيان قد بذل جهده لردّ ابنته وصهره عن الإسلام ولذلك أذاقهما الأمرّين من الاضطهاد والتعذيب، فما كان منهما إلاّ أن هاجرا مع من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة تجنُّباً لذاك الاضطهاد والتعذيب من جانب أبي سفيان. ولقد رزق الله تعالى رملة بنت أبي سفيان هناك في الحبشة بنتاً سمّياها (حبيبة)، ولذلك أصبح المؤمنون في الحبشة يُنادون رملة بنت أبي سفيان: يا أمّ حبيبة.

وهناك في الحبشة عادت عواطف عبيد الله تصحو من جديد نحو المسيحية خصوصاً وأنه كان يهوى شرب الخمر. فتنصّر هناك وأدمن على شرب الخمر، وتحت سمع وبصر زوجته أمّ حبيبة التي لم يتزلزل إيمانها بالإسلام لكنّها بدأت تلاحظ أنّ مكانتها اهتزت بين فئة المؤمنين المهاجرين في الحبشة بسبب ما قام به زوجها من الإدمان على شرب الخمر وعلى ترك دينه الإسلامي الحنيف والتنصّر ومخالطة مسيحيي الحبشة الخليعيّ الرُسُن من تعاليم موسى والمسيح ابن مريم عليهما السلام.

فليتصوّر القارئ الكريم ما حدث لذينك الزوجين في دار الهجرة وبعد حدوث ما واجهته رملة بنت أبي سفيان من مواقف زوجها التي ذكرناها؟ فالمرأة تظلّ امرأةً على كلّ حال. وتتأجّج عواطفها وجوارحها في مثل تلك الأحوال. فما هو الموقف الذي اختارته أمّ حبيبة بعدئذ لنفسها؟ إنّ رملة بنت أبي سفيان سليلةِ الزعيم القرشيّ والتي آمنت

بالإسلام عن قناعةٍ وفهمٍ لتعاليمه والتي كانت مشمئزّةً من أفعال زعماء قريش وممّا يفعلونه من أفعالٍ قذرة قد وقعت في الحبشة التي هاجرت إليها للتخلّص من جحيم زعماء مكّة المشركين قد وقعت بعد ما فعله زوجها أقول قد وقعت بين المِطرقة والسندان فمن جهةٍ هي متمسّكةٌ بدينها ومضطهدة من أجل ذلك. ومن جهةٍ أخرى قد خسرت زوجها المؤمن الذي تستند إليه في مُصابها. وإذا علم أبوها أبو سفيان بما جرى ويجري سيشمت بها ويزداد عِداءً لها. ففي هذا الجوّ المحموم اختارت رملة بنت أبي سفيان اعتزال زيارة جميع الناس أو زيارتهم إيّاها ولزمت دارها المستأجرة وهي لا تدري كيف ومن سيسدّد أجارها ومن سيؤمّن لها غذاءها وغذاء ابنتها (حبيبة) التي رُزقت بها في الحبشة.

فتصوّر يا عزيزي القارئ هذه اللّوحة المأساويّة التي آلت إليها أمّ حبيبة في تلك الأيّام فهل انهارت وحاولت الانتحار على شاكلة من يكونون غير مؤمنين ويائسين من هذه الحياة أم أنّها تحوّلت في دور اعتزالها الناس في دارها الاستفادة ممّا زوّدتها تعاليم القرآن الكريم من تعاليم تمتّ إلى معالجة أمثال الحال الذي كانت قد صارت إليه؟ والحقيقة هي أنّ المرء يُمتحنُ صدق إيمانه في تلك الدقائق التي تمرّ عليه متثاقلة. وإنّ صدق إيمان رملة أمّ حبيبة ﵂ تجلّى في تلك الأحوال ونجحت فيما امتحنها به ربّها جلّ شأنه فكيف حدث ذلك؟

ألا إنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ غرس في أفئدة المؤمنين من أصحابه أنّهم آمنوا بربٍّ يسمع ويُبصرُ ويرى ويسمع الدّعاء ويجيبُ من يتضرّع إليه ويدعوه بخلوص قلبه لكونه إلهاً حيّاً قيّوماً لا إله غيره. خصوصاً

وأنّها كانت من قبل وجودها في الحبشة قد جرّبت ذلك وأيقنت بصحّته. لذلك قرّرت رملة أمّ حبيبة أن تُمسك بهذا الحبل الممدود لها من جانب ربّها عز وجلّ في أيّام اعتزالها الناس ومن حولها. فهي اختارت الصّبر والتوجه نحو الدعاء لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً لصالح ما آلت إليه في الحبشة أحوالها. وكانت خطوتها تلك أعظم دليلٍ على أنّ إيمانها بالإسلام كان ثابتاً ثبوت الراسيات.

وراحت أمّ حبيبة تشرف على تربية ابنتها حبيبة. إلى جانب اغتنامها أوقات فراغها للصلاة والدعاء على أعتاب ربّها ليجد لها مخرجاً ممّا آل إليه حالها. فإذا سجدت تخرُّ إلى الأرض ساجدةً باكيةً قانتةً وكلّها يقينٌ بأنّ اللّه عز وجلّ يسمع تضرّعاتها وتاركةً إليه أمرها ومتوكّلة عليه عز وجلّ. وقد شاع بين المؤمنين في الحبشة ما صار إليه حال أمّ حبيبة وانتقلت تل الأخبار شيئاً فشيئاً إلى علم رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وراح رسول اللّه ﷺ يدعو ربّه أن يجد لها فرجاً من عنده وبصورة معجزة ومن باب أنّ رسول اللّه ﷺ هو الأب الروحيّ لكلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ ويهمّه سلامتهم من كلّ سوء. فكان يتألم لحالها لسببين: **الأول** أنها آمنت وفي وقت كان والدها أبو سفيان أعدى أعداء الإسلام. **والسبب الثاني** أنها كانت زوجة ابن عمته الذي ارتدّ وتنصّر وتركها على تلك الحال في بلاد الحبشة بعيداً عن وطنها مكة المكرمة.

وإنّ ما زاد من آلام أمّ حبيبة رضي الله عنها أنّها فُجعت بزوجها بعد تنصّره ومن كثرة إدمانه على شرب الخمر. فقد تسبّب حاله هذا بمرضه وانطراحه في الفراش لمدّةٍ قليلةٍ وقد توفّاه الله تعالى وبعده عادت أمّ

حبيبة زوجته أرملةً ولا أحد يعيلها إلاّ ما حصّلته من سعيها الشخصي. وزادها حالها هذا على الإكثار من الدعاء والبكاء على أعتاب ربّها عز وجلّ إلى درجةٍ كبيرةٍ وحالها يسوء أيضاً عن مرحلة ما قبل موت زوجها. وهنا تتشجّع يا عزيزي القارئ لتطّلع على ما حدث بعد هذا الدعاء والبكاء الطويلين الذي امتدّ أشهراً عديدة.

وقبل أن أُطلعك يا عزيزي القارئ على ما نقلته لنا كتب التراث وبروايتها هي عن نفسها وعمّا حدث لها أدعوك قبل ذلك لتتصوّر نفسك مكانها وتمر عليك تلك الأحداث المتوالية المحزنة التي ذكرتها لك فتتصوّر نفسك: مهاجراً، والزوج يرتد عن إسلامه ويدمن على الخمرة ويمرض ويموت، كما تتذكّر بأنّ هذه المؤمنة السابقة في الإيمان كانت ابنة زعيم قريش وأنّ زوجها الذي هاجر معها ترك لها ابنة صغيرة السن تحتاج إلى الإنفاق عليها وإلى رعايتها. فهل بإمكانك أن تتصوّر مصيبة تحلّ بأمّ حبيبة أكبر من هذا المصاب وتحلّ بها وهي مهاجرةً بعيدةً عن أهلها ووطنها؟ فهذا هو الحال الذي آل إليه حال أمّ حبيبة وهي بعيدة عن وطنها في الحبشة والتي تقبّلت الإسلام ديناً في مكّة المكرمة قبل هجرتها إليها وعن قناعة بوجود الله الواحد الأحد الذي لا إله غيره، وببطلان ما كان يعبده قومها من الأصنام. فإن أنت تصوّرت هذا كلّه فتعال معي لِتسمع ما روته أمّ حبيبة بنفسها.

قالت أمّ حبيبة رضي الله عنها وهي تروي ما حدث لها في تلك الأيام أنّها وبعد دعاء وتضرع مستمرين على أعتاب ربّها عزّ وجلّ خلال أدائها لصلواتها. قالت: (نمت ذات ليلة والدموع تجري من عينيّ فماذا أرى

في منامي؟ رأيت وكأن أحداً قادماً جاء يناديني بصوتٍ عالٍ : يا أمّ المؤمنين. فاستيقظت فزعة مما سمعته ومال ظنّي على أنه لربما كان في رؤياي هذه بشارة دالة على أنّ محمداً ﷺ سيتزوجني بعد عودتي من الحبشة إلى المدينة المنورة مع من سيعودون إليها في الأيام المقبلة.

وأضافت تقول: ولم تمض مدّة طويلة على تلك الرؤيا إلاّ وأسمع طارقاً يدقّ باب منزلي هناك في الحبشة. فتعجبّت وتساءلت ومن سيكون هذا الطارق للباب وأنا لا أزور أحداً ولا يزورني أحد؟ وفتحت الباب وإذ بفتاة حبشية ابتدرتني بالكلام فعرّفتني على نفسها أنها خادمة نجاشي الحبشة نفسه وأضافت تقول لي وبدون أيّة مقدمات : يا أمّ حبيبة يطلب منك النجاشيّ أن توكّلي لك أحداً من معارفك لأنّ نبيّ العرب محمد ﷺ قد أرسل يخطبك من النجاشيّ.

وبعد أن بلّغت خادمة النجاشيّ أمّ حبيبة رسالة النجاشي التي حمّلها إياها إليها إلاّ وعمدت أمّ حبيبة داخل بيتها فسجدت هذه الصحابية الجليلة شكراً للّه عز وجلّ علاّم الغيوب وأيقنت أنّه تعالى سمع أدعيتها واطّلع على مُصابها واتّخذ هذا القرار الذي بشّرها بمضمونه في منامها حين سمعت وهي نائمةٌ من يناديها يا أمّ المؤمنين. فطارت أمّ حبيبة فرحاً بما سمعته لأنه جاء مصدقاً لما فهمته من رؤياها فماذا فعلت؟ أرسلت على الفور وبوسيلةٍ ما وراء خالد بن سعيد العاص الذي كان في الحبشة مهاجراً كمثلها فأخبرته الخبر ووكلته عنها. ومن ثمّ التفتت إلى خادمة النجاشي فخلعت ما بيدها وأصابعها من حليّ فضيّة وأهدتها لتلك الخادمة لقاء ما بشرتها به. وهي تردد

بصوت خافت قول ربّها عزّ وجلّ الوارد في أوائل آيات سورة الطلاق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

وأدركت أنها عندما آمنت بالإله الواحد الذي لا شريك له، كانت قد آمنت بإله حيّ وقيّوم لا إله إلاّ هو وليس هو تعالى كالأصنام التي يعبدها قومها والتي هي من صنع أيديهم لا تسمع ولا تجيب.

فلمّا تسلّمت خادمة النجاشيّ هديّة أمّ حبيبة فرحت هي بدورها بتلك الهديّة وعادت خادمة النجاشي مُسرعةً إلى سيّدها تنقل له خبر ما فعلته أمّ حبيبة رضي الله عنها وبخبر من وكلته أم حبيبة ليكون وليّها في الزواج من محمد رسول الله ﷺ. وذات مساء يوم جمع النجاشيّ المسلمين المهاجرين في قصره وأطلعهم على ما طلبه منه محمد رسول الله ﷺ وقام بعقد نكاح أم حبيبة على رسول الله ﷺ غيابياً وبحضور خالد بن سعيد العاص كذلك دفع لخالد الذي توكّل عن أمّ حبيبة في هذا الزواج مهر أمّ حبيبة نيابةً عن محمد رسول الله وقدره أربعمائة دينار حبشيّ. ومن ثمّ أمر بإطعام جميع الحاضرين من المسلمين وأهدى أمّ حبيبة من قبله عدة أنواع من العطور وانفضّ الجمع من عنده وبعد أن قصصتُ عليك يا عزيزي القارئ قصّة ما جرى مع هذه الصحابيّة الجليلة التي كانت من أوائل مَن أسلموا بالرغم من أنّها كانت ابنة عظيم قريش وهو أبو سفيان الذي اضطهد ابنته وأذاقها مُرّ العذاب ولتعود إلى دين آبائها وأجدادها فلم تستجب لوالدها وهاجرت إلى الحبشة مع من هاجر إليها وحدث معها هناك ما حدّثتك عنه من مآسي ومصائب صمدت في

وجهها ولم يتزلزل بسبب ذلك كلّه إيمانها ولجأت إلى ربّها تدعوه وهي بعيدة عن أهلها ووطنها فسمع اللّه تعالى دعاءها وأراها تلك الرؤيا وحقّق لها مضمونها. ففكّر يا عزيزي القارئ في نفسك: وهل حدث ذلك كلّه صدفةً أم بأمرٍ من الله تعالى وتقديره؟ وألا تتّفق معي وتقول أنّ أمّ حبيبة وأمثالها كُنّ يستحققن رئاسات التنظيم النسائيّ الذي سمّيته لك (**مؤسسّة الإرشاد النسائي**) وأنّ أمّ حبيبة كانت أيضاً تستحقّ هذا المنصب عن جدارة واستحقاق؟ فإن أنت وافقتني الرأي فقد اعترفت في الوقت نفسه أنّ ما حدث لأمّ حبيبة كان قد حدث بتقدير الله تعالى الذي أرسل محمداً بدعوة الإسلام وكان بالمؤمنين برسوله الصادق الأمين وبالمؤمنين رؤوفاً رحيما؟ ولا ينبغي لك أن تستهين بما رأته أمّ حبيبة وتحقّق وفقاً لبشارتها فلقد كانت تلك الرؤيا الرحمانيّة الصادقة وحياً إلهيّاً أوحاه اللّه تعالى إلى أمّ حبيبة من وراء حجاب. ومصداق قوله جلّ شأنه في الآية 51 من سورة الشورى التي ورد فيها قول اللّه عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾. وكانت رؤيا أمّ حبيبة وحياً إليها من وراء حجاب. وجاء الوحي المذكور بصدد إنشاء اللّه تعالى ذاك التنظيم النسائيّ الذي أتكلّم عنه في هذا الكتاب والذي ترأّسته تلك النُخبة من الصحابيّات اللّواتي كُنّ أرملاتٍ ومن السابقات في الإيمان وتحت لقب (**أمّهات المؤمنين**).

قالت أمّ حبيبة: حدث هذا فانكشفت لعيني معارف لم أكن لأعرفها بسعي الشخصي لكنّي عرفتها بطريق تقوى الله تعالى وبالصبر

وبالدعاء بين يديه تعالى وقد ذهب الهمّ والغمّ عن صدري وانجلى الفقر عنّي بعد أن أصبحت الدّنانير بين يديّ. وثبت لي أنّ بيننا نبيّ اللّه محمد رسول اللّه ﷺ يرعى كلّ من آمن على يديه وبدقّة متناهية تليق بسيد المرسلين.). واستمرّت أمّ حبيبة مقيمةً بعد هذا الحدث الذي ذكرناه في الحبشة زمناً غير قصيرٍ إلى أن أتى يومٌ تجمع المهاجرون من المسلمين هناك في الحبشة ليعودوا إلى ديارهم فنقلتهم من هناك سفينتان إلى جدّة في أرض الحجاز. وانتقلوا فيها سيراً على أقدامهم إلى المدينة المنورة. فوصلوها بعد انتهاء رسول الله وأصحابه من فتح خيبر.

وعلم رسول الله ﷺ بوصولهم ففرح بعودتهم سالمين وأخذ يعانقهم واحداً واحداً إلى أن وقعت عيناه على أمّ حبيبة التي انتظرها طويلاً فنادى على بلال الحبشي ﷺ وأمره أن ينزلها في المكان الذي كان قد خصّصه لإنزالها فيه وبجانب أمهات المؤمنين. وعلى هذه الصّورة اكتملت قصّة هذه الزوجة التاسعة من الزّوجات التي كان قد قدّر الله عزّ وجلّ من فوق عرشه تزويجهنّ رسول الله ﷺ وجمعهنّ تحت رايته للغرض الذي كتبنا هذا الكتاب لبيانه وتوجيه الأنظار إليه هذا الغرض الذي لم ينتبه الناس إليه وتركوا أعداء الدين الإسلاميّ يتّهمون محمّداً رسول اللّه ﷺ بسبب جهلهم لحقيقته فهم يزعمون أنّه كان نبيّاً شهوانيّ نساء. على حين أنّي أثبت كذب الادعاء المذكور وبيّنت حقيقة جمع تلك الأرامل السابقات في الإيمان تحت رسول اللّه ﷺ وبهذا الأسلوب الذي تلاءم مع الوضع الاجتماعيّ الذي كان سائداً أيّام زمان وبشكلٍ مُعجزٍ لا شكّ في ذلك.

وأسأل هنا: وهل هناك اليوم من هو لا يدري بأحداث عام الفيل وكيف أنّ الجيش الذي أرسلته الحبشة لهدم الكعبة وكان جيشاً عرمرماً تجشّم الصّعاب لتأدية الأمر بهدم كعبة مكّة المكرّمة وكيف قضى اللّه تعالى على جيش أبرهة الحبشيّ وهو على بعد عشرات الأمتار من الكعبة المشرّفة وبأسلوبٍ معجز ما يزال الناس يروونه ويتحدّثون عنه. وبذلك كان اللّه عز وجلّ هو الذي أفشل بذلك تدبير الطغاة والجبابرة من النّاس ولم تتحقق إرادة وأمر من أرسل ذلك الجيش العرمرم من الحبشة وفي مقابل ذلك فأم حبيبة أثبتت تقلّبات حياتها أنّها كانت تمثّل أنموذجاً من ذاك الإعجاز الإلهيّ فقد بشّرها ربّها بتلك البشارة الرحمانيّة في رؤياها وفي أحلك أيام حياتها وقد حقق الله جلّ شأنه فيما بعد ما قدّره اللّه تعالى وبعد سنوات من تلك البشارة التي بشّر بها أمّ حبيبة وبأسلوب معجز وهي ما تزال بعد في الحبشة. فالمثال في هاتين الحادثتين واحدٌ يدلّ على وجود اللّه ربّ العالمين فعلى حين لم يفلح أمر الملك الذي أرسل جيش أبرهة الحبشيّ لتدمير الكعبة المشرّفة، فقد أفلح أمر الله تعالى الذي أمر بإفشال ذلك المخطّط. فهذا درس ينبغي ألاّ ينساه كلّ مؤمن يريد وجه الله ورسوله والدار الآخرة ويفهم تلك البشارة التي كانت تلقّتها أمّ حبيبة ﵂ على الشكل الذي تحقّق في تلك الأيّام.

ولنعُد يا عزيزي القارئ إلى ما حدث بعد أن وقعت عينا رسول اللّه ﷺ على أمّ حبيبة وكيف أنّ رسول اللّه ﷺ قد أمر بلالاً الحبشيّ أن يأخذ أمّ حبيبة إلى دار أمّهات المؤمنين فقد تمّ بعد ذلك زواجه منها وحين

تمّ زواج رسول الله ﷺ من أمّ حبيبة فقد كانت تلك الأرملة في الأربعين من عمرها. ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من استقبال مهاجري الحبشة من أصحابه قصد منزل أمّ حبيبة واستأذنها بالدخول عليها فأذنت له فدخل عليها واستقبلته برش عطور النجاشيّ عليه فسرّ لاستقبالها إيّاه بهذا الاستقبال، وطلبت من رسول الله أن يدعو من اللّه تعالى الذي استجاب أدعيتها وهي في بلاد الحبشة لهداية أبيها أبو سفيان وموضّحةً لرسول اللّه ﷺ أنّ هداية أبيها هو ما بقي من همومها وأحزانها في صدرها.

ومن عجيب الصدف أنّ أبا سفيان وفد إلى المدينة المنوّرة في تلك الأيّام مطالباً بتمديد المدّة المتّفق عليها في صلح الحديبيّة. فوجئ رسول الله ﷺ بزيارة أبي سفيان إياه في المدينة المنورة وبقصد طلب تمديد المدّة التي عقدها مع مندوبيّ أهل مكّة المكرّمة. فرفض رسول اللّه ﷺ طلب أبا سفيان المشار إليه. فلمّا يئس أبو سفيان من تحقيق ما قدم من أجله إلى المدينة المنوّرة فقد استأذن رسول اللّه ﷺ أن يسمح له بزيارة ابنته رملة بنت أبي سفيان أمّ حبيبة أمّ المؤمنين رضي اللّه عنها. فسمح له رسول اللّه ﷺ بزيارة ابنته أمّ حبيبة. وهنا فاجأ أبو سفيان ابنته بتلك الزيارة فاستقبلته ابنته أمّ حبيبة بفتور وعلى شاكلة ما كان المسلمون والمسلمات يستقبلون المشركين في عصرهم. فأحسّ أبوها بما كان وراء استقبال ابنته له من فتور من إشارات فارتجف غضباً من تصرفها على ما ترويه كتب التراث. فلمّا دعته لقبول الإسلام ديناً رفض دعوتها بإباء وكبرياء، وتركها وخرج من عندها غاضباً حزيناً وعاد إلى مكة المكرّمة

يجر أذيال الخيبة والخسران في مهمته وفي زيارته لابنته أيضاً. ولم تمض على تلك الحادثة فترة زمنية قليلة إلاّ وتوجه رسول الله ﷺ لفتح مكة المكرمة على رأس عشرة آلاف من المقاتلين من أصحابه الكرام. ويعرف القارئ الكريم ما جرى وقتئذ وكيف أسلم أبو سفيان وأعلن رسول الله ﷺ حين دخوله مكّة المكرّمة أنّ من دخل بيته فهو آمن ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن أيضاً. ووصل خبر إسلام معاوية بن أبي سفيان مسامع ابنته أمّ حبيبٍ رضي اللّه عنها فارتاحت أمّ المؤمنين لسماع ذاك الخبر ارتياحها لعودتها من الحبشة بعد طول غياب.

ومضت سنواتٍ على زواج رملة بنت أبي سفيان أنّ حبيبة الصحابيّة الجليلة السابقة في الإيمان من رسول اللّه ﷺ أمضتها بنفس التوجيه الذي وجّه اللّه تعالى به أزواج النبيّ من توجيهاتٍ لمساعدته في مجال توجيه المسلمات وإرشادهن وإطلاعهنّ على فقه دينهنّ فلمّا مضت السنوات العشرة التي أمضاها رسول اللهّ ﷺ في المدينة المنوّرة حاكما يُكمل تبليغ رسالة ربّه عز وجلّ حلّت ساعة فراقه لأزواجه ولهذا العالم الدنيويّ وانتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن أتمّ ما كان مسؤولاً عنه تجاه ربّه عز وجلّ انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعادت أزواج رسول اللّه ﷺ مراجع دينيّةٍ في كلّ شيءٍ يمتّ إلى ديننا الحنيف بصلةٍ من الصلات فقد راحت أمّ حبيبة أمّ المؤمنين تتغنّى كيف كان ربّها قد بشّرها بزواجها من رسول اللّه ﷺ وهي في أحلك ساعاتها في بلاد الحبشة وبعد توجّهها نحو الدعاء والتضرّع بين يدي ربّها عز وجلّ في صلواتها وتحثّ كلّ من يسمع قصتّها أن يتّعظ بها ويؤمن

بوجود اللّه الحيّ القيّوم وعلاّم الغيوب وتترك بذلك آثاراً طيّبةً وعميقةً في نفوس مستمعيها. وهي تحثّ المؤمنين والمؤمنات على الصّبر والجلد في تحمُّل المصائب والابتلاءات التي تواجههم في حياتهم وهم يضحّون في سبيل الله تعالى وتدفعهم إلى الدعاء بين يدي ربهم ليرفع عنهم ما هو مكتوب عليهم، ومن خلال تجاربها الروحيّة الشخصيّة التي ذكرناها والتي لم نأت على ذكرها. وضربت بذلك المثل الأعلى بعد وفاة زوجها رسول الله ﷺ في البذل والعطاء وفي مساعدة المظلومين والمحتاجين وأصبحت مرجعاً فقهيّاً للمؤمنين والمؤمنات من بعد وفاته ﷺ. ولقد أمدّ الله جلّ شأنه في عمر أمّ حبيبة أمّ المؤمنين فعاصرت أيام خلافتي أبا بكر وعمر بن الخطاب فلمّا فعل البغاة ما فعلوه زمن خلافة عثمان بن عفان ﷺ كانت أمّ حبيبة واحدة ممن كنّ يزورونه ويحضّرون له ما يحتاجه من ماء وزاد حين كان البغاة يحاصرونه في قصر خلافته.

ولقد أسلمت أمّ حبيبة روحها سنة أربع وأربعين للهجرة، فدفنوها في مقبرة أمهات المؤمنين في البقيع. وثبت من ذلك كلّه أنّ ظاهرة تعدد زوجات الرسول الأعظم لم تظهر إلى الوجود بسبب أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ كان شهوانيّ نساء كما يزعمونه بل كان وراء تلك الظاهرة أوامر إلهيّة وتقادير سماويّة في صالح تبليغ نبيّ اللّه محمّد لرسالة ربّه عز وجلّ وأنّ تلك الأوامر الإلهيّة وتلك التقادير وضعت أساساً لتنظيمٍ نسائيٍّ بأسلوب مُعجزٍ تلاءم مع البيئة التي أنشأها تعالى فيه وكان لها مقاصد وأهدافا وقُيّدت تلك الزوجات الرئيسات بقيود صارمةٍ لتصبح تلك الرئيسات أسوةً لجميع المؤمنين. وفي الحقيقة فقد أصبحت كلّ

زوجة تزوّجها رسول اللّه ﷺ بتوجيهٍ من ربّه عز وجلّ مدرسةً مستقلةً بحدّ ذاتها وكانت محور رعاية وإرشاد نساء المسلمين في فقه دينهنّ خاصة من بعد وفاة محمد رسول الله ﷺ وخلال أزمنة الخلافات الراشدة من بعده ﷺ.

أمَ المؤمنين ميمونة بنت الحارث ﵂:

إذا قمت يا عزيزي القارئ بمراجعة صفحات تاريخ الدعوة الإسلاميّة وراجعت أسماء النساء اللّواتي أسلمن مبكّراتٍ بعد إسلام خديجة بنت خويلد التي كانت زوجة محمّدٍ ﷺ عندما تلقّى وحي الرسالة السماويّة. تمرّ عليك قصّة امرأة كانت من أوائل النسوة اللواتي أسلمن واعتنقن الدين الإسلاميّ ديناً وصمدن في وجه الأعاصير التي هبّت من جانب زعماء قريشٍ المشركين عبدة الأصنام فمن هي هذه المرأة التي أتحدّث إليك عنها؟ إنّها المرأة التي اشتُهرت بلقب (أكرم عجوزٍ في الأرض أصهاراً). تسألني: لماذا لقّبوها باللّقب الذي ذكرته لي؟ أجيبك وأقول: إنّ هذه المرأة كان اللّه تعالى قد رزقها بعددٍ من البنات ربّتهنّ تربيةً صالحةً فنشأن صالحاتٍ يتحلّين بكثيرٍ من الصفات الحميدة. وقد كان قد تزوّج أبو بكرٍ الصدّيق ﵁ بإحداهنّ كما تزوّج حمزة بأخرى من بناتها كذلك تزوّج العبّاس بابنةٍ ثالثة. وكان من نصيب جعفر وعلي ابنا أبي طلب ﵁ ابنتين أخريين من بناتها وأخيراً فقد كان من نصيب محمّدٍ ﷺ ابنتها التي ترمّلت وهي شابّة وهي (برّة بنت الحارث) التي أرويَ لك يا عزيزي القارئ قصّة زواجها برسول اللّه ﷺ.

فكثرة الأصهار العظماء هؤلاء أصبحوا جميعهم أصهارها ولذلك اشتُهرت بلقب (أكرم عجوزٍ في الأرض أصهاراً). فهذه العجوز كانت (هند بنتُ عوف بن زهير بن الحارث).

وكان لهذه العجوز التي ذكرناها ابنة اسمها (برّه بنت الحارث). فتقدّم لخطبتها أبو رُهم بن عبد العزّى العامريّ. ولم ترفضه (برّه وأمّها) وتمّ زواجها منه. فعاشا كزوجين شابّين متآلفين إلى أن مرض زوجها المذكور وهو في عزّ شبابه فلم يُعمّر طويلاً فمات وهو شاب وترمّلت زوجته (برّه) وكان هذان من المؤمنين الأوائل في الإسلام أيضاً. وقد أثّر موت زوج (برّه) الشاب في نفسها كثيراً فعاهدت نفسها ألاّ تتزوج بعد موته وفاء له. وبقيت بلا زواج سنوات عديدة تعيش في منزل العبّاس عمّ رسول اللّه ﷺ وكما قلت فقد كانت (برّه) من أوائل المسلمات في مكّة المكرّمة وتحمّلت الاضطهاد بسبب عقيدتها لكنّها لم تهاجر إلى الحبشة.

وقد هاجر محمّد رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنوّرة لكنّ (برّه بنت الحارث) هذه لم تهاجر إليها وبقيت في مكّة المكرّمة وكانت تستطلع أخبار المهاجرين والأنصار كما تستطلع ما أخبار ما كان ينزل من آياتٍ كريمة في المدينة المنوّرة على رسول اللّه ﷺ أوّل بأوّل وتحاول حفظها أيضاً.

وأنت تذكر يا قارئي العزيز معاهدة صلح الحديبيّة التي نصّت على أن يرجع رسول اللّه ﷺ وأصحابه عن مكّة المكرّمة عام عقد المعاهدة المذكورة على أن يحجّوا إلى مكّة المكرّمة في العام الذي يليه وأن يُقيموا

فيها ثلاثة أيّام على أن تكون سيوفهم في أغمادها وليسوا كالمحاربين. فعلمت (بره بنت الحارث) بتلك المعاهدة وجلست تعدّ أيّام ذاك العام تنتظر قدوم رسول اللّه وأصحابه إلى الحجّ لتنظر إلى وجه النبيّ الذي آمنت به وبرسالته. ومرّ العام سريعاً وإن أحسّت (برّه) المؤمنة أنّه مضى أكثر من عام من كثرة الانتظار. فلمّا حلّ وقت الحجّ ركب رسول اللّه ﷺ ناقته القصواء وسار إلى مكّة المكرّمة وبصحبة ألفي صحابيٍّ من صحابته. وهم يحثّون السير شوقاً للسعي والطواف حول الكعبة التي أقامها إبراهيم وابنه إسماعيل بأمر ربّ العالمين. وحين وصلوا مكّة المكرّمة كان المشركون قد أخلوها فدخلها رسول اللّه وأصحابه مهلّلين مكبّرين. واعلم يا عزيزي القارئ أنّ الذين بقوا في مكّة بعد إخلاء المشركين لها أولئك المؤمنون والمؤمنات الذين لم يهاجروا منها إلى المدينة المنوّرة. وكان من تلك المؤمنات (برّه بنت الحارث) وكما ذكرت سابقاً.

وكنت قد قلت سابقاً بأنّ برّه بنت الحارث المذكورة كانت قد عاهدت نفسها بعد وفاة زوجها ألاّ تتزوّج بعد فراق زوجها الذي كانت فد أحبّته وأحبّها وعاشا في محبّة ووئام. لكنّها وخلال سنوات بقائها في مكّة المكرّمة من بعد وفاة زوجها وصلتها آيات سورة الأحزاب التي نزلت في المدينة المنوّرة وأصغت إلى قول اللّه عز وجلّ في الآية 50 قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فتحركت عواطفها نحو رسول الله ﷺ وقررت وقتها في نفسها أن تهب نفسها للذي أسلمت على يديه

ولو أنّها كانت أرملة. فماذا حدث بعد قيام رسول اللّه وأصحابه بأداء مناسك الحجّ؟

فالذي حدث بعد أداء الحجّ أنّ رسول اللّه وأصحابه راحوا يطوفون بأحياء مكّة المكرّمة. وكانت النساء المؤمنات يُطللنَ من نوافذ وشرفات بيوتهنّ ومن فوق أسطحتها لمشاهدة محمّدٍ رسول اللّه ﷺ والشوق إليه يغلبهنّ ودموع الفرح تسيل من مآقيهنّ. فالكلّ كان يرقبه متلهّفاً إليه. وكانت برّه بنت الحارث من جملة من كان يرقب بلهفةٍ زائدةٍ وهي تردّد في سرّها الآية التي أوردتها أعلاه ويراودها حلمها أن تهب نفسها لرسول ربّ العالمين.

وفي تلك اللحظات لم تعُد (برّه) تتمالك نفسها وتجاهلت وعدها مع نفسها ألاّ تتزوّج بعد وفاة زوجها الشاب، وهنا مالت (برّه) على أذن أختها أمّ الفضل التي كانت بجانبها وهمست في أذُنها ما صممّت على الإقدام عليه قائلةً: ألا تتذكّرين يا أختي قول اللّه عز وجلّ في سورة الأحزاب عن امرأة وهبت نفسها للنبيّ ﷺ؟ فأنا لم أسمع حتّى اليوم أنّ امرأةً وهبت نفسها لرسول اللّه ولعلّ اللّه تعالى يجعلني تلك المرأة المشار إليها في تلك الآية المذكورة ولعلّه يتحقّق بذلك ما ورد في تلك الآية من سورة الأحزاب.

أصغت أمّ الفضل الصحابيّة الجليلة التي يذكر التاريخ أنّها شاهدت بعد معركة بدر الكبرى أبا لهبٍ يصفعُ غلامها لإظهاره فرحه بانهزام المشركين في معركة بدر الكبرى ومقتل أبا جهلٍ فيها فلم تتمالك أمّ الفضل نفسها فحملت عموداً كان بقربها وانهالت به على أبي لهبٍ

بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ على رأسه وعلى كلّ جنبٍ من جسمه وطرحته بذلك في الفراش فمرض ومات. فأمّ الفضل هذه ما إن سمعت من أختها (برّه) ما سرّته لها إلا واغتنمت تلك الفرصة وأفضت إلى زوجها العبّاس تلك الكلمات وتلك الرغبة التي سمعتها من شقيقتها. فأسرع العبّاس إلى ابن أخيه يُخبره خبرها وجاء ردّ محمّد رسول اللّه ﷺ بالموافقة. ففرحت (برّه) فرحاً لا يوصف بما جاءها به عمّ الرسول من خبر الموافقة. لكنّ الوقت راح يتداركهم فلم تعد هناك من أوقاتٍ تكفي لزواج محمّد رسول اللّه ﷺ من برّه بنت الحارث التي وهبت له نفسها وحقّقت ما أشارت إليه الآية من سورة الأحزاب. فماذا فعل رسول اللّه ﷺ ليحقّق ذلك؟ غادر رسول الله وأصحابه مكة المكرّمة نزولا عند شرط معاهدة صلح الحديبيّة لكنّه ترك مولاه وراءه في مكة ليلحق به بصحبة (برّه بنت الحارث) التي وهبت له نفسها مصداق الآية من سورة النساء وقد فهم أنّ ما جرى إنّما جرى بتقديرٍ من ربّه عز وجلّ.

قام أبو رافع ففعل ما كلّفه المصطفى ﷺ به فلحق هو وبرفقته (برّه بنت الحارث) إلى أن اجتمعا برسول اللّه وصحبه في موقعٍ يقال له (سرف). وهناك وقف رسول اللّه ﷺ خطيباً وأعلن خطبته وزواجه من (برّه بنت الحارث) التي وهبت له نفسها مصداق الآية من سورة الأحزاب. ولم يكتف بما أعلنه بل واستبدل اسم (برّه) باسم (ميمونة) تيمّناً بفتح مكة. ومن ثمّ واصلوا الرجوع إلى المدينة المنورة فوصلوها سالمين غانمين بفضلٍ من اللّه وإحسانه. وبذلك انضمّت (ميمونة) إلى

(**أمّهات المؤمنين**) وأصبحت عضوة من رئيساتهم بتقديرٍ من اللّه عز وجلّ علاّم الغيوب والفعّال لما يريد.

انتقلت (ميمونة بنت الحارث) التي وهبت نفسها لرسول اللهّ ﷺ أقول انتقلت (ميمونة) من جوّ مكّة المكرّمة الذي وفت فيه بوعدها لزوجها الذي فارقها وهو شاب. انتقلت من الجوّ الذي أمضت فيه سنوات طويلةٍ في لوعة فراقها زوجها وفراق نبيّ الإنسانيّة الذي كانت من أوائل النسوة التي آمنت به ﷺ والذي هاجر من مكّة إلى المدينة المنوّرة. انتقلت إلى جوّ المدينة المنوّرة وقد أصبحت في ظلال من آمنت به وناضلت من أجله ووهبت نفسها له. وعلى حين كانت تتنقّل بين أقاربها في مكّة من بيتٍ إلى بيتٍ فقد أصبح لها في المدينة المنوّرة بيتٌ مستقلّ وهي رئيسة للمؤمنين. أي أنّها انتقلت من حياة الهامشيّة إلى حياة المحوريّة بين نساء المسلمين. وعادت إحدى (**أمّهات المؤمنين**) اللّواتي خوطب رسول اللّه ﷺ فيهنّ قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾.

عندما دخلت هذه التي وهبت نفسها لرسول اللّه ﷺ جوّ (**أمّهات المؤمنين**) اندفعت تستجيب لمطالب ربّها التي طالب بها (**أمّهات المؤمنين**) في الآيات من سورة الأحزاب بنفس العزم وبنفس الإرادة اللتين استعملتهما بعد وفاة زوجها ومعاهدتها نفسها بالإعراض عن الزواج بعده إخلاصاً له ووفاءً. فأمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث

اندفعت في الجوّ الروحيّ الجديد لا همّ لها إلاّ أن تتعبّد اللّه وتحمده وتشكره على هذه النقلة التي نقلها إيّاها وعلى عطاء هذا الحبل الذي مدّه لتُمسك به وتنافس في مجال طلب محبّة اللّه تعالى وطلب قربه ورضوانه. حتّى عادت في حقيقة أمرها أسوةً حسنة في مجال إطاعة اللّه ورسوله وأسوة حسنة لنساء المسلمين. وكانت كلّما تذكّرت ماضيها تكاد لا تصدّق ما آلت إليه. فعاشت كرئيسةٍ للنساء خاصّةً وهي تحدّث بعظمة ربّها وعظيم قدُراته وهي ترى نفسها غير قادرة على حمد الله على فضله وكرمه الذي شرّفها به. ولم يعرف عنها أنها واجهت إحدى بقية أزواج رسول اللّه ﷺ بكلمة لا ترضاها.

وأرى يا عزيزي القارئ أن أعطيك دليلاً محسوساً يثبت مصداقيّة ما ذكرته لك أخيراً عن حالها الجديد في المدينة المنوّرة. فبالرّغم من أنّ (ميمونة بنت الحارث) رضي اللّه عنها قد أمدّ اللّه في عمرها بعد انتقال المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعاشت بعده مرجعاً للمؤمنين في أمور دينهم قرابة نصف قرنٍ من الزمان. فقد أوصت حين شعرت بدنوّ أجلها ووفاءً لذكرى فضل اللّه عليها بهذا الزواج الذي دُفعت إليه دفعاً لا شعوريّاً بعد سنوات من ترمّلها وفقدها زوجها الأوّل (أبو رهم العامريّ) فقد أوصت في وصيّتها الأخيرة أن يذهبوا بها إلى موقع (سرَف) القريب من مكّة المكرّمة والذي تمّ فيه زواجها من سيّد المرسلين وخاتم النبيّن ﷺ وأن يدفنوها هناك في ذاك الموقع تخليداً لتلك الذكرى التي لم تغب عن ذهنها طيلة تلك المدّة الطويلة للحظةٍ من الزمان. وهل تسمع يا عزيزي القارئ بمثل هذه الواقعة إلاّ في قصصِ الحبّ والعشق

والخيال؟ فلهذه الصفات الحميدة التي كانت (ميمونة) تتّصف بها أختارها ربّ العالمين لمنصب (**أمّهات المؤمنين**) ورئيساتٍ للمؤمنين.

وتصوّر يا عزيزي القارئ أنّ (ميمونة) هذه بالرغم كلّ هذه العظمة التي كانت تتّصف بها شخصيّتها. وبالرّغم من هذا التخليد لذكرى زواجها برسول اللّه ﷺ. فإنّها حين شعرت أنّ رسول اللّه ﷺ قد دنا أجله لاشتداد مرضه الذي توفّاه اللّه عز وجلّ فيه فقد ورد في كتب التراث أنّ أمّ المؤمنين (ميمونة بنت الحارث)، ومراعاة من جانبها لشعور أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصدّيق ﷺ فقد ارتأت أن يمضي رسول اللّه ساعاته الأخيرة في بيت عائشة التي سبقتها في كلّ شيء: في الإيمان وفي الزواج من رسول اللّه ﷺ وفي تلقّي علوم الدّين عنه ﷺ. فهل تُقدمُ ميمونة بنت الحارث على هذه الخطوة التي ذكرناها إلاّ دلالةً على كامل اتّزانها وكبير عقلها؟

والذي يتبيّن من كتب التراث أنّ أمّ المؤمنين (ميمونة بنت الحارث) قد أمد الله جلّ شأنه في عمرها بعد وفاة زوجها رسول الله ﷺ وتوفاها الله جلّ شأنه في سنة إحدى وخمسين للهجرة وبعد أن بلغ عمرها أكثر من ثمانين عاماً. وقد نفّذ المسلمون ما ورد في وصيّة أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث بما يتعلّق بمكان دفنها وهو موقع (سَرَف). فنقلوها إلى هناك على الأكفّ ودفنوها حيث أرادت أن تدفن علماً بأنّها أثبتت في وصيّتها تلك أنها لم تقدم على ما أقدمت عليه بدافعٍ شخصيٍّ وحسب بل وبتحريك من ربّها عز وجلّ ومن وراء حجاب.

وهكذا يا عزيزي القارئ تكون قد أدركت أنّ محمّداً بن عبد اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء ولم يسع من نفسه للزواج بهذه الصحابيّة السابقة في الإيمان بل سعى هذا الزواج إليه بتحريكٍ من اللّه تعالى مقلّب القلوب والفعّال لما يريد والذي اصطفى هذه الصحابيّة السابقة في الإيمان والمتّصفة بتلك الصفات الحميدة لتصبح رئيسةً في التنظيم النسائيّ الذي أنشأه اللّه جلّ شأنه وبشكلٍ معجزٍ وتحت تسميةٍ متميّزةٍ ليدعم بواسطة هذا التنظيم النسائيّ نبيّه الصادق الأمين لتبليغ رسالة ربّه عز وجلّ بعد أن عظُمت مسؤوليّاته وجعله حاكماً لدولة الإسلام في المدينة المنوّرة.

أمّ المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها:

وعلى حين أنّ اصطلاح (**أمّ المؤمنين**) لم يعرفه المؤمنون في الدور الأوّل المكّي ولذلك فهم لم يكونوا يُنادون الزوجة الأولى خديجة بنت خويلد رضي اللّه عنها الزوجة الأولى لمحمّدٍ رسول اللّه ﷺ بأمّ المؤمنين بسبب أنّ سورة الأحزاب لم تنزل في مكّة المكرّمة ولم يكن يوجد في مكّة تنظيمٌ نسائيّ خصوصاً وأنّ عدد المؤمنين في مكّة كان قليلا وما كان بحاجة إلى التنظيم المذكور وكان في علم اللّه تعالى أنّ خديجة لن يمتدّ عمرها لتهاجر إلى المدينة المنوّرة مع زوجها رسول اللّه ﷺ فلا تشاهد حكومة الإسلام فيها. وكان التنظيم النسائيّ المطلوب بحاجةٍ إلى سابقات في الإيمان من جهة وإلى مناضلات في سبيل اللّه عز وجلّ على ألاّ تكون أعمارهنّ قد تجاوزت العقد الرابع أو دخلت في السنوات

الأولى من العقد الخامس وكما يحدث في زماننا إذا أعلنوا عن مسابقةٍ لدخول المدرسة العسكريّة أو غيرها يذكرون في إعلانهم عن المواصفات والأعمار المطلوبة فقد ابتدأ اللّه عز وجلّ في السنتين الأخيرتين من الدور المكّي يحضّر وقبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة يحضّرُ عضوات للتنظيم النسائيّ المطلوب وبنفس المواصفات المطلوبة التي ذكرناها وحسب علمه الغيبيّ الذي لا يغيب عنه شيء. فوقع نظر اللّه تعالى على أوّل امرأةٍ صالحة لتكون أوّل عضوات رئاسات التنظيم النسائي الذي شاء اللّه تعالى إنشاؤه. فمن هي تلك الصحابيّة الجليلة التي حظيت بفضل اللّه تعالى في هذا المجال؟ إنّها الصحابيّة الجليلة التي كانت من أوائل المؤمنات هي وزوجها أيضاً وهي التي كانت من أوائل مَن هاجرن وزوجها إلى الحبشة حسب رغبة محمّد رسول اللّه ﷺ الذي قال للمهاجرين والمهاجرات الذين ذاقوا الأمرّين من اضطهاد أبو جهلٍ وزبانيّته إيّاهم بسبب تركهم عبادة الأصنام وإيمانهم بوجود الإله الخالق الذي لا إله إلا هو والحيّ القيّوم. وكانت تلك العضوة الأولى التي اصطفاها ربّها لهذا المنصب قد ترمّلت وأصبحت معيلةً لأولادها وقد رجعت من الحبشة في السنوات الأخيرة من الدور المكّي. فهذه العضوة الأولى التي اصطفاها ربّها للمهمّة المقبلة هي (سودة بنت زمعة) رضي اللّه عنها وكان اصطفاء اللّه تعالى إيّاها بترتيب أسبابٍ لم يُطلع عليها أحداً من خلقه تعالى وبأسلوبٍ عجيبٍ معجزٍ أيضاً وقد بشّر اللّه جلّ شأنه هذه الصحابيّة الجليلة بما خبّأ لها من بشارة تحمل وضع وسامٍ على صدرها قبل الأوان أيضاُ على شاكلة ما كان قد بشّر بقيّة العضوات

مؤسّسة الإرشاد النسائيّة واللواتي أصبحن (**أمّهات المؤمنين**) قبل الأوان أيضاً. وسأطلعك على هذه الحقائق يا عزيزي القارئ أوّل بأوّل.

وأقوم بادئ ذي بدء بتعريف القارئ العزيز على هذه العضوة التي اصطفاها ربّها لمنصب (**أمّ المؤمنين**) قبل أن تنال هذا الشرف العظيم. فاسمها (سودة بنت زمعة القرشيّة) وأمّها (الشموس بنت قيس النجّار). وكانت (سودة) قد تزوّجت من ابن عمّها واسمه (الّكسران بن عمرو). وقد أسلم على يدي زوجته (سودة) رضي اللّه عنهما. فسوده أم المؤمنين هذه ضربت مثلاً رائعاً في تقبّل الإسلام ديناً قبل زوجها، وحتى تسببت بإيمانه بعد زواجها منه. كما ضربت المثل الرائع في تحمّلها لاضطهاد قريش لها ولزوجها الأمر الذي اضطرها أخيراً للهجرة إلى الحبشة حيث قاست هناك في الحبشة الحرمان من الأهل والوطن ومن زوجها الذي توفاه اللـه تعالى بعيداً عن وطنه تاركاً لها خمسة أولاد لتتكفل بتربيتهم. ومع ذلك ثبتت على إيمانها وتحمل مسؤولياتها تجاه أبنائها فلمّا عادت إلى وطنها كان قد ذبل شبابها وأصبحت مسنّة. وقد كانت أحوالها لا تغرب عن علم بارئها، فقرر تعالى أن يمنحها وسام البطولة في هذه المجالات فأوحى إليها من وراء حجاب في رؤيا رأتها أنّ قمراً هبط عليها من السماء وهي مضطجعة. وإنّ من يعرف تفسير الأحلام يفهم من رؤيا (سودة) نفسها في المنام مضطجعة أنّها ستتزوّج وهي أرملة ومسنّة وغير قابلة للزواج من الذي أشار إليه القمر المنقضّ عليها من السماء. وقد رأت رؤياها هذه أيام مرض ووفاة خديجة بنت خويلد ﵂. وقد حقق اللـه عزّ وجلّ فيما

بعد رؤياها تلك حين هيّأ تعالى الأسباب ليدفع رسوله الكريم ﷺ ليخطبها وهي طاعنة في السن وأرملة وتعيل خمسة أولادها. فكيف حدث ذلك؟

ففي إحدى الأمسيات وبعد وفاة الزوجة الأولى (خديجة بنت خويلد) رضي اللّه عنها بمدّة وبعد أن طلّق زوجا ابنتي محمّد رسول اللّه ﷺ رقيّة وأمّ كلثوم إيّاهما بسبب تركهما عبادة الأصنام وإيمانهما باللّه الواحد الأحد الحيّ القيّوم ونكايةً بوالدهما رسول اللّه فقد كان المسلمون يشعرون بمصاب رسول اللّه وبمصاب ابنتيه أيضاً ويشعرون بالحاجة أن يزوّجوه لتأتي زوجةٌ بديلة عن خديجة ﷺ لترعى شؤونه وشؤون ابنتيه وشؤون داره. وكانوا في الوقت نفسه لا يتجرّؤون على مفاتحة رسول اللّه ﷺ في هذا الموضوع علماً بأنّ المسلمين جميعهم كانوا يعيشون حالة حصار اقتصاديٍّ ضربه عليهم أبو جهل وزبانيّته. أقول: ففي إحدى الأمسيات تجرّأت صحابيّةٌ جليلةٌ هي (خولة بن حكيم) وكانت مسنّة ومن أوائل المؤمنات هي وزوجها (عثمان بن مظعون) رضي اللّه عنه فقد تجرّأت وبدافعٍ ما عرفت مصدره فزارت رسول اللّه ﷺ وابنتيه في دارهم ومن ثمّ وأثناء زيارتها لهم تشجّعت من جديد وسألت رسول اللّه ﷺ وبكلّ أدبٍ ولطفٍ وبوجود ابنتيه: لماذا لا تتزوّج يا رسول اللّه؟ فأجابها رسول اللّه ﷺ بنبرةٍ حزينةٍ: (ومَن بعد خديجة يا خولة؟ وهنا تجاهلت أنّ رسول اللّه ﷺ ما عادت نفسه تميلُ إلى الزواج بعد وفاة زوجته خديجة التي أنفقت جميع أموالها عليه وماتت هي من سوء التغذية. فخولة رضي اللّه عنها تجاهلت هذا المعنى الذي يحمل

كلّ الدلالة على مدى حبّ رسـول اللّـه لخديجـة. وسـارعت تفـهم من قوله أنّه يسأل عن اسم المرأة التي هي في ذهنها وقالت باختصارٍ شـديد: إن شئت بكراً فعائشة بنت صاحبك أبو بكـر الصدّيـق وإن شـئت ثيّبـاً أي أرملة فهي (سودة بنـت زمعـة) التـي تعـرف سـبقها فـي الإيمـان وصبرهـا وهجرتها وترمّلها بعد عودتها من الحبشة. وما أن سـمع رسـول اللّـه ﷺ باسم (سودة بنت زمعة) إلاّ ومرّت من بين عينيه وبصورة سريعةٍ مـا ألـمّ بهذه الصحابيّة السابقة في الإيمان من اضطهاد من قبـل المشـركين وكيـف أنّها تحمّلته وزوجها بكلّ صبر وثبات وكيف أنّها هـاجرت وزوجـها إلـى الحبشة وما أن عادت إلى وطنها فرحةً إلاّ وتوفّى زوجـها وأمسـت أرملـةً تُعيل خمسة أولاد مع أنّها تجاوزت سنّ اليأس من عمرها ولـم يؤثّـر كـلّ ذلك على إيمانها وأنّـها عـادت بحاجـةٍ إلـى معيـلٍ يخفّـف مـن مصابـها. ورجع إلى ربّه فوراً الـذي شـرح لـه صـدره أن يقبـل هـذا العـرض الـذي عرضته عليه (خولة بنت حكيم) رضي اللّه عنها وفـهم أنّ وراء عرضـها هـذا حكمـة إلهيّـةٌ ومـن واجبه الإسـراع فـي قبـول عرضـها الخـالي مـن المصلحة الشخصيّة إلاّ من الإحساس الرحمانيّ والأخوّة فـي الإسـلام. وهنا التفت محمّدٌ رسول اللّه ﷺ إلى خولة قائلاً (اذهبي فاذكريها عليّ) أي فاخطبيها لي.

وهنا ينبغي أن تتوقّف عند هـذا الموقـف الـذي وقفـه محمّـد رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خاصّة فهو موقفٌ يحمل كلّ الدلالـة علـى أنّ محمّداً لم يكن شهوانيّ نساء لعدّة وجوه منها :

الوجه الأوّل هو إن كان محمّدٌ ﷺ شهوانيّ نساء وكان يستحي من خديجة أن يتزوّج عليها في حياتها حفظاً لإحسانها نحوه وحفظاً لسمعته لكان قد فاتح بعض من كان يجالسه في موضوع زواجه من امرأة ثانية بعد موت زوجته خديجة ويكون معذوراً في ذلك ويسارع كلّ واحدٍ ممّن يفاتحهم إمّا لتقديم ابنة من بناته له أو يقترح عليه فتاةً بكراً لأخٍ له في الإيمان. وهذا لم يحدث.

والوجه الثاني هو أنّ محمّداً لو كان شهوانيّ نساءٍ وعاد يفكّر في الزواج بعد وفاة خديجة، لكان حرّك إحدى ابنتيه الأرملتين لتبحث له عن زوجةٍ تناسبه وترضى هي وأختها عنها لأنّهنّ سيعيشان معها جنباً إلى جنب. وهذا أيضاً لم يحدث.

والوجه الثالث هو أنّ محمّداً لو كان شهوانيّ نساء وكان يبحث عن فتاةٍ بكرٍ تُشبع ميله الجنسيّ لكان قد أجاب هذه الصحابيّة الجليلة التي اقترحت عليه اسم (سودة بنت زمعة) الأرملة المعيلة لأولاد وقد تجاوزت سنّ اليأس، لكان أجابها مازحاً وعلى أقلّ تقدير وبمعنى المثل الشاميّ الذي يقول (صمنا طيلة شهر الصوم وفطرنا على حامض) وبمعنى كيف تقترحين عليّ يا خولة الزواج بأرملة كبيرة في السنّ وبعد أن ودّعت أرملةً مثلها كبيرة في السنّ ولم تعُد صالحة للمعاشرة الجنسيّة؟ لكنّ محمّداً ﷺ لم يقف من خولة هذا الموقف الثالث أيضاً الأمر الذي يعني أنّ محمّداً لم يكن شهوانيّ نساء. بل إنّ محمّداً ﷺ سارع فوافق على اسم (سودة) غير حاسبٍ لأيّ حسابٍ آخر إلا بدافع عطفه على هذه الصحابيّة السابقة في الإيمان.

ألا إنّ العاقل يا عزيزي القارئ القارئ الذي يطالع أمثال هذا الحدث المتعلّق بهذا العرض الذي عرضته (خولة بنت حكيم) على رسول اللّه ﷺ وهو في زمن سنوات الحصار الاقتصاديّ المضروب عليه وعلى جماعته المؤمنة لا يمرّ عليه مرّ الكرام بل يقف عنده طويلاً يقلّبه على أوجهه التي ذكرناها ويستخلص منها وبشكلٍ يقينيٍّ وجازماً بأنّ هذا الرسول العربيّ الذي جعله اللّه جلّ شأنه (رحمةً للعالمين) قد أثبت ومن خلال موقفه المذكور المتعلّق بعرض (خولة بنت حكيم) أنّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه كان حقّاً (رحمة للعالمين). كيف لا ورسول اللّه ﷺ قد تناسى في تلك اللّحظات نفسه واندفع رحمةً ورأفةً بحال (سودة بنت زمعة) إلى خطبتها لرعايتها وليلأم جراحها بدلاً عن أن يبحث عن زوجةٍ ترعاه وترعى شؤونه ويشبع شهوته الجنسيّة التي يتّهمه الظالمون الحاقدون أنّ (خاتم النبيّين) كان يحملها وتسبّبت بزواجه من الكثير من النساء في حياته. متجاهلين هذه الحقائق التي لم يكلّفوا أنفسهم عناء تتبّعها وتقليبها على أوجهها واستخلاص ما كانت تخفيه وراءها من حقائق ثابتة.

ولنعُد يا عزيزي القارئ إلى خولة بنت حكيم وننظُر ماذا فَعلت؟ والذي يتبيّن من أوراق التراث أنّ خولة رضي اللّه عنها سارعت فزارت الصحابيّة (سودة بنت زمعة) وفاتحتها فيما جرى بينها وبين رسول اللّه ﷺ من حديثٍ وبحضور ابنتيه رقيّة وأمّ كلثوم. فدُهشت (سودة) من هذا الاقتراح الذي لم تكن تحلم به في يومٍ من الأيّام. لكنّها تذكّرت رؤياها المبشّرة التي كانت رأتها أيّام وفاة خديجة رضي اللّه عنها وكيف أنّها رأت قمراً يهبط عليها من السماء وهي مضطجعة. فتأكّدت أنّ هذا

العرض الذي حدّثتها به خولة بنت حكيمٍ قد جاء مصداق تلك الرؤيا التي كانت رأتها فمالت على خولة وقصّت عليها تلك الرؤيا وقالت : يا خولة أتربطين ما بين هذه الرؤيا وهذا العرض بالزواج من رسول اللّه ﷺ كما أربطه؟ فعانقتها خولة وهنّأتها وسبّحت اللّه عز وجلّ ممّا سمعته وأدركت أنّ وراء هذا الزواج حكمة جليلة ومقصدا سماوياً.
وقالت لسودة: اذهبي ياسودة وقصّي على رسول الرحمة رؤياك هذه ومن أجل أن يساعد ذلك على تفسير ما وراء هذه الأسباب التي كانت وراء هذا العرض بالزواج الذي كان مقدّمة لإنشاء اللّه تعالى هذا التنظيم النسائيّ الذي كان تعالى يهيّئ أسبابه لإنشائه بعد هجرة رسوله الصادق الأمين إلى المدينة المنوّرة.

وتمّ زواج محمّدٍ رسول اللّه ﷺ بهذه الصحابيّة الجليلة (سودة بنت زمعة) وانتشر إلى جانب ذلك عن طريق خولة بنت حكيم خبر الرؤيا التي كانت رأتها (سودة) والبشارة التي حملتها والتي بشّرت بهذا الزواج وأخذ الصحابة رجالهم ونساؤهم يتساءلون في أنفسهم عن حكمة هذا الزواج المبارك غير المنتظر. فقد كانوا يأملون أن يتزوّج رسولهم ﷺ بكراً وليس أرملةً ثيّبة. وبعد مدّةٍ قصيرة من زمن عقد هذا الزواج أمر اللّه عز وجلّ رسوله الكريم أن يهاجر من مكّة إلى المدينة وتمّت هجرة محمّد ﷺ إليها وكما هو معروف. وبعد مدّة من هجرته هذه أرسل رسول اللّه ﷺ بلالاً إلى مكّة المكرّمة ليأتي له بأهله. فأتى بهم بلالٌ الحبشيّ سالمين غانمين ووصل بهم إلى المدينة المنوّرة بعد أن كان المهاجرون والأنصار قد بنوا لرسول اللّه بيتاً واسعاً لتقطن فيه

زوجته (سودة) وابنتاه رقيّة وأمّ كلثوم رضي اللّه عليهم أجمعين. فإلى ذاك التاريخ لم يكن اصطلاح (أمّ المؤمنين) معروفاً لدى صحابة رسول اللّه وكان صحابته ﷺ يكرّمون خديجة وسودة من أجل تكريمهم لرسول اللّه الصادق الأمين. أمّا وقد بدأت آيات سورة الأحزاب تنزل في السنوات الأولى في المدينة المنوّرة. وأنزل اللهّ جلّ شأنه الآية السادسة التي قال تعالى فيها: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ فقد فرضت فقرة (وزوجاته أمّهاتهم) على المهاجرين والأنصار استعمال هذا الاصطلاح فأخذوا يستعملونه لزوجة رسول اللّه (سودة بنت زمعة) وغيرها من الزوجات التي أتت بعدها واللّواتي ذكرتهنّ من قبل للقارئ الكريم وبيّنت من خلال قصصٍ تلك الزوجات أنّ كلّ واحدةٍ منهنّ كانت قد تلقّت بشارةً قبل زواجها من محمّدٍ رسول اللّه ﷺ الأمر الذي يثبت أنّ اللّه تعالى كان يصطفي تلك السابقات في الإيمان والمناضلات في سبيل تثبيت دعائم الدين الإسلاميّ الحنيف وليشكّلن التنظيم النسائيّ الذي كان من مهمّته مساعدة محمّدٍ رسول اللّه ﷺ على أداء رسالة ربّه عز وجلّ وعلى صعيد تربية نساء المسلمين خاصّة. وهي الحقيقة التي بيّنتها في هذا الكتاب. وعلى هذه الصورة نالت (سودة بنت زمعة) في المدينة المنوّرة هذا اللّقب (**أمّ المؤمنين**).

فلمّا نزل قول اللّه عز وجلّ في الآية 28 من سورة الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيروى أنّ رسول اللّه ﷺ عرض الطلاق على زوجته (سودة) هذه التي كان قد تزوّجها في مكة

المكرّمة. اجتهاداً من جانبه ﷺ أنّه لربّما لا يريد الله جلّ شأنه أن يشملها في المدينة المنوّرة مع اللّواتي جمعهنّ من أجل قيام التنظيم النسائيّ الذي نتكلّم عنه. فتوسّلت (سودة بنت زمعة) إلى رسول اللّه ﷺ ألاّ يطلّقها وقالت له بتضرّع شديدٍ (أمسكني يا رسول اللّه فأنا على استعدادٍ للقيام بكلّ ما تمليه هذه الآيات من أوامر عليّ) فأبقاها محمّدٌ رسول اللّه ﷺ زوجة وأمّا للمؤمنين. فلمّا انتقل المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى أمدّ اللّه عز وجلّ في عمر أمّ المؤمنين سودة بنت زمعة فعاشت بعد وفاته ﷺ إلى أواخر زمن خلافة عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه ومن ثمّ انتقلت رضي اللّه عنها إلى جوار ربّها عام **55** للهجرة. فلماً توفّاها اللّه تعالى رثتها أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنها قائلةً: (ما من امرأةٍ أحبّ إليّ من أن أكون في مِسلاخها أي في مثل عاداتها وطريقتها في الحياة من سودة بنت زمعة ﷺ.

وعلى هذه الصورة أكون قد أطلعتك يا قارئي العزيز على البشارات التي كانت تلقّتها عضوات هذا التنظيم النسائيّ والذي تشكّلت منه (**مؤسّسة الإرشاد النسائيّة**) وكان آخر هذه العضوات البشارة التي تلقّتها أمّ المؤمنين (سودة بنت زمعة) رضي اللّه تعالى عنها.

الباب الرابع

الفصل الأوّل:

زاوية نظري في هذا الكتاب

إذا كنت يا قارئي العزيز كاتباً فإنّك تنطلق فيما تكتبه من الزاوية التي تنظرُ منها إلى الموضوع الذي تكتبه. فهذا حال جميع الذين كتبوا منذ صدر الإسلام وحتّى يومنا هذا. وإن الاختلاف في زوايا نظر هؤلاء آلت بهم إلى اختلافهم في آرائهم فيما كتبوه ومهما كان الموضوع الذي كتبوه. والذي يهمّنا هنا قوله هو أنّ المفسّرين القدماء حين كانوا يفسّرون الآيات القرآنيّة كان كلّ واحد منهم ينظر فيما يفسّره من زاوية نظرٍ خاصّة به ولذلك كان يستدلّ ممّا وصله من رواياتٍ وأحاديث مرويّة بما يتناسب مع زاوية نظره التي كان ينظر منها إلى ما يفسّره. ولذلك

تلاحظ يا عزيزي القارئ كيف أنّ هذه التفاسير الموروثة مليئةٌ بما دسّه المغرضون من أحاديث وروايات تتنافى في نظري مع المنطلق الذي ينبغي أن ينطلق منه الكاتب والمفسّر ومع زاوية النظر التي ينظر منها إلى ما يكتبه.

ولا أطيل على القارئ بضرب الأمثلة على مصداقيّة ما ذكرته. وأكتفي أن أُطلعه على المنطلق الذي انطلقت منه في كتابة هذا المؤلّف وزاوية النظر التي نظرت منها في هذا الموضوع. فأنا انطلقت في هذا الموضوع من المعطيات القرآنيّة وليس من مُعطيات الأحاديث والروايات وغيرها من المصادر. لأنّ هذا الكتاب المقدّس والمبارك لم يفرّط اللّه تعالى فيه في شيء إلاّ وذكره ولكن بصياغةٍ بلاغيّة معجزة تحدّى اللّه تعالى بها الإنس والجنّ. ومستنداً جلّ شأنه في ذلك كلّه إلى منهجيّةٍ وأصول تفسيرٍ تضمّنها هذا القرآن الكريم داخله وليس خارجه وبخصائص ذاتيّة تختلف عن جميع ما عرفه البشر من خصائص الكتّاب والأدباء والشعراء. هذا وإنّ العرب الذين عاصروا نزول هذا القرآن المجيد كانوا يمثّلون ذروة عروج لغة الضاد وهي حقيقة أثبتتها كثير من الحوادث في ذاك الزمان وإنّ إيمان عمر بن الخطّاب ﷺ وكان جبّاراً في جاهليّته بعد سماعه آيات سورة (طه) معروفة كذلك فإنّ اتّهام زعماء قريش محمّدا رسول اللّه بالسحر حدث من جهة تأثير صياغة القرآن في تفكيرهم ومن جهةٍ أخرى جاء بتأثير نبوءاته التي ما كانت تحتملها عقولهم. فالكتّاب والمفسّرون الذين لم ينطلقوا هذه الانطلاقة ولم يأخذوا بهذه المنهجيّة من قبل حاولوا الكتابة وتفسير الآيات القرآنيّة

وخدمة هذا الدين الحنيف لكنّهم ما استطاعوا الخروج بما فتحه اللّه عز وجلّ على شخصي الضعيف.

فلآية 50 من سورة الأحزاب أنزلها اللّه تعالى في السنوات الأولى من الدور المدنيّ، وحفظها حفّاظ القرآن الكريم بترتيب تلاوتها وليس بترتيب نزولها ذلك لأنّ جبريل عليه السلام كان إذا نزل بآيةٍ أو آياتٍ يشير على رسول اللّه ﷺ أن يكتبها كتاب الوحي بترتيب التلاوة الذي هو بين أيدينا اليوم. والمهمّ هو أنّ هذه الآية 50 رتّلتها في تلك الفترة من الزمان جميع ألسنة الذين آمنوا باللّه وبرسوله وأصبحوا مسلمين. فلم يعترض عليها أحد منهم بعد مقارنة مضمونها بما كان يقوم به رسول اللّه ﷺ من الإقدام على زواج. ومعنى ذلك أنّنا إذا فهمنا هذه الآية الكريمة على حقيقة ما تضمّنته نكون قد أحطنا علماً باللّواتي جعلهنّ اللّه عز وجلّ (**أمّهات المؤمنين**) واصطفاهنّ لتصبحن رئيسات لمؤسسة الإرشاد النسائيّة التي خصّصنا هذا المؤلّف للكلام عنها.

فلقد قال اللّه جلّ شأنه في الآية 50 من سورة الأحزاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

فالأب حدّاد الذي ظهر على رأس القرن الماضي والذي تُعتبر مؤلّفاته مرجعاً لدى علماء المسيحيّة فقد راح وتحت عنوان (خصائص النبيّ في أزواجه) يوضّح الميّزة الأولى ويقول : (الميّزة الأولى : إحلال أزواجه له وإن زاد عددهنّ على أربع . مع العلم بحكم " الأربع " للمسلمين "لكي لا يكونَ عليك حرج" " 50 - أي في الآية 50 " مع إحلال الإماء بلا حدّ كما لسائر المسلمين) .

فالأب حدّاد اعتمد فيما كتبه على مُعطيات التفاسير الرائجة بين المسلمين والّتي لخّص الأب حدّاد ما فسّره مفسّروا الأمة الإسلاميّة وعلماؤها بأمانة تامّة . وإنّ كلّ من طالع مؤلّفي (حقيقة مبدأ تعدّد الزوجات) يلاحظ كيف أنني صحّحت فيه تلك المعاني الموروثة عن أولئك المفسّرين الأمر الذي عاد يُبطل ما ذهب إليه الأب حدّاد . وأضيف على ما بيّنته في المؤلّف المشار إليه النواحي التالية :

أوّلاً - بما أنّ اللّه عز وجلّ قد شاء إقامة تنظيمٍ نسائيٍّ في المدينة المنوّرة لدعم رسوله الكريم في مهمّة تبليغ رسالة ربّه التشريعيّة فقد أخذ اللّه عز وجلّ يمهّد لإقامة التنظيم المذكور وينزل أحكام التشريع اللاّزم له . وإنّ مضمون هذه الآية 50 قد شرّع أحكام اصطفاء رئيسات هذا التنظيم النسائيّ واللّواتي سمّاهنّ في الآية السادسة (**أمّهات المؤمنين**) من خلال قوله تعالى : ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ . فهذه الآية 50 التي قال اللّه تعالى فيها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً

إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾. فقد حدّدت هذه الآية الكريمة لرسول اللّه وللمسلمين المجالات التي كان من الضروري أن ينتخب رسول اللّه ﷺ من ضمنها أزواجه (**أمّهات المؤمنين**) والتي تعني رئيسات هذا التنظيم النسائيّ وهذه المجالات وبترتيبها الوارد في هذه الآية الكريمة هي :

(اللاتي آتيت أجورهنّ) وضمن هذا الإطار قام محمّد رسول اللّه ﷺ بالزواج من (سودة بنت زمعة) ومن (حفصة بنت عمر بن الخطّاب) ومن (عائشة بنت أبي بكر الصدّيق) ومن (رملة بنت أبي سفيان) رضي اللّه تعالى عنهنّ.

(وما ملكت يمينك) وضمن هذا المجال تمّ زواج محمّد رسول اللّه ﷺ بالأمة (صفيّة بنت حيي) والأمة (جويريّة بنت الحارث).

ومن أقارب رسول اللّه ﷺ فقد زوّج اللّه تعالى رسوله الكريم بمطلّقة ابنه بالتبنّي (زيد) لإلغاء هذا التقليد الجاهليّ وكما بيّناه في حينه بالتفصيل.

وآخر مجال فتحه اللّه تعالى لرسوله الكريم قوله (وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين) ومن ضمن هذا المجال وهبت (ميمونة بنت الحارث) نفسها لرسول اللّه ﷺ فبعثت من استأذنته فأذن بزواجه منها وتم الزواج المذكور في موقع (سرَف) وكما بيّناه سابقاً.

وبعد أن حدّد اللّه تعالى مجالات الزواج هذه قال اللّه تعالى بعد ذلك: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾. فترك اللّه تعالى لرسوله الكريم من خلال معطيات هذه الآية الكريمة حرّية الحركة والاختيار في انتخاب الصالحات من اللواتي يتزوّج بهنّ ضمن هذه المجالات. وقد ثبت تاريخيّاً أنّه تعالى قد أرشد رسوله إلى كلّ واحدة بشّرها بهذا الزواج قبل الأوان من وراء حجاب.

ومن ثمّ وبعد أن تمّ اصطفاء رئيسات التنظيم النسائيّ المنويّ إقامته. فقد أنزل اللّه تعالى الآية 52 التي تضمّنت اكتمال عدد العضوات المطلوبات لرئاسة التنظيم النسائي المنوي إنشاؤه. لذلك سدّ اللّه تعالى باب الزواج في وجه رسوله الكريم وقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾.

فإن أنت أمعنت نظرك يا عزيزي القارئ في نصّ هذه الآية الكريمة تلاحظ أنّ ما كان اللّه تعالى قد أحلّه لرسوله الكريم من أزواج وضمن المجالات الأربعة التي حدّدتها الآية 50 سالفة الذكر والتي سدّ اللّه تعالى بعدها باب الزواج المقصود إحداثُه من خلال هذه الآية 52 والتي يتبيّن منها أنّ العدد المطلوب قد تحقّق وبتوجيه من اللّه عالم الغيب الفعّال لما يريد. فاللّه تعالى أصدر هذه الأوامر التي تضمّنتها هاتان الآيتان فقد

أقدم اللّه عز وجلّ على تبشير كلّ واحدة من السابقات في الإيمان واللائقات لهذه العضويّة بتبشيرها قبل الأوان في رؤياها بوحيٍ من وراء حجاب لتيقّنَ هذه المؤمنة السابقة في الإيمان حين زواجها من محمّد رسول اللّه ﷺ أنّ ما جرى إنّما جرى بمشيئة اللّه تعالى وبإرادته جلّ شأنه لذلك فإنّ عليها أن تتمسّك بما يوصيها به ربّها من وصايا وما ينهاها عنه ربّها من نواهي أن تلتزم بهذه جميعها كلّ الالتزام وإلاّ تخسر هذه الفرصة النادرة التي تستميت كلّ امرأةٍ مؤمنة متفانيةٍ في خدمة الإسلام لتنالها. ولذلك رأينا أنّ جميع هذه الزوجات لم تستنكف ولا واحدة منهنّ عمّا أسنده اللّه تعالى إليها من مهمّةٍ وكما أثبتَ ذلك المتوارثُ من تاريخ هذه الأمّة. وبألفاظ أخرى فإنّ يد الغيب كانت تعمل وراء إنشاء التنظيم النسائيّ المشار إليه. فلم يكن زواج محمّدٍ رسول اللّه بهذا العدد من النساء يمثّل اندفاعاً من جانبه ﷺ ولا انسياقاً وراء شهوته الجنسيّة التي اتّهمه الظالمون بها وبعيداً عن مُعطيات هذه الآيات من سورة الأحزاب. فمحمّد رسول اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء. ولا سعى من نفسه للزواج بذاك العدد من الزوجات.

ثانياً ـ وبعد أن فرغ اللّه تعالى من تأمين العدد الّلازم من تلك العضوات والذي اقتضاهنّ التنظيم النسائيّ المطلوب واللواتي كنّ سيترأسن هذا التنظيم النسائي المراد إنشاؤه فقد غيّر اللّه عز وجلّ في وجهة خطابه وراح يوجّهه بعد الآية 52 مباشرة التي سدّ من خلالها باب زواج رسوله الكريم. أقول راح اللّه تعالى يوجّه خطابه إلى المؤمنين بصورةٍ عامّة يوصيهم من خلاله بوصايا التعامل مع عضوات هذا

التنظيم النسائيّ اللواتي جعل بيوتهنّ مراكز لهذا التنظيم. وقبل أن أسرد تلك الوصايا الإلهيّة أسأل قارئي العزيز بل أسأل كلّ مفكّر يقوم بتدبّر آيات هذا القرآن الكريم طالباً منهم أن يوضّحوا العلاقة الموضوعيّة الحقيقيّة التي تربط ما بين الآيات الكريمة التي تكلّمت عن النبي وأزواجه وما بين هذه النقلة النوعيّة في هذا الخطاب الإلهيّ الوارد بعد تلك الآيات. أم أنّهم سيقولون أنّ للّه تعالى الحرّية أن يتناول الكلام عمّن يشاء في كتابه العزيز وبدون التقيّد بتسلسلٍ في الأفكار التي يطرحها في آيات كتابه العزيز - أعاذنا اللّه تعالى أن نزعم مثل هذا الادّعاء - . بل لابُدّ أن يكون هناك تسلسلٌ موضوعيٌّ بين آيات هذا القرآن المجيد على الدوام.

أقول: إنّ سرّ هذه النقلة في الخطاب الإلهي يكمن في أنّ اللّه تعالى حين فرغ من تهيئة مقوّمات التنظيم النسائيّ الذي شاء إنشاؤه توجّه بعد ذلك يخاطب المؤمنين بصورة عامّة يرشدهم عن كيفيّة تعاملهم مع رئيسات هذا التنظيم النسائي اللّواتي كنّ أزواجاً للنبيّ ﷺ وأمهات للمؤمنين واللواتي كانت دار الواحدة منهنّ مركزاً لهذا التنظيم المشار إليه. وإنّ جميع دورهنّ كانت في حقيقة أمرها بيوتاً للنبيّ عليه السلام. لذلك خاطب اللّه تعالى الآن المؤمنين يوضّحُ لهم كيفيّة التعامل مع بيوت النبيّ فقال في الآية 53: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ

لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

فلاحظ يا عزيزي القارئ الأحكام التالية الواردة في هذه الآية الكريمة :

- ما دامت بيوت أزواج النبيّ ﷺ قد أصبحت مراكز لمؤسسّة الإرشاد النسائيّة فما عادت تلك البيوت مفتوحةً لاستقبال الرجال المؤمنين كما حدث في السنوات الأولى من حياة الدعوة في مكّة المكرّمة.

وقد تحدث دعواتٌ إلى طعامٍ من قبل رسول اللّه ﷺ فمن واجب المدعوّين الحضور على الوقت المقرّر وليس قبله وانتظار نضوج الطعام.

وبفرض حضرتم دعوة الطعام فانتشروا بمجرّد الانتهاء منه وليس أن تظلوّا هناك مستأنسين بحديث أحدٍ منكم أو غيره.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ومعناه أنّ هذه التعليمات التي نوصيكم بها هي تعليمات جديدة نوصيكم بالعمل عليها في المدينة المنوّرة لحدوث متغيّرات فيها وإلاّ فقد كان ذلك مباحاً في مكّة المكرّمة بالرّغم من أنّ رسولنا الكريم كان يتأذّى من ذلك.

كذلك كنتم تخاطبون خديجة بنت خويلد في مكّة المكرّمة بلا حجابٍ بينكم وبينها. أمّا الآن فهذا غير مباح في المدينة المنوّرة لكون أزواج النبيّ فيها أصبحن أمّهات للمؤمنين ورئيسات لمؤسسّة الإرشاد

النسائية فصفة هذه الزوجات اختلفت عن صفة تلك الزوجة الأولى في مكة المكرّمة لذلك إذا سألتموهنّ أيّ متاع من رغيف أو صحن أو غيره ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ بسبب أنّ الجوارح وسائل نقل التأثير في النفوس

واعلموا أيضاً أنّ صفة أمّ المؤمنين وعملها كرئيسة للتنظيم النسائيّ الذي أنشأناه على أسلوبنا في إنشاء المؤسّسات الاجتماعيّة هذه فإنّ رئاستها ستدوم بعد وفاة رسولنا الصادق الأمين إلى نهاية أعمارهنّ لذلك فلا يجوز لأحدٍ بعد وفاة الرسول أن يقدمَ على التزوّج بإحداهنّ ولا إخراجهنّ من بيوتهنّ التي جعلناها مراكز لنشاطاتهنّ دعماً لمهمّة الرسول الأمين.

وقد أنهى اللّه تعالى جميع هذه الأحكام ببيان حيثيّاتها وقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ وهذا القول يعني أنّ مخالفة هذه الأحكام وخاصّةً منها الحكم الشرعيّ الأخير بُعدٌ في نظر ربّكم مخالفةٌ كبيرة.

ونحمد اللهّ تعالى أنّ مسلمي تلك الفترة من الزمان كانوا قد فهموا هذه الأحكام التي تضمّنتها هذه الآية الكريمة على حقيقتها والتزموا بها إلى آخر أزمنة الخلافات الأربعة الراشدة. فلم يُخرجوا إحدى تلك الزوجات من بيتها ولا أقدم أحدٌ على التزوّج بإحداهنّ وأدّت تلك الزوجات الرئيسات أدوارهن المكلفات بالقيام بها أحسن أداء. وبلا دخولٍ في التفاصيل.

فمن خلال هذا الفهم الذي بيّنته لك يا عزيزي القارئ للآيات من سورة الأحزاب أكون قد أعطيتك الدليل الدال على زاوية النظر التي

نظرت أنا من خلالها إلى هذا الموضوع الذي خصّصت له هذا الكتاب فأنا لم أعُد في استخراج مضامين هذا الكتاب إلى شيءٍ من خارج كتاب اللّه العزيز ولم آخذ من خارجه قيل وقال وبما يخالف مُعطيات آيات هذا الكتاب العزيز الكريمة . فإن كنت قد أخطأت فلي أجرٌ وإن كنت قد أصبت فلي أجران وإنّما الأعمال بالنيّات واللهّ من وراء القصد .

الفصل الثاني:

لم يتزوّج محمّد بدافع شهوة النساء

إنّ القارئ الذي طالع كتابي هذا بصورة متأنّية قد تبين له مصداقيّة ما ذكرته وبيّنته له من أنّ العدد من النساء الأرامل السابقات في الإيمان واللّواتي تمّ زواج محمّدٍ رسول اللّه ﷺ بهنّ في المدينة المنوّرة لم يكن زواجه منهنّ قد حدث بدافع شهوة النساء من جانبه ﷺ ولا للمعاشرة الجنسيّة ولكنّه وإن كان ذاك الزواج من جنس ما تعرّف عليه العرب يومئذٍ وهو العمل على نظام تعدّد الزوجات، لكنّ ما حدث بتلك الشكليّة قد حدث بقصد إنشاء تنظيم نسائيّ يساعد رسول اللّه ﷺ نفسه على إتمام تبليغ رسالة ربّه عز وجلّ بعد أن أصبح حاكماً في المدينة المنوّرة وبعد أن أصبحت المسؤوليّات الملقاة على عاتقه بحاجةٍ إلى التنظيم النسائيّ المشار إليه. فهذه الحقيقة أثبتّ مصداقيّتها من خلال مُعطيات الآيات القرآنيّة من سورة الأحزاب التي أنزلها ربّنا جلّ شأنه في السنوات الأوائل من الدور الذي ابتدأ بالهجرة إلى المدينة المنوّرة.

إنّ الآية **50** دفع مضمونها محمّداً ﷺ لجمع تلك النسوة الأرامل السابقات في الإيمان في بيت النبوّة وبتوجيهٍ من ربّه عز وجلّ والذي

حدّد اللّه جلّ شأنه فيها أُطر انتخاب تلك النسوة وباسم زوجات النبـيّ. فلمّـا اكتمـل عـدد النسـوة المطلـوب جمعـهنّ بـذاك الأسـلوب المتعـارف عليه أنزل اللّه تعالى الآية **52** فأغلقت ذاك الباب الذي كـانت قـد فتحتـه الآية **50**.

وقد أوردت مضـامين الآيـات ابتـداء مـن الآيـة **28** وحتـى الآيـة **34** المنهاج الذي ينبغي على تلك الزوجات الأرامل السابقات في الإيمـان أن ينتهجنـه فـي تصرّفاتـهنّ كرئيسـات للتنظيـم النسـائيّ المشـار إليـه وباسـم (**أمّهات المؤمنين**) وهي التسمية التي أطلقتـها الآيـة السادسـة مـن سـورة الأحزاب. وعلى هذه الصورة أكون قد أعطيت القارئ الكريـم مخطّـط مـا أجريتـه مـن بحـث فـي هـذا الكتـاب بمـا يتعلّـق بموضـوع تعـدُّد أزواج النبيّ ﷺ. كمـا بيّنـت لـه الرابطـة الموضوعيّـة التـي ربطـت موضـوع هـذه الآيات الكريمة بموضوع الآية **35** وما بعدها ربطاً أكّد مصداقيّـة مـا قمـت به من بحث في هذا المجال.

وقـد عرّفـت القـارئ علـى أسـماء تلـك النسـوة التـي ترأسـت ذاك التنظيـم النسـائيّ الـذي تكلّمـت عنـه واللّواتـي سمّاهنّ اللّـه عـز وجـلّ (**أمّهات المؤمنين**) أي رئيساتهم. فأعطيت القارئ الكريم فكرةً ملخّصة وواضحة عن ناحية سبق تلك النسوة الأرامل المؤمنـين فـي الإيمـان وعـن تضحياتهنّ، وكيف أنّ أغلبيّتهنّ كُنّ قد تلقّين بشـارات رحمانيّـة قبـل أن يصبحن من (**أمّهات المؤمنين**) الأمر الذي يدلّ دلالةً واضحةً عن تدخّل اللّه جلّ شأنه في كلّ ما حصل وقد جاء تحقّق تلك البشـارات الرحمانيّـة بمثابة أوسمةٍ عُلّقت على صدور تلك الأرامل السابقات في الإيمان.

وأنا في هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب أنبّه القارئ الكريم إلى النقاط الهامّة المثبتة من خلال هذه الدراسة والتي تثبت بصورة قطعيّة أنّ محمّدًا رسول اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء كما وصفوه ولا سعى إلى جمع تلك الأزواج بدافعٍ شخصيٍّ وإنّما جمعهم بتحريكٍ من ربّه عز وجلّ مسبّب الأسباب. وهذه النقاط المشار إليها هي :

(1) ـ إنّ التاريخ أثبت أنّ زواج محمّدٍ ﷺ بخديجة بنت خويلد الأرملة والتي كانت تكبره سنًّا عند زواجها به أقول : إنّ ذاك الزواج لم يحدث بدافعٍ من محمّدٍ ﷺ نفسه ولكن بتحريكٍ من خديجة ﵂ نفسها. فلمّا تزوّجها ومنحته حقّ التصرّف بمالها الوفير لم يستغلّه محمّد بن عبد اللّه ﷺ لإشباع شهوته الجنسيّة وإنّما استغلّه لإعتاق عبيدها وإعانة المحتاجين من قومه.

(2) ـ كما ثبت تاريخيّاً أنّ زواج محمّد ﷺ من الأرملة السابقة في الإيمان سودة بنت الحارث في آخر سنةٍ في مكّة وبعد وفاة خديجة ﵂ لم يكن بتحريكٍ من محمّدٍ ﷺ نفسه وإنّما كان بتقديرٍ قدّره اللّه تعالى، وبدت معالمه من خلال رؤيا سودة ﵂ وبتحريك من خولة بنت حكيم ﵂ الأمر الذي ثبت من خلاله أنّ ذاك الزواج الثاني كان في حدّ ذاته الدليل القاطع على أنّه لم يتمّ بدافع شهوة النساء.

(3) ـ هذا وإنّ التاريخ قد أثبت أيضاً أنّ زواج محمّد ﷺ بالفتاة البكر الوحيدة عائشة بنت أبي بكرٍ الصدّيق ﵂ لم يكن بطلبٍ من محمّد ذاته بل قدّمتها زوجة الصدّيق تحقيقاً لعرض خولة بنت حكيم ولم يرفض محمّد ما قدّمته إليه زوجة الصدّيق أمام أعين صحابته خشية المسّ

بمشاعرها النبيلة ومشاعر زوجها أبو بكر الصدّيق رفيق صباه ورفيقه في الهجرة من مكّة إلى المدينة المنوّرة. هذا وقد أثبتت الأيّام عظمة هذا الزواج وعظمة تلك الصغيرة في السنّ التي لم تكن معالم شخصيّتها معروفة حتّى لحظة الزواج بها. وقد دافع اللّه تعالى في كتابه العزيز وبصراحة تامّة عن عائشة ﵂ وعن طهارتها وعن صلاحيّتها لتكون خادمة أمينةً لرسول اللّه ﷺ في أداء مهمّة تبليغ رسالته السماويّة.

(4) ـ كذلك ثبت أنّ إقدام زواج محمّد رسول اللّه ﷺ من صفيّة بنت حُيي لم يكن بدافع شهوة النساء بل صدّق محمّد ﷺ بزواجه منها الرؤيا المبشّرة التي كانت صفيّة ﵂ قد رأتها يوم كانت زوجة اليهوديّ صاحب حصن القموص من حصون خيبر التي دمّرها الإسلام ونفى أهلها بسبب غدر اليهود المتكرّر وحياكة المؤامرات ضدّه. الأمر الذي ثبت من خلال الزواج بصفيّة أنّه زواج سماويّ ولم يكن بدافع شهوة النساء.

(5) ـ وزواج محمّد بن عبد اللّه ﷺ بالأرملة السابقة في الإيمان حفصة ﵂ بنت عمر بن الخطّاب قد تحقّق بإشارة من اللّه تعالى إلى رسول الكريم، ولم يحدث بدافع شهوة النساء أيضاً.

(6) ـ وأمّا جويريّة بنت الحارث التي وقعت في أسر المسلمين على شاكلة صفيّة بنت حيي فقد قدّر اللّه تعالى زواجها برسوله الكريم بغاية أن تصبح وسيلة هداية قومها بنوا المصطلق وكما بيّنته في هذا البحث على حينه. فلم يسع محمّدٌ إليها ليتزوّجها بدافع شهوة النساء ولكنّ

اللّه تعالى دفعها إليه ﷺ بأسلوبٍ عجيبٍ وتسبّب زواج محمدّ رسول اللّه منها بهداية والدها وهداية قومها.

(7) ـ هذا وإنّ زواج الأرملة السابقة في الإيمان هند بنت أبي أمّية من محمّد رسول اللّه ﷺ جاء استجابة من اللّه تعالى لدعاء زوجها لها والذي كان أخاً لرسول اللّه في الرضاعة وابن عمّته أيضاً. ولم يتحقّق الزواج المذكور بدافع شهوة النساء.

(8) ـ وإنّ زواج الأرملة زينب بنت جحش مطلّقة زيد وابنة عمّة محمّد رسول اللّه ﷺ قد فرضه اللّه عز وجلّ فأبطل من خلاله تقليد الابن بالتبنّي الذي كان معمولا به في الجاهليّة ولم يحدث بدافع شهوة النساء كما أشاع ذلك منافقوا المدينة المنوّرة. فلو كان ذاك الزواج بدافع شهوة النساء لكان محمّد رسول اللّه ﷺ قد تزوّج ابنة عمّته هنداً قبل أن يفكّر بتزويجها من خادمه زيد الذي كان ابنه بالتبنّي.

(9) ـ وإنّ قصّة زواج محمّد رسول اللّه ﷺ بالأرملة السابقة في الإيمان (رملة بنت أبي سفيان) ﵂ والتي كانت مهاجرة في الحبشة وكيف أنّ زوجها عاد إلى النصرانيّة ومرض ومات هناك وكيف أنّ هذه الصادقة في إيمانها لم يؤثّر ذلك كلّه على إيمانها بل اعتمدت على الدعاء والتضرّع بين يدي ربّها عز وجلّ وكيف أن اللّه تعالى استجاب أدعيتها الحارّة فرأت في منامها كأنّ آتياً صاح عليها وقائلاً: (يا أمّ المؤمنين) ولم تمض على رؤياها أيّاما إلاّ وجاءت خادمة ملك الحبشة النجاشيّ فطرقت باب دار هذه الأرملة السابقة في الإيمان المؤمنة الصادقة في إيمانها وأخبرتها أنّ رسول الإسلام خطبها عن طريق سيّدها النجاشيّ. فقصّة

هذه الزوجة (رملة بنت أبي سفيان) شكّلت أعظم دليلٍ على أنّ محمّداً رسول اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء بل كان وراء قصّتها الدليل القاطع على أنّ اللّه عز وجلّ هو الذي كان يصطفي أمثالها من الأرامل السابقات في الإيمان والثابتات على إيمانهنّ واللواتي أصبحن أعلاماً في التضحيات وذلك لترؤّس التنظيم النسائيّ المقدّر إنشاؤه في المدينة المنوّرة.

(10) ـ وإنّ الأرملة السابقة في الإيمان (ميمونة بنت الحارث) ﵂ التي كانت قد عزمت على البقاء أرملة وهي شابّة بعد وفاة زوجها الشاب وهي التي كانت تحبّه حبّا جمّاً. فهذه الأرملة (ميمونة) قد وصلها خبر نزول آيات سورة الأحزاب وهي في مكّة المكرّمة بعيدةً عمّا كان يجري في المدينة المنوّرة ومن تلك الآيات التي وصلها خبر نزولها قول اللّه تعالى في الآيات من سورة الأحزاب: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فقرّرت بتحريك خفيٍّ من جانب ربّها أن تهب نفسها لرسول اللّه ﷺ لتكون زوجةً له. وفعلت ذلك بعد صلح الحديبيّة. فهل أنّ بإمكان أيّ إنسانٍ عادلٍ وحياديٍّ أن ينسب هذا الزواج لدافعٍ جنسيٍ من جانب محمّد رسول اللّه ﷺ أم أن يتّهم محمداً بافتراء نزول هذه الآية المشار إليها؟ بل هي إرادة اللّه جلّ شأنه الذي اصطفى هذه الأرملة السابقة في الإيمان والتي بقيت صامدةً في وجه طغاة زعماء مكّة والتي كان جُلّ همّها حفظ كلّ ما كان ينزل من السماء من آيات هذا القرآن العظيم.

(11) ـ ولقد كانت آخر نقطة بيّنتها في هذا الكتاب والتي أثبتّ من خلالها أنّ محمّدا رسول اللّه ﷺ لم يكن شهوانيّ نساء هي قصّة زواج رسول اللّه ﷺ بالزوجة الثانية (سودة بنت زمعة) وذلك بعد وفاة زوجته الأولى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها والتي اقترحت اسمها على رسول اللّه ﷺ خولة بنت حكيم فأرسل وراءها وتزوّجها علماً بأنّها كانت أرملةً وسابقةً في الإيمان ومن المناضلات في سبيل اللّه عز وجلّ. فلو كان محمّد رسول اللّه ﷺ شهوانيّ نساء لكان طلب من خولة بنت حكيم أن تدلّه على فتاةٍ بكرٍ وليس أن تدلّه على أرملة ثيّب بلغ عمرها سنّ اليأس.

وببيان هذه النقطة الأخيرة الحادية عشرة والتي شكّلت مع سابقاتها من النقاط أدلّة قاطعة تنفي أن يكون محمّداً المصطفى خاتم النبيين صلّى اللّه عليه وسلّم شهوانيّاً وعلى حسب زعم الزاعمين من الظالمين من أعدائه أُنهي كتابي هذا راجياً من اللّه ربّي الذي وجّهني إلى كتابة هذا الكتاب دفاعاً عن رسوله الصادق الأمين وبيان حقيقة تعدّد أزواجه وأيّدني في كتابته تأييداً لم يسبق لي أن أحسست به ولا كنت قد طالعته في أيّ كتابٍ قبله. فأحمد اللّه تعالى وأشكره على ما فتحه عليّ وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

2 شعبان 1423 هجري

8 تشرين أوّل 2002 م

سليم الجابي

مراجع هذا الكتاب

من المعاجم : معجم مقاييس اللّغة

أقرب الموارد

لسان العرب

محيط المحيط

من السير : سيرة ابن هشام

السيرة الحلبيّة

من كتب التاريخ : الطبري

من التفاسير : الفخر الرازي

ابن كثير

القرآن والكتاب للأب حدّاد

فهرس الكتاب

الباب الثالث

الباب الرابع